رواية
الآن تبدأ اللعبة
أسرار على جدران الماضي
سنية زايد
عصير الكتب

الآن تبدأ اللعبة

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يونيو / 2021م
- رقم الإيداع: 2021/15172م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-24-4
- المؤلفة: سنية زايد
- تدقيق لغوي: د. محمد حماده
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

الآن تبدأ اللعبة
أسرار على جدران الماضي
سنية زايد
عصير الكتب

إلى المُنَكَّلِ بأرواحهم...

كُلِّ من يخوض معركته الدامية ضد الغياب،
ويُشهر أسلحته المُستميتة في وجه الرحيل،
يُجاهد ليُشفى من آلام الفقد...

لا تحاول؛ فقد هُزِمت.

وإلى الفَقْد...

لقد سَحَقتَنا جميعًا...

ووحدك انتصرت.

«يُفَتَّتُ الماضي بين رحا الحياة الدامية، يتلاشى مع غبار الزمان، فلا تبقى منه إلا ومضات تضوي بأحد أركان الذاكرة، تتمنى أحيانًا أن تُمحى إلى الأبد، لكنك لا تجرؤ أن تتوهم للحظةٍ أن الماضي يشقُّ الغبار يومًا ويعود أدراجه إليك!»

الجدار الأول

"كذبوا حين أخبرونا أن الموتى لا يعودون"

في ظهيرةٍ غائمة تجلس بطرف الأريكة، غارقةَ النَظَرِ بإحدى المجلات بيدها، عينها جرت على تاريخ اليوم الثالث من شهر نوفمبر لعام ألفين وثمانية عشر، ربما تنظر إلى السطور، إلا إنها لا ترى شيئًا. تشعر ببعض التوتر، وكثيرٍ من الاضطراب، وضَعَتها جانبًا، تفرك أصابعها ببعضها بعصبيةٍ حتى كادت تَكسِرهم، عينها مُعَلَّقة بالساعة أمامها، لم تعد تعلم ما الذي يجب عليها فعله، تتنازعها هواجس القلق، ففكرت للحظةٍ أن تُغادر، فقط تعود من حيث أتت، لكنَّ الجالسة أمامها، والتي كَبَّلَتها بناظِريها، جعلتها تتراجع.

ظَلَّت مُقيَّدةً بمكانها وشعورٌ بعدم الارتياح يزداد داخلها بكل لحظة، تنفَّسَت بعُمق، رَحَلت نظراتها في سماء خريفيةٍ غارقةٍ بالسُحُب. تعشق الخريف والغيوم رغم ما يُقال بأنه فصلٌ تتساقط فيه الأرواح كأوراق الشجر، لكن لعل هذا ما تحبه؛ تتمنى لو تسقط عنها روحها، ربما إن عادت إليها تعود خاليةً من شوائب الماضي المؤلمة، وحينها يُحتَمَل أن تُزهِرَ من جديدٍ كربيعٍ عاد ليُشرِق، أو لا تعود أبدًا، وهذا اختيارها المُفَضَّل.

حملت السُحُب أفكارها بعيدًا عن هذا المكان وتلك اللحظة، جرفتها إلى عامين انقضيا، بتلك الليلة التي لم تتوقف عن تَمَنِّ لو لم تحيَها، وليتها لم تَحي بعدها. ليلة فقدت بها كل شيء، فُقِدَت كُلُّها هناك بين حُطامِ الحياة، راودها خاطرٌ غريب: "هل من العدل ألَّا يؤذي الموت الراحلين معه ويُنَكِّلَ بأرواح من تركهم خلفه وخلفهم؟"، تبسَّمَت بكمدٍ لذلك الخاطر، "وما العادل في الحياة ليكون الموت عادلًا؟".

- أستاذة حياة، حان دورك، يمكنكِ الدخول.

أومأت بابتسامةٍ شاحِبة، تلجلجت الخُطَى، تجاهد للسيطرة على أنفاسها، وقفت مُرتَبِكةً أمام الباب، تفكر بالرجوع، تعلم جيدًا إن تخطت ذاك الباب فلن يكون هناك سبيلٌ للعودة؛ تلك فرصتها الأخيرة للهرب، والتي فَوَّتَتها حين أدارت مقبض الباب ودخلت.

تقدَّمت خطواتٍ وئيدة، دارت عينها بالمكتب واسِعِ المساحة، بسيط الأثاث، والذي يبدو باهظ الثمن بما فيه الكفاية للفت النظر إليه، بألوان هادئة وديكورات قد تكون منعدمة، لكنَّ به ما يكفي لينُمَّ عن ذوق طبيبٍ نفسي.

رفع رأسه نحوها، رماها بنظرةٍ مُرحبةٍ باسِمة من خلف نظارته الطبية التي تُضفي عليه وقارًا يُزادُ على وقارِ سنوات عمره المُوشِكةِ على الأربعين، رَجلٌ مُهندمٌ يتميَّزُ بذوقٍ راقٍ، ميله للبساطة يتجلَّى في أناقته، بلونِه الخَمريِّ ولحيةٍ خفيفة، وشعرٍ أسود كثيف، لتلتقي عينه السوداء فتاةً متوسطةَ الطول والوزن، وجهها دائريٌّ ذو بشرةٍ حِنطِيَّة،

دقيقُ التقاسيم، هادئ الجمال، وشعرٍ أسود طويل، ناعِمٍ بلونِ الليل الحالك، وعينين واسعتين بلون العَسَلِ المُصَفَّى، ربما على مشارف الثلاثين من عمرها، ترتدي كنزةً سوداء وبنطال جينز، تشبه ذاك النوع من البشر، الذي لا تكادُ تلاحظه إن عبر بجوارك بأي مكان، لن يلفت نظرك نحوها سوى بشرتها الشاحبة كأنها تعاني مَرَضًا منذ فترةٍ ليست بالقليلة.

انتصب واقِفًا بطوله الذي يفوقُها قليلًا، يزيد من ابتسامته:

- أستاذة حياة، تفضلي بالجلوس.

- اسمي ليس حياة.

جاء ردها سريعًا مُباغِتًا متوترًا، حاولت لثانية أن تَعبُر أفكارها السلبية التي سيطرت عليها، فقد أصبحت هنا وقُضِيَ الأمر. عاود النظر بالورقة أمامه، يبتسم بعَفَويةٍ ويُزيح نظارَته عن عينيه:

- أعتذر كثيرًا، ربما أخطأت المرضة بكتابة الاسم.

- لم تُخطئ، أخبرتُها أن هذا اسمي.

باغتته لحظة دهشةٍ خاطفة دَحَرها سريعًا، استردَّ ابتسامتَه؛ فهو مُعتادٌ تلك الأشياء من زُوَّاره الغامضين. أشار لها بالجلوس، تقدم خطواتٍ وجلس بالكرسي المقابل لها، بادرها:

- هذا شيءٌ يمكنني تفَهُّمه، حين لا يريد المريض إخبار اسمه، هو أمرٌ شائعٌ عند الطبيب النفسي؛ فلا يرغب أحدٌ بزيارته، وإن اضطُرُّوا لذلك يفضلون إخفاء أسمائهم الحقيقة.

تبَسَّمَت باضطرابٍ تدفن أصابعها داخل أكمام كنزتها.

- لكن ليس هذا سبب تغييري لاسمي.

- فما هو السبب الذي جعلك تتنصَّلِين من هويتك؟

رفعت حاجبها بدهشة:

- أتنصَّلُ من هويتي!

- حين ندَّعي أننا شخصٌ آخر، هذا يعني أننا لا نرغب بالشخص الذي نحن عليه، نتنصَّلُ منه، نرفضه، نتبرَّأ منه.

لم ترد بشيء، شردت للحظة، زاغت عينها، لقد ضرب على وترِ حقيقتها بعُنف. انتبهت لأنفاسها الضالة، اعتدلت واقفة، تركته خلف ظهرها:

- هل أسماؤنا وحدها ما يمثل هويتنا؟

- بالتأكيد لا، لكن...

صَمَت، حَكَّ ذقنه وعينه تتأمل وقفتها المضطربة، وارتعاشةَ أناملها المُتَقَطِّعة، أتبع بنبرته الرخيمة:

- كُلُّ تفصيلةٍ في تكوينِنا تُمثلنا، جزءٌ من كيانِنا، مهما بَدَت تافهة فهي تُمثل شَطرًا من هويتنا، حَجَرًا في بناء أرواحنا، فصلًا في قصة حياتنا. وإن بدأنا بالتخلي عنها واحدًا تلو الآخر سينقضُّ بُنيانُنَا، ولن يبقى لنا مِنَّا شيء.

تَجَمَّدت بأرضها، ازدردت ريقها بصعوبة، بذلت جهدها لتجد صوتها:

- ألن تسأل ما هو اسمي الحقيقي؟

- هل تريدين إخباري به؟

- كلا، لا أريد.

إجابتها جاءته حادَّةً وسريعةً وقطعية، رغم ما شعره من تناقض نبرتها التي تريد البوح، وردود فعلها التي حيَّرَته، تمالك فضولَه، وبابتسامته التي كَسَت تقاسيمه:

- كما تشائين، وبالوقت الحالي فلنكتفي بمدام حياة.

- آنسة.

- إذن آنسة حياة، لماذا أنتِ هنا؟

- ولماذا يزورون الطبيب النفسي؟

التفتت مُبتَسِمة، نهض واقِفًا يضع كِلتا يديه بجيبه وينظر نحوها:

- لأسبابٍ كثيرة؛ كُلٌّ منا يعاني في حياته.

- يا عزيزي كُلُّنا مرضى نفسيون.

قاطعته بابتسامةٍ ساخرة لكنها بَدَت مَرِحة، وهي تلقي نظرها خارج النافذة. زادت ابتسامته، مَرَّرَ أنامله بين خصلات شعره، حركة لا إرادية تلازمه كلما فَكَّر بتَعَمُّقٍ أو ارتبك، وقف قُبالتها.

- هو كذلك.

- لكنني لست مريضة.

رماها بتلك النظرة التي لم تفهمها، ولم تحاول، اتجه نحو الأريكة وجلس عليها بارتياحٍ يضع ساقًا فوق الأخرى، الآن أصبح فضولُه أكثر تيقُّظًا، تأمَّلَها بعينٍ خبيرة؛ بدت كشَخصٍ صعب المراس، بابٍ ضاعَ مفتاحه حتى صَدِئَ قفله، فشرع يبحث عنه، فهو يؤمن أنَّ الأشخاص كالأبواب؛ لكُلٍّ منهم مفتاحه، وليس هناك باب صُنِعَ دون مفتاح، فقط علينا أن نعرف أين نبحث وكيف نجده، وهو خبيرٌ بذلك، هي الآن دخلت منطقة نفوذِه، استنفَرَت فضولَه بملامحها الهادئة رغم اضطرابها، ردودِ أفعالها الواثقة رغم قلقها، بشرتها الباهتة توحي بالكثير، تبَسَّمت حين عَلِمَت بما يدور في خلده، أعطته ظهرها واقتربت من مكتبه، لمست مسند الكرسي الذي كانت تجلس إليه بخفة:

- أنا لستُ هنا للحديث عني، بل لسببٍ آخر.

صَمَتت ترمق كرسيه الفارغ أمامها، والواقع خَلفَ مكتبه بنظرةٍ متفحصة. باغتته بالتفاتةٍ سريعة، ثَبَّتَت عينها بعينِه، وبعد لحظةِ صمت:

- ولكن لِمَ لا؟ دعنا نجرب، فلديَّ رغبةٌ مُلِحَّة في التَحَدُّثِ إلى شخصٍ لا أعرفه ولا يعرفني.

- وأنا مُستَمِعٌ جيد، فبكل الأحوال لقد دفعتِ ثمن الجلسة.

ابتسامته في مُحاولةِ إزاحة الحاجز النفسي عنها لم تكن فاشلةً بالكامل، وقد راقت لها لعبته، استفزَّتها ثقته، أرسلت خُصلاتها للخلف، تمسح بين عينيها:

- مِن أين تريدني أن أبدأ؟

- مِن حيث ترغبين.

- لِمَ لا نبدأ من المنتصف؟

رفع حاجبه مَدهوشًا -فتتساءل عيناها عن سر دهشته-، حَكَّ ذقنه وجال بخاطره أنها الآن أصبحت لُغزًا ضرب بأمواج فضوله إلى القمة.

- عادةً يبدؤون من البداية أو النهاية!

- ربما لأنني لا أعلم أيًّا منهما.

عُلِّقت النظراتُ ببعضها قبل أن تُبعِدَ ناظريها وتلف بضع خصلاتٍ حول إصبعها وتُتبِع:

– حقيقةً لا أعلم من أين البداية؟ ربما هي الحادثة، ربما لا، أما النهاية فلا أعلم كيف ستكون، أو إنها كانت، هذا شيءٌ ربما يخبرني به المستقبل، أو إن الماضي فعل. صِدقًا لا أعلم، لذا دعني أبدأ من المنتصف، من حيثُ أقف، أو على الأقل أعلم أنني ما زلت أقف.

جلست إلى ذات الكرسي من خلفها، بزاويةٍ تجعلها في مواجهته، وشرعت تروي له ما لم تأتِ من أجله.

حينما انتهت كانت أنفاسها في أوجِّ انفعالها، كملامحها المضطربة، أما هو فوَشَت عيناه بدهشته، مرت عليه حالاتٌ كثيرة، لكن تلك مُختلفة، وعبرت فوقهما سحابةٌ ثقيلة من الصمت، لتقطعها بنبرةٍ تهكميةٍ زحفت عليها رجفة حزن:

– أعلم أنك تعتقد أنني مجنونة، مثلهم.

– كلا.

فشلت معالم وجهه في تمالك ما يعتمل بصدره، لتعاود نبرتها المرحة:

– لا تحاول حتى الكذب.

عاد يدسُّ أنامله بين خصلاته، مال بجذعه للأمام:

– ليس بالضرورة أن تكوني مجنونة، إلا إنكِ لا بُدَّ تعانين اضطرابًا نفسيًّا، نوعًا من الفِصام أو الهلاوس، ربما...

ابتسامة غامضة احتلت وجهها، ابتسامة تخبره أنها تعرف كل ما يُفكر فيه، أو حتى يتهيأ لقولِه؛ ما أثار عجبه الذي لم يستطِع أن يواريه فسكت. أسندت ظهرها للخلف وعقدت كِلا ساعِديها فوق صدرها.

– يبدو أنها كانت مُحِقَّةً فيما قالته عنك.

صمتت، تنبَّهت حدقتاه تساؤلًا، انحنت قليلًا نحوه، وبصوتٍ أشبه للهمس:

– إنك أحمق، أرعن، لا تصدق سوى ما تراه عيناك، وإن لم تجد تفسيرًا يوافق معتقداتك ستختلقه، لتظلَّ على صوابٍ حتى وإن كُنتَ تعرف أنك مُخطئ.

باغته حديثها؛ تتحدث عنه كشخصٍ يعرفه، وجيدًا، ومن يعرفونه إلى هذا الحد قليلون، فامتلكته نظرة ذهول، ارتبك داخله الذي بدأ يفقد السيطرة عليها، وعِقد ثباته

ينفرط، بدا أن المفتاح الذي وُجِد لم يكن لها. تململ مُحاوِلًا أن يرتدَّ سريعًا لرسم الهدوء على ملامحه ونبرته، واستند بساعده إلى ساعد الأريكة بابتسامةٍ فاترة:

– وماذا قالت عني غير ذلك؟ ومن هي بالمناسبة؟

انتفضت واقفةً تصَفِّق بيديها وتصدر صفيرًا مَرِحًا بشفتيها، ولَّته ظهرها:

– قالت الكثير، فمثلًا؛ أول لقاء بينكما كان بمشفًى للأمراض النفسية يمتلكه صديقٌ لك، فكانت تعاني من بعض وساوس الخوف.

اضَّجَع بمجلسه، وتلك النظرة غير المستوعبة بدأت تعتليه، يكدُّ لإيقاظ جيوش ذاكرته، فأردفت بنظرةٍ هادئة مبتسمة:

– حين اصطدمت بها دون قصد تعاملت معك بفظاظة، حتى إنها أهانتك فتَبَسَّمتَ ولم ترد بشيء وغادرت، فاغتاظت أكثر ونعتتك بالأحمق، شَخصٍ بارد لا يستحقُّ أن تغضب بسببه، إلا إن المقابلة الثانية، والتي كانت بمكتب الدكتور صديقك، والذي هو ابن خالتها...

صمتت، تلوَّنَ وجهه بالاصفرار، انتَفَض من الداخل، تتلاطم الأفكار والصور داخل عقله الذي يكاد أن يُغادِرَه، تأجَّجَت أنفاسه وهاجت، وتوهَّجت معها ذكرياتُ الماضي التي فعل كل شيءٍ لدَفنِها بعيدًا خلف أقفال النسيان، والتي نسي في خضم ألمه أن يتخلص من مفاتيحها فظلت عالقةً به، لم يتفوه بحرف، ربما لأنه لم تكن لديه القدرة على ذلك، أو إن المفاجأة كانت أكبر من استيعابه، بينما تقدَّمت هي نحوه، وبذات الهدوء زادته:

– في تلك المرة طَلَبَت من ابن خالتها أن تكون أنت طبيبها الخاص؛ تريد مضايقتك، إرهاقك، أن تَصُبَّ جام غضبها عليك، أرادت إثبات فشلك، فكانت تؤمن أنه لا يمكن شفاؤها من وساوس الخوف بداخلها، لكنها لم تكن تعلم أنها ستقع بحبك، وأن الحب الصادق والحقيقي دواءٌ لكل داءٍ في الحياة.

تلك اللحظة انتفضت حدقتاه، تباعدت أنفاسه، انتصبت كل شعرةٍ به، وازداد وجهه المبهوت شحوبًا، صوته بالكاد يُغادره: "كاميليا"، ما عاد من شك، إنها هي، من استلبت وثبةً هائلة من الماضي لتعبر فوق ثرى السنين وتضرب ثبات قلبه بقوةٍ في مكمنه. اعتلتها ابتسامة مُشفِقة لأجله، تساءل بعدما افتقر لاستعادة توازنه بنبرةٍ مُنهكة من الحنين:

– هل أنتِ صديقة لكاميليا؟

النظرة التي اعتلته ونبرته كانا ينفيان سؤاله، لم تكن لها صديقةٌ لا يعرفها، لا طريق خطت به يومًا يخفى عليه، يحفظ عدد أنفاسها وهمساتها، لا شيء يخصها غفل عنه، ما كان قلبه ليفعل حتى إن أراد هو، فهزت رأسها نفيًا لتؤكد ما كان يوقنه مُسبَقًا، لتزداد حيرته:

- فكيف...

بتر سؤاله، وقفت قبالته تستند إلى مسند الكرسي بكلا ساعديها، عُلِّقَت عيناها بكرسيه الفارغ خلف مكتبه، قبل أن تلتفت نحوه بابتسامةٍ دون أن تَنطِقَ بكلمة. ضغط جانب رأسه الأيمن مُطرِقًا والوجوم يكسو وجهه.

- كيف؟ ومتى؟

تضاعفت تيهته جبالًا، أبقت عينيها على عينه، وطالت النظرة بينهما، نظرته تائهة مُكَذِّبة، نظرتها مُتحدية كنبرتها:

- لقد أخبرتك كيف.

التفتت عيناه تلقائيًّا نحو كرسيه الخاوي بنظرةٍ مصدومةٍ مذعورة، أخذته هزة خاطفة شاعت توابعها في كامل جسده، شلت عقله، شعر أن الهواء ثقل من حوله، اهتزَّ بؤبؤ عينيه الذي ارتدَّ نحو حياة، التي ابتسمت ابتسامةً غامضة.

أخرجت من جيبها مغَلَّفًا صغيرًا وضعته فوق الطاولة الصغيرة أمامه، مُوقَّعٌ عليه من الخارج؛ إلى الدكتور عاصم خيري، لا يعلم لماذا سرت رعشة مُفاجئة بأطرافه عندما قرأ اسمه على الخطاب، تباعدت أنفاسه، هذا الخط يحفظه عن ظهر قلب.

عينه محبوسة داخل حروف اسمه، لا أحد يكتب الميم كدائرةٍ مُحكَمة تحوي باقي اسمه داخله إلا هي.

- مستحيل!

هذا كل ما تجرأ صوته الواهي على ترديده، الدموع طفقت تحتشد بعينه، تُجاهد جفونه لاعتقالها، شهقاته تتمرد على احتجازها بين ضلوعه، رفع رأسه نحوها يهزها إنكارًا ورفضًا.

اهتزت أنامله لا تجرؤ أن تغادر جنبه، إلا إنه لم يستطِع أن يكبح جنون فضوله، سحب الظرف بأنامِلَ مُرتَعِشة، فَضَّه وسحب الورقة المطوية داخله، فتحها لتتصلَّب حدقتاه والدماء بشراييه، لترتعش الورقة بين أصابعه وعينه تعبر تلك السطور.

رفع عينه يرمقها نظرةً مصدومة، عاد يتأمل الورقة وكُلَّ حَرفٍ بها. حين وصل للسطر الأخير تحَرَّرت الدموع على خده، وضع يده الأخرى على فمه يكتم شهقةً فَرَّت من سجن مواجعه المدفونة بأعماقه، حاول استرداد رشده، عاود النظر لتلك التي تقف أمامه، لكنها لم تكن هناك!

انتفض فَزِعًا، لتصطدم نظراته بالباب مُغلقًا، تبَخَّرت من المكان! ركض خارجًا، لكنها لم تكن بأي مكان، سأل المرضة أين ذهبت الفتاة التي خرجت من مكتبه، فأخبرته أنها لم ترَ أحدًا.

ركض نحو المصعد، وجده يهبط للأسفل، فاتخذ السلالم مُسرِعًا دون تفكير، كان يركض كالمُغيَّب، حتى وصل إلى مدخل البناية، وجد المصعد فارِغًا. يركض بالشارع، عيناه تحملقان بالجميع، تفتشان عنها، تصطدمان بالجميع إلا هي، لم يجدها، لم يرَ لها أثرًا. لملم خيبته ودهشته وصدمته، وعاد إلى مكتبه.

راجع دفاتر الكشف، لكن اسمها لم يكن هناك، مجرد علامة إكس على موعدٍ تم حجزه عن طريق الإنترنت، تذكر لحظتها أنه يُقدم خدمةً خاصة لزبائنه التي ترفض تسجيل أي شيءٍ عنها، تَبًّا للخصوصية والسرية. "ربما لم تكن هنا من الأساس"، همس عقله الذي كاد يشت منه، لولا المرضة التي أكَّدَت له أنَّه كانت لديه مريضة لاعتقد أن مرضاه قد أصابوه بالعدوى.

دخل مكتبه الخاص، أغلق الباب خلفه بعدما صرف الجميع واعتذر عن كل مواعيده التالية. هوى إلى الأريكة مُمسِكًا بالورقة يقرأ كُلَّ حَرفٍ فيها، حتى دمعت عيناه تفيضان بحزنهما، أسلم رأسه للخلف وشخص نظره في الكرسي الفارغ الذي كانت تنظر إليه منذ لحظات، وبصوتٍ ملؤه الوجع:

- اشتقتُ إليكِ كثيرًا، اشتقتُكِ يا حبيبتي.

انفتحت النافذة بغتةً على مصراعيها، اهتزَّ الضوء داخل الغرفة، انتفض، تحَجَّرت يداه على الورقة. نسمة باردة هبت في المكان جَمَّدَت دماءه وأنفاسه، لَفَّته فانتصب شعر جسده وأوصاله، عينه تَصَلَّبت على مكتبته التي اهتزَّت وسقط كتابٌ من أحد الرفوف، ارتجف قلبه وأنفاسه.

بعد لحظةٍ عَمَّ الصمت المُطبِقُ يخنق روحه، تحامل على قدميه المرتعشتين، استجمع دماءه الهاربة، واتجه نحو المكتبة. وقف هادئًا من الخارج، مُوغِلًا في الخوف من الداخل، تصلَّبت عينه على الكتاب أسفل قدمه، والذي كان مفتوحًا، انحنى مُرغَمًا بأنفاسٍ تتهدَّج، ازداد اهتزازُ بؤبؤ عينيه ويده المرتعشة تُطبِقُ على الكتاب، والذي كان

مسرحيتها المفضلة: "هاملت"، مفتوحًا على مشهد موت أوفيليا، أكثر مشهد كانت تعشقه كاميليا.

فقد آخر خيطٍ في رباطة جأشه الخائرة، هوى أرضًا يحتضن الكتاب ويجهش بالبكاء كطفلٍ صغيرٍ فقد أمه، فقد كُلَّ ما لديه حتى روحه، التي رحلت معها حين رحلت عنه. دامت لحظات انهياره كثيرًا، حتى شعر بسكينة خَفيةٍ تتخلله، يدٍ حانيةٍ تُرَبِّتُ عليه، تكتنفه داخل حضنٍ دافئ افتقده منذ سنوات، حتى غفا بموضعه.

النجوم المتفرقة تلمع بوهجٍ خافِتٍ على استحياء بصفحة السماء، وقمرٌ قارب أن يصبح مكتملًا يتوسط زُرقَتها الصافية، هدوء الليل الساكن يعم المنطقة، يرمي بسدوله الرخيمة فوق ذاك الشارع بأحد أحياء القاهرة الراقية، الأشجارُ مُتناثرةٌ على الصَفَّين أمام البنايات المتراصة على جانبيه، والسيارات مُتعَدِّدة الأشكال والأحجام تغطُّ في سُباتٍ عميق أمامها، أعمدة الإنارة تبعث شذراتٍ من الضوء الواهن، لكن من يكترث، فنور القمر يسقي المكان بأسره.

كل شيء بدا مُلائمًا لليلةٍ صيفيةٍ في منتصف أغسطس لعام ألفين وعشرين، مُناسِبًا تمامًا لهدوءٍ أَنيقٍ يسبق اقتراب فجرٍ فاتنٍ وربما عليل، للحق "كاد" أن يكونَ كُلُّ شيءٍ مِثاليًّا.

هناك في منتصف الشارع داخل إحدى البنايات، وتحديدًا بالدورِ الرابع، شقة واسعة المساحة، تتكون من ثلاثِ غُرَفٍ وبهوٍ كبير، ورُدهةٍ متوسطةٍ بآخرها مطبخٌ ومرحاض، توزع أثاثها البسيط المُتَشَكِّل على الطراز الحديث على مسافاتٍ متباعدة ليُضفي مزيدًا من الاتساع لسكانها.

بين جدران إحدى غرفها خافتة الضوء، واسعة المساحة، ذات اللون الأخضر الفاتح، والذي تملؤه الزهور مُتعددة الألوان المبعثرة على كافة الجدران، وسقفٌ بلونِ السماء يتناثر به نجماتٌ وقمرٌ فسفوريون، يُنيرون في ظُلمة الليل، سريران متجاوران بينهما كومود، عليه سِراجٌ كهربائيٌّ صغير، يشع ضوءًا أزرق واهنًا، تعلوه نافذةٌ شبه مغلقة، تقابلهما خزانة ملابس، بجوارها للأعلى ساعةُ حائطٍ تشبِه دُبًّا كبيرًا. أمام الباب يوجد مكتبان صغيران مُتلاصقان، يقبع أمامهما كرسيان، كلُّ شيءٍ في الغرفة مُرَتَّبٌ ونظيفٌ بشكلٍ لافت، إلا من ذاك السرير إلى اليمين، بجوار الباب.

تتوسطه فتاةٌ تغطُّ في نومٍ عميق، مُمَدَّدة على بطنها، تُطبِقُ بين ذراعيها على وِسادةٍ بيضاء تُريحُ رأسها عليها، نثرت فوقها غطاءً صيفيًّا خفيفًا لم يُظهِر منها شيئًا سوى

مؤخرة رأسٍ بشعرٍ أسود طويلٍ ناعم بلون الليل الحالك. بدأت تتقلقل بضَجَر، للحظةٍ حاولت رَفعَ رأسها الخَدِر الذي لم يطاوعها، فأزاحت شعرها بتَراخٍ عن وجهها الدائري ذي البشرة الحنطية، لتظهر من تحته ملامح فتاةٍ ربما في الثلاثين من عمرها، دقيقة التقاسيم، هادئة الجمال. تُرغِمُ نفسها على رفع أهدابها السوداء الطويلة، حتى استطاعت فتحها، لتكشف عن عيونٍ واسعةٍ ناعسةٍ بلون العسل.

تحاول التأكُّدَ مما قَلقَلَ نومها، لم تسمع شيئًا، فألقت برأسها مجددًا إلى الوسادة، وقبل أن تعاود غلق عينيها أتاها صوتُ هَمسٍ طاغٍ يملأ أذنها ويعبر بين حنايا عقلها، يستردها من غياهب النوم، والذي شعرت كأنه غفوة لم تدم إلا نزرًا يسيرًا، رغم أنها حين التقت عينها بعقارب الساعة مقابلها، والتي ينعكس عليها ضوء السراج، كانت تخطَّت الثالثة فَجرًا، وآخر ما وعته عيناها كانت العاشرة مساءً.

مسحت على وجهها، تُقنِعُ عقلها أن الهمس بقايا حُلمٍ عَلِقَ بوعيها، نفضت عنها هواجسها واعتدلت على جنبها الأيمن، وقبل أن تحاول إغلاق عينيها مجددًا عاود الصوت همسه.

انتبهت، هَمَّت جالسةً بتكاسُلٍ فوق سريرها، ربما أمها من استيقظت وتناديها، هكذا أكَّدَ عقلها، أزاحت غطاءَ السرير واعتدلت واقفةً بمنامةٍ قطنيةٍ بلون السماء، لمست أقدامها العارية الأرض أسفلها فسَرَت بها قشعريرة، ورغم أنه أغسطس، فإن تلك البرودة التي تسلَّلَت لها بدت من زمهرير يناير، وعلى الرغم من ذلك لم ترتَدِ خُفَّيها اللذين كانا أمام سريرها، ربما لم تنتبه لهما، أو استطابت لها البرودة في هذا الحر، لكن الأرجح أن الهمس سرق تركيزها.

أخذتها قدماها نحو الباب، وقفت أمامه، تنتظر أن تعاود أمها النداء، لكنها لم تسمع شيئًا، وضعت يدها اليُمنى على المقبض، واليُسرى فوق درفة الباب، وألصقت خدها الأيمن وأذنها إليه تنتظر أن تلتقط شيئًا، لكن لا شيء سوى صوت أنفاسها التي طفقت تخفضها حتى أزِفَت تنعدم، لم يصلها إلا الخواء، وقبل أن تسحب أنفاس الاطمئنان ويخبرها عقلها أنها تتوهم، سمعت صوتًا خارج الغرفة!

التقطت أذنها صوتَ حفيفٍ خفيف، يُشبه ثوبًا يرفل، أو ستائر تتلاعب بها الرياح، قبل أن يستيقظ تركيزُها ويخبرها ألَّا رياح في أغسطس القائِظ، حتى وإن كان مع اقتراب نسمات الفجر، أغمضت عينها، تنفست ببطء، حدثها عقلها أن كل شيءٍ بخير، هي فقط لم تنم جيدًا، وإن قالت ساعات نومها غير ذلك.

لَفَّت المقبض ببطءٍ شديد، فانبَجَسَ القفل عن محبسه، وأصدر صوتًا خافِتًا انتفض له صدرها، فتحت عينيها، رفعت جبهتها عن الباب تسحبه للخلف بروية، ورويدًا

رويدًا ازدادت فُرجَتُه، مَدَّت رقبتها بتردُّدٍ تنظر للخارج، عينها تجول بالبهو الهادئ الساكن، شبه المظلم إلا من بعض ثُلَّاتٍ مُتقَطِّعةٍ من الضوء المتناثر هنا وهناك، والمتسرب من مصباحٍ خافت الإنارة قريبٍ من الباب الرئيسي للمنزل.

تقدمت خطوةً خارجًا وهي تتخلى عن المقبض بارتباك، رنت منها التفافات متتابعة نحو نوافذ البهو أمامها، جميعها مُغلَقة، وستائرها جامدة في مكانِها! ابتلعت ريقها، تقَدَّمت نصفَ خطوةٍ أُخرى مترددة، توقفت قدمها قبل أن تكملها حين باغتها الصوتُ مجددًا، سالت دقاتها كالعرق على جبينها، عكس أوصالها التي تجمَّدت كتجمُّدِ الدم بعروقِها، ومُرغَمةً أرهفت السمع لتَجِدَ الحفيف آتيًا من اتجاه ردهة المطبخ.

ثبتت في مكانها لدقيقةٍ كاملة لا تحيدُ عينها عن موضع قدمها، تشعر بقطراتِ العرق الباردة تنحدر على ظهرها كما تنحدر دقاتها نحو هاويةٍ من الذعر، وثُقلٌ يجثم على أنفاسها، قبل أن تُجبِرَ نفسها على رفع رأسها تُميلها باتجاه غرفة أمها، لتصطدم ببابها مُواربًا على غير عادته، فأمها لا تترك باب غرفتها مفتوحًا إلا نادِرًا، سواء أكانت بداخلها أو لا.

حاولت أن تتنفس الصعداء رغم توجسها، تلجلجت قدماها للحظة قبل أن تذهب بها نحو الغرفة، ثملةَ الخطوات تسترق النظر بالداخل، لتجد السرير خاويًا.

«لا بد أن أمي استيقظت»، طمأنها خاطِرُها، لكنَّ هاجسها عاود زعزعة ثقتها: "لماذا قد تناديني في هذا الوقت المُتأخر؟"، غير إن أمها ليست مِمَّن يستيقظون ليلًا إلا نادِرًا، وهي خير من يعلم ذلك. ربما الحَرُّ أجبرها، فهي تعلم نَهَمَها لشُربِ الماء، خاصةً في الصيف، سَبَّت عقلها، وغباءها، وخوفها زُمرةً واحدة.

وقبل أن تلتفت للجهة الأخرى، عاود الحفيفُ جذبَ انتباهها، وقفت للحظة مترددةً أمام الغرفة، زفرت بضيق توجسها، دنا قلبها من أن يتوقف، تغمض عينها، سَبَّت نفسها على ما ستفعله. سحبت شهيقًا قويًّا ثم فتحتها، أرسلت خصلاتِ شعرها للخلف وتقدَّمت خُطًى وئيدةً نحو الردهة.

توقفت بأولها، ظهرت شحيحةَ الضوء عن باقي المنزل. حين لمحت ظهر أمها تعبر من المطبخ إلى الحمام المُقابِلِ له ترفل في ثوبٍ أبيض تنفست الصعداء وقد تبدَّدَت كل هواجسها، وانقشع غبار الاضطراب والخوف عن وجهها، لم تستطع تَصَنُّعَ المزيد من التماسُكِ الأحمق، انحنت تُمسك رُكبَتيها تستردُّ أنفاسها، تبتسم بسخرية من تفاقم خوفها الذي سيودي بحياتها يومًا.

تَقَدَّمت قدماها، لكن تلك المرة بثقةٍ غمرتها، تحتل وجهها ابتسامتها الساخرة من فرط غبائها، اصطدمت عينها بنافِذةِ المطبخ مفتوحةً وستائرها تهتزُّ بخِفَّة لتُصدِرَ ذات الحفيف الذي سمعته، كأنها وثوب أمها اتفقنَ ضدها، تنفست بعُمقٍ تستردُّ أنفاسها، أغلقت النافذة بإحكام.

اتجهت صوب الثلاجة، أخرجت زجاجة ماء تجَرَّعت منها بنهم، ثم غادرت. وأمام باب الحمام المغلق والضوء الذي يفِرُّ من أسفله، وصوت خرير الماء يأتيها من الداخل، توقفت لحظةً تفكر: أتحادثها أم تغادر؟ اختارت المغادرة؛ فربما لم تنتبه لها وإن حَدَّثَتها قد تُفزعها، خاصةً وأنها بالحمام، وليس بالمنزل غيرهما، فآثرت الصمت وقفلت راجعةً صوبَ غُرفَتِها.

اصطدمت خطواتها المتعثرة بطاولة الطعام فكادت أن تُسقط كرسيًّا كان يستند إليها، انحنت سريعًا تمسكه قبل أن يقع؛ لا ترغب بضوضاء تُفزِعُ أمها. لبضعِ ثوانٍ أخذت تعدل قوائمه كيلا يرتطم بالطاولة ويُصدِرَ ضجيجًا، تتلفَّت يمينًا ويسارًا بغيظ، تسبُّ غباءها وتسبُّ الماضي وما أورثه لها من رُعبٍ يُحكِمُ قبضته على قلبها، خاصَّةً في الليل، والذي يأبى أن يُفارقها منذ الليلة المشؤومة.

رست رقبتها بغتةً على التوائها يمينًا، يبست يدها مكانها، ثَقُلت أنفاسها، شعرت بالدماء تركد بين أوردتها، لتتجمَّدَ على انحنائها عندما التقت عينها بباب الغرفة المجاورة لطاولة الطعام مُوارِبًا، غرفة المكتب، تصَلَّبت نظراتها على بقعةٍ مُحدَّدة داخلها، يصلها ضوءٌ شحيح، تسمَّرَت قدماها، أغمَضَت عينها للحظةٍ طالت وهي تأمُلُ أنَّ ما تنظر إليه من صنع خيالها الأسود الذي يتلذَّذُ بإيذائها يومًا بعد يوم.

عقلها يُحاول تهدئتها: "هيا يا لين، أنتِ فقط عُدتِ لضلالِكِ القديم، كل هذا مجرد سراب"، فتحتها، لتعود موثوقة النظر رغمًا عنها إلى ذات البقعة، لكنَّ شيئًا لم يتغير، ما زالت هناك! ضَلالها يضرب على أوتارِ فزعها القديم بعنف، استندت إلى حافَةِ طاولةِ الطعام لتعتدل بوقفتها، التفتَت بلهفة الغريق نحو الردهة تأمُلُ أن تخرج أمها من الحمام لعلَّها تمدها ببعض القوة التي تتهاوى مُهرولةً منها، وكفها تُطبِقُ على الكرسيِّ يكاد يتفتَّتُ بين أنامِلِها المذعورة. حاولت التنَفُّس وهي تديرُ رأسَها نحو الباب الموارب مجددًا، وتنزع أنامِلَها عن الكُرسي، تغتصب أنفاسَها التي تتباعد، عكس خطواتها التي خانتها وراحت تتقدم ببطء نحوه، جُرأةً كانت أو حماقة، لم تستطِع زحزحة عينيها أو قدميها عن المُضي نحو تلك البقعة بالداخل.

لا تعرف كم دهرًا مرَّ عليها لتجتاز بضع خطواتٍ تفصلها عن الغرفة، التي وصلتها أخيرًا مُنهكة الروح والأفكار. لمست بأطراف أصابعها المُرتَعِشةِ طرف الباب ليزداد

انفراجه، وتتبع نظراتها مُرغَمَةً خيوطَ الضوء الضئيلة القادمة من قاعة الاستقبال التي تتساقط على قدمين مُمَدَّدتين فوق الأريكة، ويزداد اتساع الباب مع ازدياد تلاحق أنفاسها، وتزداد معهما خطوط الضوء التي تتناثر على ثوبٍ أبيض مُمتدٍّ من القدمين إلى الساقين والخصر، وصولًا إلى الوجه، وجه أمها التي تغطُّ في نومٍ عميقٍ فوق الأريكة.

تَصَلَّبت بموضعها، رعشة باردة تسربت إلى أطرافها، تعالت أمواجُ الرهبة والفزع من السفح حتى بلغت أوجها داخلها، عيناها ذاهلتان، إن كانت أمها أمامها فمَن داخل الحمام؟

عاد الحفيف يضرب أذنها بنعومة أفعى تتسلَّلُ بين أوردتها لتُحكِمَ قبضتها على قلبها تعتصره، مثلما تعتصر يدها قائم الباب، ووجهها الشاحب الذي انسحبت منه الدماء وأُحيل للون الثلج يلتفت رغمًا عنها نحو الصوت القادم من الردهة، لتجد الأخرى تقف أمامها؛ فتاة متوسطة الطول والوزن ترتدي ثوبًا أبيض، يغمر الظلام شعرها الأسود الطويل وجسدها، إلا من بقايا ضوءٍ يحتضر فوق وجهها الخمري ليزيده وحشةً ورهبةً وظُلمة، بالكاد يصل عينيها الواسعتين بلون العسل، والتي تنتفض بنظراتٍ من الجحيم. بسمة ساخرة ارتسمت بتقاسيم وجهها دقيق الملامح، وصوتٌ بارِدٌ جَمَّدَ الدم بعروق لين المُتصلبة فزعًا:

- اشتقتُ إليكِ، ألم تشتاقِ إليَّ .. يا لين؟

لم تُجد لين ردًا سوى ازدياد ارتعاشاتٍ ترجها بعنف، تضربها كإعصارٍ غاضب. أغمضت عينها وروحها تهوى كالبرق إلى أربع سنواتٍ مضت، إلى ليلةٍ مشؤومة، وصرخةٍ من الجحيم كرعد تدوي بداخلها، وداخلها هذا يرتجف بفزع: "أنتِ لستِ هنا، كل هذا وهم"، لكنَّ صوت الضحكات الشيطانية الذي أتاها وأد يقينها الواهي في أرضه.

استردتها يدٌ تُطبِقُ بشِدَّة على كتفها تُعيدها من هاوية ذكرياتها، التفتت مذعورةً لتجد أمها تهزها بدهشة، نظرت نحو الردهة، لكن الأخرى قد اختفت، فسقطت في المنتصف مغشيًّا عليها.

في اليوم التالي، ومع اقتراب شمس الظهيرة، تجلس لين داخل أحد متاجر تصليح الهواتف النقالة والأجهزة اللوحية، بأبعدِ زاويةٍ فيه أمام مكتبٍ تعمه الفوضى، مُمتلئٍ بالأوراق وأدوات التصليح، والكثير من أجهزة الهاتف النقال مختلفة الأشكال والصنع، شاردة الذهن في ليلتها الماضية التي عصفت بها، وسؤالٌ واحدٌ يجتاحها: لماذا الآن؟

أتحاول منعها؟ أم إنها تعطيها مُبارَكَتها؟ اختنقت أنفاسُها وسحقتها خيبة الإجابة؛ وهل يهم أيٌّ من هذا الآن؟ استعادها دخول صاحب المكان، الذي ابتسم لها ابتسامةً عريضة، يجلس خلف المكتب أمامها لتُخرِجَ مُغَلَّفًا مفتوحًا من حقيبَتِها وتضعه أمامه.

- هل انتهينا؟

سحب المُغلف ونظر إلى المال بداخله وازدادت ابتسامته تألُّقًا:

- انتهينا.

أخرج من أسفل المكتب حقيبة هدايا من الورق المقوى، بُنِّية اللون متوسطة الحجم، وضعها فوق المكتب، دفعها نحوها برفق، سحبتها، فتحتها، ألقت نظرةً سريعةً داخلها، أومأت رضًا، أغلقتها، أخذتها وغادرت.

عرجت على مقهًى قريبٍ من دار الأوبرا اعتادت الجلوسَ به منذ عشر سنواتٍ تقريبًا، منذ بدأت العزف مع أوركسترا الدار. عادت لتَفَقُّدِ ما بداخل الحقيبة باهتمام، ثم وضعتها بالأسفل بجوار قدمها، غلبها شرودها وهي تُقَلِّبُ كوبًا من الشاي أمامها وتتقلَّبُ معه ذكرياتها الماضية في ذات المقهى.

عيناها شطَّت خارِجًا ضائعةً في ليلتها الماضية، جرت بها خيل الأوهام في كل مضمارٍ تارة، لكن جميعها وصل إلى نهايةٍ واحدة، نهايةٍ توقن أنها لن تكون جيدةً بأي حال. لم يستردها من جنوحها سوى يدٍ حَطَّت على كتفها، ضغطته بحنوٍّ بالغ، وصاحبتها تجلس بالكرسي المجاور لها، فتاةٌ بيضاء بعيونٍ بنيةٍ وشعرٍ قصيرٍ بنفس لونهما، تُماثِلُ لين في طولها المتوسط، وبمثل عمرها، لكنها أكثر نحافة، تبَسَّمت لين لابتسامتها الصافية، لتربِّتَ على يدها:

- هل كل شيءٍ بخير يا صديقتي؟

- كل شيء بخير.

أجابت بابتسامةٍ خرجت باهتةً مُنكسرة، بينما داخلها يصرخ: «كل شيءٍ بخير إلا أنا»، فنقرت صديقتُها بأناملها فوق الطاولة تُرسِلُ نظراتها نحو الفراغ:

- هل تريدين التحدث بشأن ما حدث ليلة الأمس؟

زوت لين بين حاجبيها لثانية تحاول فهم ما تعنيه، ثم بابتسامة:

- يبدو أن السيدة ناهد قلقة للغاية.

– نحن أصدقاء منذ سنين كثيرة، وأمك تعتبرني فردًا من العائلة، إلا إذا كان لكِ رأيٌّ آخر؟

رمتها لين بنظرة معاتبة، فهي تعتبرها أقرب الناس إليها:

– توقفي عن حماقتك يا ريم، أنتِ تعرفين أنكِ كل ما تبقى لي.

– حسنًا، إن كنتُ كذلك، لماذا لم تخبريني ما الذي حدث ليلة أمس؟ أمك حقًا قلقة، قالت إنها استيقظت فوجدتك واقفةً أمام باب الغرفة، نادتك لكنك لم تجيبي، وحين اقتربت منكِ كانت عيناك مُعلقتين بالجهة الأخرى تنتفضين وتبدين كجثةٍ شاحبة، ولما حاولت جذب انتباهك كاد الفزع يقتلك وسَقَطتِ مغشيًّا عليك، ولما سألَتكِ ماذا حدث، أخبرتِها أن مفاجأتها لك أفزعتكِ ففقدتِ وعيك.

– وهذا بالفعل ما حدث.

تهَدَّجَ صوتُها، واجترعت ريقها بصعوبةٍ وقد تذكَّرت كل تفاصيل الليلة الماضية، ضيَّقَت ريم بين عينيها:

– إن كان هذا ما حدث، فلِمَ أرى الكذب بعينيك؟

– تريدين الحقيقة؟

رمتها بنظرة مُشَجِّعة، زفرت لين بوهن، اعتدلت في جلستها، وضعت وجهها بين كفيها، مسحته، هل من الصواب أن تُخبرها؟ أحيانًا لا يكون دعم الآخرين بحد ذاته ما نبحث عنه، كل ما نريده الحديث، نلقي بفوضى أفكارنا خارجًا، لعلَّ البوح يكون كافيًا ليُفرِغَ عقولَنا وأرواحَنا المُنهكة من ثقلها الجاثم فوق صدورنا، حتى وإن لم يُصَدِّقنا أحد.

أخذت نفسًا عميقًا، وبنبرةٍ مُتقَطِّعة:

– لقد... لقد... رأيتُ شيئًا ما بالأمس.

– ماذا؟

اختنق صوتُها، ودموعٌ التمعت بقعرِ عينيها دون أن تتفوه حَرفًا، لكنَّ ريم لم تكن تريد المزيد لتعرف ما الذي تعنيه، اعتلتها نظرةٌ مصدومة مُستنكرة:

– ليس مجددًا!

– لست واثقة.

قاطعتها بانفعالٍ يتهدَّج بين أنفاسِها ونبرتها، لتضغط ريم يدَ صديقتها بصرامة، تنظر بعينها بإصرار:

- أنتِ تتوهَّمين، عقلك يجعلك تَرين أشياء غير...

- لم تكن وهمًا، بل حقيقة، رأيتُها كما أراكِ الآن.

ازداد اضطرابُها بانفعال وخفقان قَلبِها في تَتالٍ مستمر، ألحقَت بتَصمِيم:

- تلك هناك كانت...

استحالت نبرة ريم لحِدَّةٍ قاطعة كنظرتها:

- الموتى لا يعودون!

ارتجَّ شيءٌ بداخلها، تزعزع حاضرُها، للحظةٍ انمحى من عقلها ما حدث في الماضي، كان كُلُّ شيءٍ بخير، وحروف صديقتها وحدها من أطاحت بحياتها وأعادتها إلى شتاتها، وعادت تُلقي بها في هاويةِ الواقع التي سحقتها سنواتٍ طوال.

لامت ريم نفسها على ما أفصحت عنه حين رأت وقع كلماتها على وجه صديقتها، الذي انكمش وشحب واشتعلت تقاسيمه الباهتة ألمًا، وتحولت يدها لقطعة ثلج، تعلم مدى حماقة ما صَرَّحت به، تعلم أن الماضي انتزع قلبها من مكانه، فترفَّقت نظراتها ونبرتها:

- أخشى أن ما حدث سابقًا يتكرر، أخبريني أنك لم تتوقفي عن أخذ دوائك؟

صمتت لحظة، ورغم معرفتها أن ما ستتفوه به سوف يكون أكثر غباءً مما سبق، فإنها لم تستطع منع نفسها؛ خوفًا على صديقة طفولتها، أغمضت عينها بألمٍ حقيقيٍّ تخلَّل نبرتها:

- أنتِ لا تريدين العودة إلى هناك مجددًا، أليس كذلك؟

تجمد بؤبؤ عين لين بمَحَاجِرها، نظرتها الخاوية تُوحي بأن روحَها غادرت بعد الجملة الأخيرة، غابت في لُجَّة أفكارٍ وذكرياتٍ تتمنى لو تنمحي من عقلها، حاولت انتشال وعيها بعيدًا عن تلك الليلة المشؤومة التي فقدت فيها كل شيء، وكل ما حدث لها بعدها وما زالت تُعانيه حتى بعد مرور كل هذه السنوات. لماذا تُهاجِمُنا الذكريات السيئة دُفعةً واحدة كأنها تستدعي بعضها بعضًا كجيشٍ سيخوضُ نِزالًا حتى الموت؟ تُلَقِّنُنا هزيمةً تلو هزيمة، كأنَّ كل خسائرنا لم تكن كافية، لتلتهم نسور ذكرياتنا الضارية ما تبقى من جيفة قوانا الخائرة.

شعرت بشيء يلتفُّ حول رقبتها، يعتصرها يقطع عنها الهواء، فعادت بظهرها للخلف تُلقيه إلى مسند الكُرسيِّ، تضع يدها على رقبتها تحاول تحريرها من خانقها الخفي، تُعافر لإيجاد انتباهها وكلماتها وأنفاسها الضالة، استردَّت بعضًا من حضورها، فرسمت ابتسامةً باهتةً انكسرت على طرف فمها، وحينما لم تستطع تصنعها، أقرت أنْ نعم، بالتأكيد لا أحد يرغب بالعودة إلى الجحيم.

زفرت ريم ارتياحًا، ترميها بنظرة مُشفِقةٍ حينما لمحتها لين احتضرت بسمةً ساخرة بطرف فمها، وعادت تُسنِدُ ظهرها للخلف، وأغلقت عينَها لتبتَلِعَ ماءها المُر كمرارة أيامها، وغصةٌ تحرق قَلبَها، لتتبع ريم وهي تضغط يد صديقتها بحنو:

- أتعرفين حقًا ما هي مشكلتك يا لين؟ أنك آثرتِ الهروب على المواجهة؛ أنتِ تهربين من حزنك بالوهم، ترفضين مواجهة ألم الرحيل والفقد، أرجوكِ ضعي قدمك على أرض الواقع، واجهي حقيقة أنَّ كل هذا ما هو إلا وهم، حينها سيمرُّ كلُّ شيءٍ وتكونين بخير.

ازدردت ريقها بصعوبة، وحبست دموعها موافقةً صديقتها، رغم أنها أكثر من يعلم أنها تكذب، فلا يمكنها تخطي الماضي مهما حاولت، لا يمكنها تخطي الفقد يومًا، لكنَّ ما كانت لا توقنه: على من تحديدًا تكذب؟ على صديقتها أم نفسها؟

انتبهت من شرودِها عندما أعلن هاتفها عن صوت استلام رسالة، لم تكترث لها إلا عندما أتبعها بعدة رسائل متتالية، كأن صاحبها لا يستطيع عنها صبر، فتحتها فتجَهَّمت ومَطَّت شفتيها، تعلوها علاماتُ الضيقِ والعبوس، تعلم أنه لن يتوقَّف عن حُمقِه، التقطت الحقيبة أسفل قدمها وغادرت.

وصلت منزله وطرقت الباب بضعَ طرقاتٍ مُتقَطِّعة بعصبيةٍ واضحة، فتح لها برأسٍ مُطرِقٍ ووجهٍ لم يخلُ من لمحةِ رِضًا لحضورها التمعت في قاع عينيه، بينما هَتَفت مُغتاظة:

- ما هذا الهراء الذي ترسله لي يا سيد زياد؟

لم يُجب، أشار لها بالدخول، دخلت وأغلقَ الباب خلفهما.

بعد أسبوع، وفي جوف ليلٍ مُلتهبٍ من الحر، وفي غرفتها المظلمة إلا من نُدَفِ ضوءٍ تتسرَّب من شقوق الباب وأسفله، لا تكاد ترى هذا السرير في منتصف الغرفة، ولا الفتاة المُمَدَّدة فوقه، ببنيتها القصيرة ووزنها المتوسط المائل لزيادةٍ مُحَبَّبة، مُستغرقة في النوم، أو هكذا تبدو، وشعرها الأسود القصير المُبَعثَر على وسادتها، تشوبُه خصلاتٌ

بنية فاتحة اللون مُتفرقة، وملامح طفولية لا تُناسِبُ عمرها الذي قارب الثلاثين. وجهها تعلوه تقَلُّصاتٌ مُكفهرة، ويرتسم الخوف جليًّا عليه، وهي في تلك اللحظة التي يقف بها العقل بين صحوٍ ومنام، العيون زائغةٌ بين يقظةٍ وغَفلة، تراقصت خيوطُ الضباب في سماء الغرفة عديمة الضوء، ورغم الظلام تراهم، طافوا حولها يرسمون أطيافًا بدت عديمةَ الشكل لا تألفها، لكنها مسلوبة الإرادة تتبعها، سبحت مُتناغمةً تلتف وتتقارب، تتداخل وتتعانق، حتى تكدَّست في الزاوية البعيدة وراحت تتجَسَّدُ لها أجسامٌ مُشوَّهة لوجوه مُخيفة.

انتفضت لاهثة الأنفاس بصرخةٍ مكتومةٍ تتصبَّبُ عرقًا من الفزع والخوف، في لمح البصر أضاءت المصباح الصغير، تأمَّلت الزاوية، لا شيء هناك، تتلفَّت حولها بعينيها السوداويتين كأنهما جمرتان تلتهبان جنونًا، ملامحها تنضحُ بالذعر، تتأمَّلُ كُلَّ شبرٍ ولا شيء، أمواج السكون تُغرِقُ الغرفة والمنزل، وربما الحيَّ بأكمله، تُجاهِدُ لتنظيم أنفاسها، وضعت يدها على صدرها تتلعثم: «اهدأي يا رهف، كلُّ شيءٍ سيكون بخير»، هكذا نصحها طبيبها أن تفعل كلما تعرضت لنوبة هلعٍ بسبب الهلاوس والأوهام التي تعاني منها مثلما شَخَّصَ حالتها، لكن أحقًا تتوهَّم؟ أَم إن ما تراه كُلَّ ليلةٍ حقيقة؟ للحقِّ توقفت عن السؤال منذ زمن، اعتدلت بنصفها العلوي، مالت على الكومود، أزاحته قليلًا عن الجدار، مَدَّت يدها وسحبت من خَلفِه شريطَ حبوب، ابتلعت واحدة وتجَرَّعت خلفها نصف كوب الماء، أعادت الحبوب إلى مكانها المُستتر ولم تنسَ أن تُعيد الكومود إلى وضعه، فلا أحد يعرف أنها تتناولها كي تستطيع النوم.

فتاةٌ وحيدة لأخٍ وحيدٍ مُنشغلٍ طوال الوقت بالعمل مع والدها، صاحب شركة الديكورات المعروف، والذي بالكاد تراه هو الآخر، وأمٌّ كَرَّسَت كُلَّ حياتها للجمعيات الخيرية ومساعدة المحتاجين، ولم تنتبه أن ببيتها ابنةً مُشردةَ الروح، تتضوَّرُ احتياجًا، ظمأى للاهتمام، عارية الأمان، أكثر من يستحق المساعدة والرعاية.

هي المتعلمة صاحبة الشهادة الجامعية من كلية الفنون قسم الديكور، نُزولًا على رغبة والدها، فكانت ترغب هي بدراسة الموسيقى، لكنه رفض، فهي لا تملك الجرأة لرفض أيِّ شيءٍ يريده والداها، حتى إنها لم تستطع إخبار أيٍّ منهما أنها تتردَّدُ على طبيبٍ نفسيٍّ منذ أكثر من عامين، أو بالأحرى تنَقَّلت بين أكثر من طبيب، ومع ذلك فإن حالتها تزداد تدهورًا، حتى لا يخيبَ أملهما بها، لكن ماذا بيدها ومنذ تلك الليلة اللعينة لم يعد شيءٌ بحياتها كما كان قبلها؟ تتمنى لو تعود بها الحياة إلى تلك اللحظة فتحوِّلَ مسار الزمن فلا يكون ما كان، تبًّا لكلمة لو التي تستنزف طاقتنا وتتغذى على أرواحنا وتُهلِكُ عقولَنا وتُسكِنُنا كهوف الكوابيس لياليَ تلو ليالٍ حتى نُصبِحَ أشباحًا مُحَطَّمة، لا نقوى على أشباح كوابيسنا المتجبرة بانتقامها.

ارتمت إلى السرير مجددًا، تقاذَفَتها الأفكار الكئيبة، كل مرة ذات الأمر بين الصحو والمنام، يتجسدون لها، يتلاعبون على هواجسها، فاعتقدت أنها اعتادت وجودهم، عاقرت رؤيتهم طَوعًا أو كَرهًا، لا فرق، فلماذا في كل مرةٍ تُصابُ بنوبة ذُعرٍ لا تقل عن سابقتها؟ بل تشعر أن قلبها يتوقف في كل مرةٍ كأنها أول مرة، ألا يكون اعتياد ظهورهم لها كل ليلةٍ سببًا لتَكُفَّ عن الخوف؟ أليس قُربَانًا كافيًا لهم ليتوقفوا عن التلذُّذِ بإرعابها؟ إن كانت هلاوس، فلماذا تشعر بكل هذا الهلع في حضرتهم، هل الهلاوس تُرعِبُنا إلى هذا الحد؟ هل الوهم البشع الذي ينسجه عقلنا يخيفنا هكذا؟ أم إن كل هذا القُبح يسكن فينا؟ وكل ما يفعله الوهم أنه ينبش قبور أرواحنا ليُرينا البشاعة التي دفنَّاها بعيدًا؟ الهواجس تطنُّ برأسها وتطحنها الأفكار، ترَنَّحت يدها وهي تمسح دمعة يأسٍ هربت من عينها وقد بدأ المُسَكِّن يزحف بين أطرافها حتى أسقط جفونها عنوةً.

على الجهة الأخرى فتحت لين عينها فجأةً مستيقظةً من نومها دون أية إشارة مُسبَقة، غطيط أنفاسٍ قريبة أيقظها، لمحت ما عبر بسرعة البرق أمام ناظريها، تصَلَّبت وخفتت أنفاسها لحظاتٍ كاملة، «الظلامُ يُخيِّلُ ليَ أشياء»، حاولت إقناع عقلها، شعرت بثُقلٍ في الهواء، سكونٌ مُزعِج يحوم حولها، كالفزع الحائم بين ضلوعِها، فطارت نظراتها في الغرفة، لا شيء، أغمضت عينها حبست أنفاسها؛ ثانية، اثنتين، ثلاثًا، عاد الغطيط وعاد اهتياج الفزع داخلها، أحدهم هنا، فتحتهما بغتةً وأسرع من سابقتها، تلاشى مُجددًا، حينما ألفت عيناها الرؤية في الظلام كان كلُّ شيءٍ عاد إلى هدوئه.

تعرف أنه ما زال هنا، لا تدرك كيف تعرف، لكنها تعرف فحسب، تشعر به حولها يرقُبها كوحشٍ ضارٍ يتحيَّنُ فريسته، لا يهمه أن يأكلها بقدر ما يهمه الاستمتاع بالمطاردة، يغويه أن يشتَمَّ خوفها ويتلاعب على أوتار فزعها، شغفه أن يراها تنهار وتتحطم، نشوة مَحقِ روحها جزءًا تلو جزءٍ حتى تُصبِحَ هشيمًا تذروه الرياح كل ما يشتهي.

أوغَلَت النظر بالزاوية البعيدة المُواجِهة لها، زوت بين حاجبيها بنظرةٍ ذات مغزى وبصوتٍ هادئٍ رغم اضطرابه كان صارمًا: "لن أعيشَ ذلك مُجددًا، هذا لن يُحدث!"، التفتت للجهة الثانية وتهدَّجَ قلبُها قبل لسانها بما تحفظه من القرآن، وما يستطيعُ عقلها تذكره، تعلم أنهم ليسوا شياطين ليحترقوا، لكن القرآن يُهدئ من روعها، مُسَكِّنها الذي تُواظبُ عليه كلما ضربها إعصار الخوف والعجز، ذكر الله يُشعِرُها بالسكينة، أنها في حماية الله؛ ومن في حماية الله لن يُصيبه سوء.

انجلت هبوة الجزع من عينيها وخفتت في صدرها، اعتدلت فلفتت نظرها علبة دوائها بجوار السرير، أمها لا تنسى أن تضعها أمامها وتتفقدها طوال الوقت لتتأكد أنها تتناوله في موعده، ولا تنسى هي أن تُلقِيَ بجرعتها كُلَّ صباحٍ في المرحاض، كذلك تفعل مع كل أدويتها منذ عامين، فالمرحاض هو المكان المناسب لها، ليت أمها تفهم. تفرك عينيها، لا تستطيع فتحهما من شدة التعب والإجهاد، كل شِبرٍ فيها يوجعها، كأنها تسلَّقت جَبَلًا صعودًا وهبوطًا، نومها أصبح مؤرقًا في الآونة الأخيرة، لم تعد تنعم بليلةٍ واحدة هانئة، رأسُها أشبه بطاحونة تسحقُ كُلَّ ما يدور بفلكها، أرسلت نظراتها نحو نافِذَتِها المُغلَقة، بدت لها خيوط الضوء الفضي المتسَلِّلة منها واهية، يبدو أن الفجر قارب بزوغه.

سحبت هاتفًا من أسفل وسادتها، تفَرَّست عينها في الرسائل المُرسلة، كتبت الرد وكتبت بعض الرسائل الأخرى وأرسلتها، شاهدت بعض المقاطع المصورة وهي ترتدي سماعات الأذن كيلا يتسَرَّب الصوتُ خارج غرفتها، حتى أخذها الوسن. انتبهت على دقاتِ المنبه يُعلِنُ عن موعد استيقاظِها، أرسلت يدها تُغلقه، هَبَّت مُعتَدِلةً تمسح بين عينيها، حركةٌ لا إرادية تتمكن منها كلما أصابها التوتر، وكَثُرَ ما يصيبها، انتبهت للهاتف، بحثت عنه، وجدته بجوارها فدَسَّته أسفل وسادتها كعادتها، أسدلت قدميها عن الفراش، عَلَّقت عينيها بالسرير الفارغ المقابل لها، ابتلعت ريقها وغصتها، لماذا لم تستمع لأمها حين أخبرتها أن تنام بجوارها وتكف عن النوم وحدها؟ "حمقاء أهوى تعذيب نفسي بالماضي، لكن هل السرير الفارغ هو ما يربطني به؟ إن اعتقدت ذلك فتلك حماقةٌ أكبر"، سَخِرَت من نفسها، نهضت لتلتقي عينها بنَفسِها في المرآة العالقة بواجهة خزانة ملابسها، فمثلها عالقة وسط الوهم والعذاب.

توقفت للحظةٍ تُسهِبُ النظر فيها، تتوقف أمام المرآة منذ الحادثة، تُدَقِّقُ النظر بانعكاسها الذي تراه يهتز، يتراقص، يتبَخَّر، تارةً تعتقد أن عقلها هو المُشَوَّش، وتارةً أُخرى تعتقد أن انعكاسها يُحاولُ الهروب والتَمَلُّصَ منها، ليتركها وحدها كما تركوها من تُحب، وهذا الاعتقاد الأقرب لقلبها، حتى ترتطم نظراتها بالسرير الفارغ خلفها، تتنهد بيأسٍ وخيبةٍ تطَفَح بتقاسيمها، تهرب بنظراتها بعيدًا، تحك جبهتها بأطراف أصابعها، تحاول التمسك بعقلها، أو بالأحرى ما تبقى منه.

تراجعت خطوة، التقطت منشفتها واتجهت صوب الباب، فتحته، دخلت إلى الحمام وأغلقته خلفها، وضعت رأسها تحت الصنبور وتركت الماء البارد يغزوها. بعد دقائق خرجت لتصطدم بأمها دون أن تنتبه.

- انتبهي يا صغيرتي، أو لم تستيقظي بعد!

- عفوًا يا أمي، فلم أنتبه.

- يبدو أنك لا تنامين جيدًا، وجهك عَبوسٌ هذا الصباح، هل صارت هذه عادتك مُؤخَّرًا؟

افتعلت أمها نبرةً مَرِحة، السيدة ناهد امرأة ينطق مظهرها بالأناقة، فَضلًا عن أسلوبها الذي يكمل رِقَّتَها ولَبَاقَتَها، لا عين تُصَدِّقُ أنها في الخمسين بقوامها المشوق، وشعرٍ أسود ناعم طويل، مُنسَدِلٍ على كتفيها، وعيونٍ بلونِ العسل، رغم مسحة الحزن التي تغلفهما إلا إنهما جذابتان بشكلٍ لافت، ربما الحزنُ هو ما يجعلهما كذلك، للحزن أناقةٌ وجاذبية يخطفان شغف العقول قبل القلوب، يستحوذان الاهتمام، امرأة تمتلك جمالًا هادئًا ورثته منها ابنتها.

تخطتها لين مُتجاهلة، رغم أنها سمعت ما قالته أمها وما تُلَمِّحُ إليه، لكنها تصَنَّعت أنها لم تفعل. أحيانًا لا نملك إجابةً تُقال بألسنتنا، لكنها تُقرأ بين أنفاسنا المُجهَدَة، نظراتنا الضائعة، الصمت المختنق بالحروف الصارِخةِ بحلقنا، تنهمر بين حنايا وجوهِنا المُتألِّمة، نصمت، فكثيرًا ما يكونُ الصمت هو الردُّ الوحيد الذي نمتلكه.

أغلقت لين باب غرفتها، ارتدت ملابسها، سحبت حقيبتها وهَمَّت تتوجَّه خارِجًا، وقبل أن تُدير مقبض الباب تذكرت شيئًا، عادت وجلست إلى حافة سريرها، سحبت الهاتف من أسفل وسادتها، فتحته، تفقَّدَته، عبثت به للحظات، فتحت أمها الباب فجأة، فخفضته سريعًا وقد توتَّرَت أطرافها تواريه بجانبها، لم تنتبه أمها التي هتفت بمرح:

- هيا، سيبرد الطعام.

تبَسَّمت وأومأت موافقة لأمها التي عادت إلى البهو، نهضت لين وجعلت الهاتف على الوضع الصامت، وضعته في حقيبتها، لحقت أمها خارِجًا، جلست إلى الكُرسيِّ المجاور لها تُشَتِّتُ انتباهها بالاستغراق في الطعام، حاولت أمها انتزاع أية كلمةٍ على الطاولة، همهمات مُتشتِّتة كل ما استطاعت الحصولَ عليه، لم تستطع السيطرة على اضطرابها أكثر، فتساءلت:

- تبدين شاحبة هذه الأيام؟

- أنا بخير، لكنه التدريب على ما أعتقد.

- لذلك تعودين مُتأخِّرة هذه الأيام؟

ابتسمت تأكيدًا، لتزداد مُحاصرة عين أمها لها، حاولت التهرب، لتتنَهَّد ناهد:

- هل تُخفين عني شيئًا؟

- أنا بخير، فقط إرهاقُ التدريبات، فلدينا حفلٌ مهمٌ قريبًا.

أمالت أمُّها رأسَها مُوائمة، رغم أنها لم تكن تُصَدِّق على كل حال. أرادت أن تسأل عمَّا حدث في الليلة التي استيقظت بها، لكنها آثرت الصمت، لكن هواجسها لم تدع لها الكثير من الخيارات؛ عادت تعبث بطبقها وقد باغتتها بسؤال:

- هل تأخذين دواءك بموعده؟

وقفت يد لين للحظةٍ بموضعها، ابتلعت ريقها والتفتت نحوها، تكلَّفت ابتسامةً باردة:

- نعم، آخذه بموعده.

- هذا جيد يا صغيرتي.

تبَسَّمَت أمها بارتياح، ربَّتَت فوق يدها، عادت لين تعبث بالطبق، تنَهَّدَت أمها بارتباكٍ وعيناها تجوبان الطاولة في كِلا الاتجاهين.

- لقد اتَّصَل والدك اليوم...

وقبل أن تُبادر بحَرفٍ آخر رأت وجه ابنتها مُكفهرًا، وانزلقت الملعقة من بين أنامِلِها، التي أخذت في الارتعاش بشكلٍ لا إرادي، فزاد هَمُّ ناهد وتركت ملعقتها، أطبقت بحنوٍّ على يد ابنتها فوق الطاولة، وعيناها تكادان تصرخان بالشفقة على حالها، وتَهَدَّج صوتها:

- أعرف أنكِ لن تغفري له.

صمتت تُجاهِدُ لإيجاد الشجاعة لتطلب منها المغفرة له، وكيف لها أن تفعل وهي مثلها؛ يصعُب عليها أن تغفر، فبكل مرةٍ تحاول التبرير لنَفسِها ما فَعَلَه لا تستطيع، تعلم أنَّه لن يُغيِّرَ شيئًا من هول الألم الذي تسبب به لكلتيهما، حتى وإن كان دون قَصدٍ منه. تساءل عقلها الساخر بغضبه المكظوم: «القتل أحيانًا يكون دون قصد كذلك، فهل هذا يُعيدُ الحياة إلى الضحية؟»، صفعةُ إجابتها دوت في أعماقها، فصمتت.

خنقهما الصمت لحظاتٍ طالت، حتى اعتقدتا أنها لن تنتهي إلا بموتهما، فسحبت لين يدها من يد أمها وتركت المائدة دون كلمةٍ أو نظرة، سحبت حقيبتها وغادرت.

أغلقت الباب ووقفت لحظاتٍ أمامه تتنَفَّس، تحاول تخطي ما حدث، "لكن هل حقًا تخطَّت يومًا ما حدث؟"، أخذت نفسًا وأخذت معه صفعةَ إجابة سؤالها، وهرولت

خُطاها خارِجًا، ليوقفها صوتُ هاتفها يُعلِنُ عن وصول دُفعةِ رسائل مُتلاحِقة، سحبته من جيب بنطالِها وفتحته تتفَقَّدُ ما وصلها، اعتلاها سخطٌ فوق سخطها، وقد عبرت عيناها أسطر الرسائل وكزَّت أسنانها: "تبًا!".

الجدار الثاني

"الحياةُ والموت كلاهُما يُؤلِمُنَا
بطريقةٍ ما"

مع دقات منتصف الليل بدا القمر المكتمل خافتًا متواريًا خلف سُحُبٍ كثيفةٍ شَكَّلَت غيمةً تحجب ضوءه فلم يصل منه للأرض إلا نُدَف باهتة، خاصةً مع صفحة السماء الخاوية من النجوم، كأن كل شيءٍ الليلة تآمر ليغشى الظلام الأرض.

ظل زياد مُتَسَمِّرًا أمام نافذته، تفَقَّدَ الرسائل في هاتفه، كتب عدة رسائل وضغط إرسال، أعاد الهاتف إلى جيبه، زفر بخيبة، فأملُه واهٍ في حدوث ما يتمنى، ورغم ذلك يتمسك به، مكث بضع لحظاتٍ يُراقب العتمةَ الهَشَّة، شعر أنها إشارته التي ينتَظِرُها منذ عشرة أيامٍ كاملة، بعدما وجد ضالَّتَه التي يبحث عنها منذ أعوام. لم يعد بإمكانه الانتظار أكثر، عاود النظر في الكتاب العتيق بين يديه، دفع فيه مالًا كثيرًا، لكن ما دام وجد ما كان يبتغيه فلا يكترث.

يمسك ورقةً بهت لونها ورقَّ سُمكُها، مطويةً بحَذَرٍ داخله، فتحها وبدأت عينه تجري بين الكلمات سريعًا، طواها بحِرصٍ ووضعها في جيبه. عينه تقرأ باهتمامٍ داخل صفحات الكتاب، يُتَمتِمُ بصوتٍ لا يصلُ إلى أذنيه، تنتقل عينه بين الكلمات وبين القمر المخنوق في سماء مُقفِرةٍ من ضيائها، مَدَّ يده إلى الكرسي بجواره وأمسك بوشاحٍ من الصوف بلونٍ رماديٍّ باهت، دفن أنفه بين أليافه، عَبَّأ رئتيه من رائحته، ما زال يحتفظ بعَبَقِ صاحبته.

تراجع عِدَّةَ خطواتٍ محسوبة لمنتصف غرفة المكتب التي يقف بها، شحيحة الضوء، لا يمدها منه إلا نزر يسير، لترى مكتبًا قديمًا في زاويةٍ بعيدة، ومكتبةً خشبيةً كبيرةً تحتَلُّ جِدارًا كامِلًا وحدها، وطاولةً صغيرةً حولها كرسيان، وبضع شمعاتٍ مُضاءةً مُلتفَّةً على أطراف دائرةٍ مُتوسِّطة المساحة رُسِمَت أرضًا في المنتصف، والتي دَخَلها بحذر. يدٌ مُطبِقة على الكتاب والأخرى على الوشاح، وما زال يُتَمتِم بهَمسٍ خفيضٍ وعينه تنتقل بين السُحُبِ التي احتلَّت السماء وأحالَتها لغيمةٍ كبيرةٍ، وبين الكلمات...

ترَبَّع وسط الدائرة المرسومة بلونٍ أسود كالفحم، مليئةٌ بالرموز والأحرف والرسوم المُتَدَاخِلة، وعلى عتبة الباب المفتوح خَطٌّ أسود. أغمضَ عينه وزادت تمتماته وإطباقه على الكتاب والوشاح، بعد خمسِ دقائق مَرَّت ثقيلةً بعيدةً كدَهر، ازدادت تمتماته المتوالية، وتهَدَّجَت أنفاسُه اللاهثة مع تمايل جسده للأمام والخلف.

توقف حينما شعر بسكونٍ ثقيلٍ يحاوطه كأنفاسه التي تباطأت رغمًا عنه، لم يدُم إلا دقيقة، فتح عينَه بغتةً على صوتِ هَزَّاتٍ عنيفةٍ لدرفتيِّ النافذة اللتين اصطدمتا بالجدار بسرعة فانكسر زجاجُ إحداهما وشُرِخ الآخر. انتفض في مجلسه ورجفة فَزَعٍ تتسلَّلُ إلى أوردته، فسقط منه الكتاب. هرولت يداه المُرتعدتان ترفعانه وتضمانه إلى صدره كأنه مصدر أمانه، وهو ينكمش على نفسه، ليشعر بريحٍ باردةٍ كالزمهرير تعبر

الغرفة وتحاوطه، انطفأت الشموع، أصواتُ رياح عاتية تضرب أذنيه، شهق بارتياعٍ ووضع يديه عليهما يُحاولُ إيقافَ الصوتِ الهادر الذي يكادُ يشجُّ رأسه، أغمض عينيه ألمًا ومهابةً، ورعشةُ ذُعرٍ عنيفةٍ تلَبَّسته.

توقَّفَ كُلُّ شيءٍ فجأة؛ الصوت والرياح، الزمان ودقاته، نبضه وأنفاسه، وعَمَّ السكون. رفع يديه عن أذنيه بارتيابٍ وكُلُّ شِبرٍ فيه ينتفض، فتح عينيه وتلَفَّتَت نظراتُه بحذر، في اللحظة التالية انغلق الباب بعُنف، فارتعد واصطكَّت أسنانه، والتفت رغمًا عنه، يجترُّ أنفاسه اجترارًا، يشعر بألمٍ عتيٍّ يخترقه، ينخر عظامه دون رحمة. تخَبَّطَ في مكانه، تلوَّى بوجعٍ فخرج عن دائرة حمايته، حتى اصطدم بالمكتبة. ارتَجَّت في مكانِها، سَقَطَ أرضًا وسقطت الكتب فوقه وحوله، يشعر بسائلٍ دافئٍ ينهمرُ من جبهته، لمح الكتاب مُلقًى على مسافةٍ منه، زحف على بطنه يتجاهل ألمه لعلَّه يصل إليه؛ يؤمن أنَّ به خلاصه، بات على بعد خطوة، قبل أن تصله يداه يبس، وعينه المفزوعة ترى غيمةً من الضباب الأسود ملأت الزاوية البعيدة من الغرفة، صوتُ حفيفٍ قادمٌ من بعيد، وقعُ خطواتٍ يتخفَّى في الضباب يقترب، لحظات وأظلم كل شيء.

على الجهة الأخرى، ومع تلك اللحظات التي تشتد بها ظُلمة الليل الحالكة، فَزِعت لين من نومها على صوتٍ يملأ رأسها، صرخةٍ دوت بين أرجائها، صرخةٍ تحفظها وتسمعها كل ليلةٍ تدوي في منامها، ومراتٍ كثيرةً تسمعها في صحوها. مرت عدة دقائق حتى استردَّت أنفاسها وهدوءها بعض الشيء، وعادت للحاضر، ولارتمائها فوق السرير، ثم سمعت صوتًا خارج الغرفة، سخط عقلها: "ليس مجددًا!".

هَمَّت واقفة، فتحت الباب، لكن تلك المرة دون لحظة تردد، التقطت أذنها صوتَ الحفيف، وقبل أن تخطو خارج غرفتها سمعت صوتَ شيءٍ يتزَحزَح من موضعه كأنَّما يُجَرُّ جَرًّا، فانزرعت قدماها بالأرض، ورغمًا عنها عاودها الفزع، زاغت عيناها، كأنفاسِها التي كادت تتوقف، ليعم السكون فجأةً للحظةٍ خاطفة ويعود بعده الصوت، لكن تلك المرة صوت عَزفِ كمان حزين، بداية مقطوعةٍ بحد ذاتها، محفورةٍ في ذاكرتها. شهقت بدهشةٍ وخوفٍ وحزنٍ تكتم دموعها، وقد تآمرت ضدها قدماها اللتان اتجهتا صوب غرفة المكتب، كأنَّ صوت العزف يجذبها دون إرادةٍ منها، ابتلعت نشيجها المكتوم، وتقدمت خطواتها الثملة.

وصلت باب المكتب، وضعت يدها على مقبضه، وقبل أن تفتحه، مثلما ظهر الصوت بغتةً اختفى، ثَبَّتَت يدها على المقبض وقلبها ينتفض، تُنصِت لكل هذا السكون الباهت من حولها، تقهقرت قدمها خطوة، وقبل الثانية أتاها صوتٌ من خلفها، فالتفتت من

فورها تجاه مصدر الصوت لتلتقط عينها انعكاس غيمةٍ كبيرةٍ تخنق القمر على نافذة الاستقبال المفتوحة وتُصدِرُ صريرًا. اختنق صدرها لمشهد السماء، فاتجهت نحو النافذة لتغلقها، بعد الخطوة الأولى تخَشَّبت بموضعها، شعرت بكل شعرةٍ فيها تنتصب، وقلبها المتقاذف بين ضلوعها شارف على الخروج هلعًا؛ صوت باب غرفة المكتب من خلفها يُفتَح، يخترق كل حواسها دون رحمة.

أحسَّت خيطًا من العرق نضح بجبينها، ثم أخذ ينحدر على عُنقها يحفر مجراه بظهرها، تبًّا، إنها تسمع صوت السكون ولا تسمع صوت أنفاسِها المهرولة بعيدًا. تزداد ارتعاشات أناملها، فأطبقتها على بعضها عَلَّها توقف بعضًا من رعبها الذي استشرى بأوصالها، وهي مَنْ اعتقدت أنها تخلصت منه، لكن مَن يستطيع هزيمة غِيلان خوفه مهما أقسم على المواجهة والثبات؟

أغلقت عينيها ثم فتحتهما، أخذت نَفَسًا، استدارت على مَهلٍ وقد دَنَا قلبها يقف مهابةً، تسمع صوت صريرٍ يأتيها من الداخل، وإلى الداخل حيث أخذتها خُطاها المُرتعبة، ليسقط شعاع الضوء المتسرب داخل الحجرة على الكرسيِّ الهَزَّاز، لتراها تجلس هناك ترتدي فستانًا حريريًّا بلون السماء يصل منتصف ساقيها، تهزُّ الكرسي بهدوء ويداها تُمسكان بالكمان تُسنِده على صدرها، وترتسم بوجهها نظرةٌ مبتسمةٌ إلا إنها خاويةٌ من أيِّ تعبير، وهذا كان كفيلًا ببثِّ الروع بين ضلوع لين أضعافًا.

تجمدت بمكانها، منذ الحادثة وقد اعتادت على رؤية الكثير والكثير، لكنها تُكَذِّبُ عينيها كما كَذَّبها الجميع، لكن هل كان هذا كافيًا لإنهاء وجعها؟ هل أدويتها كفيلةٌ بإبادة وجودهم؟ هل عامان من التعذيب النفسي والجسدي داخل إحدى مصحات الصحة النفسية جَلَا احتلالهم لروحها؟

انتفضت خيبتها تَرجُمُها: "لا!"، التكذيب والإنكار لم يكونا يومًا كافيين لإنهاء معاناتنا وتشرذم أرواحنا، الهروب من مشكلاتنا لا يساعدنا لحلها، هو فقط يؤجِّل المحتوم، وكثيرًا ما يزيد أوضاعنا تأزُّمًا.

أغلقت الباب وتقدمت خطواتٍ نحوها بعدما حاولت كاذبةً استعادة بعضٍ من رباطة جأشها، والجالسةُ أمامها تنظر نحو الكمان النائم في حضنها، تؤرجح الكُرسيَّ بخِفَّة، وابتسامةٌ غامضة تملأ شدقيها.

- أعتقد أنه حان وقت الحديث.

جلست لين على الأريكة المقابلة لها تبتلع غُصّتها بصعوبة:

- أعتقد ذلك.

في المساء التالي، يرتقي السلالم، يزفر بغيظٍ يملأ صدره، فكم يكره صعودها، فماذا إن كان مُكرَهًا على الصعود حتى الطابق السابع. يتوقف في كل دورٍ يصعده، يُخرِج هاتفه ويعاود طلب الرقم الذي قضى النصف ساعة الماضية في محاولة الاتصال به، ولا يجد سوى صوت المجيب الآلي يُعلِمُه أنَّ الرقم الذي يحاول الوصول إليه خارج الخدمة، فاستشاط سُخطًا.

استمرت قدماه طلوعًا حتى وصل الدور الرابع، توقف يلتقط أنفاسه، ولَّما شعر أنه يفشل بذلك بمفرده أخرج بخاخة التنفس خاصته وراح يسحب أنفاسًا مُتقطعة لعلها تُعينُ رئتيه على المُضِيِّ قُدُمًا.

استشاط سامح غيظًا عندما التقت عينه مُجددًا وتلك الورقة الغبية المُعَلَّقة على باب المصعد، المكتوبةِ بخطٍّ أعوج تُخبِرُ السكان بأنه مُعَطَّل، والتي وُضِعَت على بابه في كل دور، رمقها بكُرهٍ ينتفضُ بين حدقتيه يودُّ لو ينتزع حروفها، التي راوده خاطرٌ غريبٌ أنها تبتسم شماتةً في وجهه تلك اللحظة.

استعادت خطواته تقدمها للأعلى وهو يسبُّ نفسه ويسبُّ صديقه، الأحمق الذي أخلف موعدًا كان مُبرَمًا بينهما، إلا إنه لم يظهر، لو أنه ليس في حاجةٍ مُلِحَّةٍ إلى المال الذي طلبه منه ووعده أنه سيُقرِضه إياه، ما كان أتى حتى هنا، ولا تحَمَّل مشقة صعود تلك السلالم القبيحة.

توقف مُجددًا، أخرج من جيبه بخاخة التنفس لتُعينه على التقاط أنفاسه التي تقطَّعت، وعاود سبَّ نفسه والأحمق، تبَسَّم بسخريةٍ حين تذكَّر أنه الأحمق الوحيد الذي وافق على إقراضه المال، لكنه كذلك لم يتوقف عن سؤال نفسه وهو يحك ذقنه بريبة "لماذا وافق سريعًا ليلة الأمس أن يقرضه المال؟»، شك للحظةٍ أنه كان يريد صرفه بأية طريقة، لعله كان على موعدٍ مع فتاةٍ جديدة، فوافق ليتخلَّصَ منه. تبًّا لو كان الأمر كذلك ولم يُقرِضه المال الآن، سوف يُهشِّمُ رأسه دون تفكير.

انتبه فجأةً أنه وصل إلى الدور المنشود، ابتلع ريقه ووقف يستردُّ أنفاسه الهاربة، فقد بات مُنهكَ القوى. للحظة التقت عينه بالمرآة المواجهة للمصعد، وقف سامح قُبالتها يعدل هندامه ويمسح العرق الذي أغرقه، يتأمَّلُ بشرته البيضاء، بطوله الوافر، وشعره الأسود الكثيف بعيونٍ بنية، وقوامٍ يميل إلى النحافة منه إلى الاعتدال. تبَسَّم لنفسه وللَمحَة الوسامة البادية في وجهه، والتي يفخر بأنه ورثها من جدته.

بعد هنيهةٍ انتظمت فيها أنفاسه، تقدم داخل الردهة التي احتوت أربعة أبوابٍ لأربعِ شُقَق؛ شقة صديقه كانت أُخراهم، ضغط الجرس وقد عاد تجَهُّمُ وجهه، لكن ما من مجيب، عاود الضغط بغيظٍ أكبر يُقسِمُ لو وجده ما يزال نائمًا سوف يوسِعه ضربًا أو يقتله ويُرِيح العالم من كسله. يطرق بقوةٍ حتى يئس أن يُفتَح له، وقف على أطراف أصابعه، يشب للأعلى بأقصى ما يمكنه ويفتش فوق أُطُر الباب حتى وجد المفتاح، فدومًا يضع الأحمق نسخةً احتياطيةً في هذا المكان. فتحه وتقدم للداخل خطوتين، كل شيءٍ مُظلمٌ أمامه، ضغط كابس الكهرباء عِدَّة مراتٍ مُتتالية، لكن لا ضوء، نظر خَلفَه لضوء السلم النَّيِّر، ثم للداخل المُعتم، الغبي الذي لن يُصلح صندوق الكهرباء الذي يتعطل كل دقيقةٍ والأخرى.

ترك الباب الرئيسي مفتوحًا ليمده ببعض الضوء، فالمكان غارقٌ بالظلام، أخذ ينادي عليه دون استجابة، ومع تسَرُّبِ الضوء للداخل لَمَح بعضَ زجاجاتِ الخمر مُلقاةً على طاولة الاستقبال، الآن سوف يقتله، لقد صَدَّق حدسه؛ كانت معه فتاة بالأمس ويبدو أنه قد أفرط من الشراب والاحتفال كعادته فغَطَّ في نومٍ عميق.

كادت خطواتُه تنفجر غيظًا حين أظلم المكانُ كله فجأة، انقبض قلبُه وتوقَّف بموضِعِه، لكنه سُرعانَ ما زفر بارتياحٍ حين تذكَّر أن ضوء السلم ينطفئ بعد فترةٍ مُحددة من الزمان، فأخرج هاتفه من جيبه وفتح ضوء المصباح، ورغم أنه لم يكن قويًا، لكنه كان كافيًا ليرى خطواته المتوجهة نحو المطبخ كي يصل إلى صندوق الكهرباء الرئيسي ويعيد الضوء.

وصل باب المطبخ، وقبل أن يخطو خطوةً أخرى للداخل سمع صوت خشخشةٍ قريب، تنبهت حواسه، وضع قدمه بهدوءٍ ويده تقبض على عارضة الباب، ليتوقَّفَ الصوت، أصاخ السمع ما من شيء، هدوءٌ غريبٌ عَمَّ كامل الشقة. نفض عن عقله تلك الحماقات، وقبل أن تخطو قدمه عادت الخشخشة، تَمَعَّن في الصوت، ليجِدَه صوتًا يشبه أظفارًا تحتكُّ ببابٍ خشبيٍّ بجُهدٍ جَلي.

ابتلع ريقه بصعوبة، شعر بالعرق ينضح على جبينه، وتيارٍ باردٍ يسري من حوله، والضوء في يده يرتعش مُخَلِّفًا ظِلالًا مُتناثرةً في الظلام، لكنه حين أمعن النظر به وجد أن يده هي ما يرتعش، وتسلَّل خوفٌ إلى أطرافه المُرتعدة فسامح شخص مُهتزُّ الأعصاب سريعُ التأثُّر والانفعال، يصفه أصدقاؤه بالجبان الذي قد تقتله قطة إن أخافته في الظلام، ويصف نفسه بأنه شخصٌ حَسَّاسٌ مُرهف المشاعر، حتى وإن كان يعلم أنه خائر الأعصاب ضعيف القلب، إلا إنه يُصِرُّ أنهم هم بليدو الحِس. عاجَلَه تعَثُّرٌ في التنفس، فأخرج بخاخته وشهق منها نفسًا طويلًا قبل أن يُعيدها إلى جيبه، خذلته

قدمه وتقدَّمت نحو الصوت الذي ازدادت حدته، كلما تقدم خطوة تواتَرَ الصوت بين ارتفاعٍ وانخفاض، وتواترت معه أعصابُه التي تفتَّتَ عند عتبة الباب المقابل للباب الرئيسي، باب غرفة مكتب والد صديقه، والتي لا يدخلها في العادة منذ وفاة والديه.

توقف الصوت فجأةً بذات اللحظة التي توقَّفَ بها أمام الباب مُباشرةً، أرهف السمع، لكنه اختفى كأن لم يكن، وضع يده على مقبض الباب، وعلى حين غرةٍ سمع صوت ارتطامٍ قويٍّ بالداخل، فانتفض لا إراديًّا خطوةً للخلف ويده تترك المقبض مذعورة، تنفَّسَ بسرعة، ارتجفت يده وأنفاسه، انحبس الدم بأوردته، دَنَت دقاتُه أن تخمد، أغلق عينه وضربه ألفُ احتمالٍ عن الذي يحدث على الجهة الأخرى كُلٌّ منهم أثار أطنان الهلع بداخله، فكلما أطلقنا العنان لتفكيرنا لنسج احتمالاتٍ ما تقبع خلف الأبواب المغلقة، أو تستتر خلف الظلام في أوقات الخوف، رمح الذعر بداخلنا مُخَلِّفًا وراءه عاصفةً من الخيالات المُخيفة الكافية لقتلنا دون أن ترى أعيننا شيئًا حقيقيًّا ملموسًا.

سحب نفسًا قويًّا وفتح الباب دون لحظةِ تفكيرٍ أخرى، قبل أن يخطو إلى الداخل، أو حتى يرفع ضوء هاتفه المرتعش في يده، قفز فوق صدره قِطٌّ صديقه وهو يموء، ارتدَّ للخلف فزعًا، وارتد معه الباب لموضعه دون أن يُغلَق، استند سريعًا إلى الحائط بجواره، سحب بخاخته التي قاربت أن تفرغ من جيبه ليسترد بها أنفاسه الهاربة، وهو يسبُّ خوفه وصديقه وقِطَّه، واللحظة التي عرفهما فيها.

كان القط الجائع يتمسَّح بقدمه ويموء، استجمع ما تفرق من أعصابه وتبعثر من أنفاسه واتجه نحو المطبخ، فتح صندوق الكهرباء وأعاد المفتاح إلى موضعه فعاد الضوء، سحب طبق القط ووضع له بعض الطعام، فتح الثلاجة، أخرج زجاجة مياه باردة، نهم منها الكثير، وأفرغ الأكثر فوق رأسه المُشتعل، لعله يُبَرِّد قليلًا من احتراق أعصابه.

قفل عائدًا إلى غرفة صديقه، فوجد الفوضى تملؤها، لكنها فارغةٌ منه، تفقد الغرفة الأخرى بجوارها، ولم تختلف عنها شيئًا، كذلك كان الحمام، لعلَّه خرج. وقف بمنتصف الاستقبال فانتبه لمفاتيحه فوق الطاولة، عاد الارتياب يرتع بين ضلوعه، مسح وجهه بكفه وقد وصل القلق ذروته، ومشاعر متضاربة تُغرِقه؛ بين ضيقٍ من سخافات صديقه وخوفٍ يأكله لأجله، وغيظٍ أن تكون تلك إحدى حماقاته الكثيرة التي يقوم بها. حين توقَّفت عينه بالغرفة المُقابلة التي خرج منها القط، الغرفة الوحيدة التي لم يتفقَّدها، لا يعرف لماذا عاوده شعورٌ بتيارٍ باردٍ يلفه رغم تَدَفُّق العرق على جسده من هذا الحر الخانق.

تقدم خطواتٍ وجِلة، يشعر أن قدميه تمتثلان له بصعوبة، حتى وصل باب الغرفة الذي تركه مواربًا، لمست أنامله المُرتجفة الباب، وتردَّدَ لثانيةٍ وأنفاسه تتهدَّج، وانزعاجٌ يرتع بين ضلوعه، دفعه قليلًا وما زال خارجًا، مَدَّ يده يبحث عن كابس الكهرباء حتى ارتطم به، ضغطه، تقدم خطوتين للداخل، عينه الدَهِشَة عُلِّقَت بالجدار، ماجت أنفاسه، اقشعرَّ بدنه، غُرِسَ كله في موضعه.

جاهد لتحريك رقبته للجهة المُقابِلة فاصطدمت عينه بالأرض، انفلتت عنه شهقة مُدوِّية وثبت يده تلقائيًّا تَكتُمها، وجحظت عيناه من هَولِ المشهد، وتراجع خطواتٍ مذعورةً تَعَثَّرَ على إثرها وسقط على ظهره فراح يعتدل ويدفع نفسه للخلف فزعًا، حتى اصطدم بالجدار وما زال يحاول دفع نفسه داخله لعلَّه يبتلعه ويُخَلِّصه من هول ما يرى. أوشَكَت أنفاسه تنقطع، أخرج بخاخته يضخ بعضًا من أنفاسها داخل فمه، لكنه لم يجد ما يُعينه.

الرؤية تغيم حوله، مال جسده رغمًا عنه حتى انهار أرضًا على جنبه، وجهه مقابل للباب، انقطع الضوء فجأةً عن الشقة، وفي الصالة الخاوية تراءت له عاصفةٌ من الضباب الأسود تحوم مُقبِلةً عليه، تبتلعه، وجفناه يرتعشان بين أُفولٍ وحضور. أقدامٌ تتخَفَّى في الضباب آتيةً نحوه، وصوتُ حفيفٍ يرفل يتهادى داخل أذنه، رأسه ارتخت تمامًا وهو يرى صاحب الخطوات بات الآن يقف بجوار رأسه مباشرةً، تبتسم له من الجحيم، تلجلج صوته الخدر وهو يتلاشى: "دارين!".

ارتخت يده حتى سقطت بخاخته وتدحرجت بعيدًا عنه داخل دائرةٍ من الدماء، وأظلم بعدها كُلُّ شيء.

بعد يومين، وفي صباحٍ حار، يقف مازن، الذي قارب الخامسة والأربعين من عمره، بطوله المتوسط وبنيته المتلئة، وعينيه البنيتين كشعره القصير، وبشرته الخمرية، أمام النافذة داخل مكتبه بمديرية الأمن، يشعل سيجارته، نظراته ترقُب المارَّة في الشارع المُزدحم، يجولُ بخاطِره كيف يحتملون التَكَدُّس في هذا الحر الخانق، ترك سؤالَه عالقًا في اللاشيء، سحب نفسًا آخر. يستدير نحو الجالس أمام مكتبه ليتساءل:

- أتمنى أن تكون بحالٍ أفضل الآن يا سيد سامح؟

وضع سامح كأس عصير الليمون فوق المكتب بارتباك، ليُرَبِّت مازن على كتفه بخِفَّة. يتجه نحو كرسيه خلف المكتب ويسأله مباشرةً:

- ما الذي كنت تفعله في شقة السيد زياد؟

أخذ سامح نفسًا عميقًا من بخاخته يستجمع به شتات نفسه؛ منذ ما حدث له داخل شقة صديقه، وعثوره على جثته لا يستطيع التنَفُّسَ دونها، أخبره الطبيب أنها حالةٌ نفسيةٌ أكثر منها عضوية، لكنه لا يكفُّ عن التنفس من خلالها، فهو صاحب القلب الرهيف، لا يصدق أنه ما زال حيًّا بعد ما جرى له. أطبق كفه عليها وعينه زائغةٌ في اللاشيء:

– كان بيننا موعد، لكنه لم يأتِ، فحاولتُ الاتصال به، لكن هاتفه كان مُغلقًا، فذهبت إلى منزله، طرقتُ الباب، لكنه لم يُجِب فدخلت.

– وكيف دخلت؟

– بالمفتاح.

– وهل لديك المفتاح؟

سحب نفسًا آخر قبل أن يرد:

– كلا، إنها نسخة احتياطية يضعها زياد في مكانٍ سِري أعلى الباب.

– وهو مَنْ أطلعك على مكانها؟

– جميعنا يعرف مكانها، زياد يعيش وحيدًا منذ وفاة والديه، وكنا دائمي التردد عليه والمبيت لديه؛ لذلك يترك نسخةً أعلى الباب تحَسُّبًا لمجيء أيٍّ منا في غيابه.

رماه الضابط بنظرةٍ مُتفَهِّمة، واستند لمسند الكرسي يتساءل:

– هل يمكنك أن تُخبِرَني ما الذي حدث بالضبط؟

– لقد أخبرتُ سيادَتَك سابقًا.

– لا مشكلة، أخبرني مرةً أخرى.

ابتسم مازن بفتور، تنهد سامح بضيق، ومجددًا سحب بخاخته ينتزع منها نفسًا عميقًا، ثم زفره وزفر ذكرياته البائسة عن تلك اللحظات اللعينة:

– ضغطتُ الجرس عِدَّة مراتٍ دونَ مُجيب، ثم طَرَقتُ عدة طرقات، وبعدها أخذتُ المفتاح من موضعه وفتحت الباب، كانت الكهرباء مفصولةً عن الشقة، ذهبتُ إلى المطبخ وأعدتها، وبحثت عنه داخل الشقة حتى وجدته...

صمت لحظات، تَجَسَّدَ الحدث كاملًا حاضرًا أمامه، ليُغطي وجهه بكفيه عَلَّه يُوقِفُ تدفُّق المشهد، لكن عقله أبى إلا إعادته بحذافيره، تَجَسَّدَ أمامه زياد مَصلوبًا داخل تلك

الدائرة، جاحظ العينين مذبوحًا من الوريد إلى الوريد، فامتلأت عيناه بالدموع التي تتسرَّب من بين كفَّيه، واختنق صوته بنشيجه، حاول تنظيم أنفاسه بصعوبة، فحاول الضابط امتشاقه بعيدًا.

– من الذي تعتقد أنَّ لديه عداواتٍ مع صديقك؟

مسح دموعه، واعتلته ابتسامةٌ حزينة، يجاهد لإخراج صوته مُتَّزِنًا:

– زياد ربما يكون مُستَهتِرًا، كثيرَ النزوات مع الفتيات، لكن ليس لديه أية عداوات، ليس عداوات تصل حَدَّ القتل بتلك الوحشية، مستحيل.

اعتدل مازن:

– من تعتقد أنه قد يقتله بتلك الطريقة، سارِقٌ مثلًا؟

– أخبرتك سابقًا.

تهدَّجَت نبراته المنفعلة، صمت لحظةً يستعيد السيطرة على نفسه، أغمض مازن عينيه بزفرةِ ضِيق، مَطَّ شفتيه تَبَرُّمًا، يحكُّ خَدَّه الأيمن:

– الروح الغاضبة التي حَضَّرَها، أليس كذلك؟

– الأحمق فعل ذلك بنفسه، لقد كان مهووسًا بتحضير الأرواح، خاصَّةً الشريرة منها، لا بُدَّ أنه أحضر إحداها فقتلته.

تنهد مازن بتهكمٍ وعاود اعتداله، وقد أتبع سامح:

– لا يمكن لبَشَرٍ فعل هذا، لقد كان مقتولًا داخل إحدى الدوائر الشيطانية، ذُبِحَ من عنقه وصُلِبَ داخل تلك الدائرة الملعونة، ودماؤه صُفِّيَت، وبقايا رمادٍ مُحتَرِق حولها، وكتابُ التعاويذ الذي يستخدمه في تحضير الأرواح، احترق، بالتأكيد هي مَنْ قتلته.

تنَبَّهت حواسُّ الضابط، ليُتبِعَ سامح بنبرةٍ حانقةٍ مهزومة:

– أخبرته ألَّا يحاول تحضير روحها، الغبي فعل بنفسه ذلك.

– مَنْ؟

انتبه لما تفوَّه به، ولم يكن بمقدوره العودة وقد كانت نظرات مازن حاسمة:

– دارين.

– التي وجدنا اسمها مكتوبًا بالدماء فوق الحائط؟

تساءل باهتمام؛ فاسمها كُتب بدماء الضحية فوق الجدار، وأسفله كُتبت جملةٌ أثارت حيرته، أومأ سامح تأكيدًا وهو يزفر بضيق:

- لقد أخبرني منذ عدة أيامٍ أنه سوف يقوم بتحضير روحها، وقد نهرته كيلا يفعل.

- تقصد أن روح صديقتكما التي تُوفيت منذ أربع سنوات هي مَنْ قتلته؟

قالها مازن من بين أسنانه، التي كادت تتكسَّر من فرطِ غيظه وخيبته، بنبرةٍ مُتهكِّمةٍ أكثر منها مُستَفسِرة، لكنه عَدل فجأةً من جلسته وتساءل باكتراث:

- لماذا هذا اليقين بأنها من قتلته؟ ألم تكن صديقتكما لسنواتٍ طويلة، فلماذا تقتل صديقها؟ وما الذي يعنيه ما كُتِبَ فوق الجدار أسفل اسمها: "الآن تبدأ اللعبة"؟

لاحظ مازن اضطراب تقاسيم وجهه، وارتعاشات كفيه وصوته، الذي خرج مُضطربًا، وعيناه تهربان في كل مكان إلا عيني مازن، رد بضيق:

- لا أعرف لماذا قتلته، ربما لأنها أصبحت روحًا شريرة!

- أخبرني يا سامح ما الذي حدث ليلة مقتل دارين؟

جحظت عين سامح وشحب وجهه مثل الأموات، وانحبس صوته لعدة ثوانٍ، وأقسم حدس مازن أن أنفاسه انحبست حتى كادت تتوقف إلى الأبد، ثم هرب بوجهه، ينتزع نفسًا طويلًا من بخاخته يحاول تصَنُّعَ اللامبالاة، ويبتلع ريقه بمشَقَّة:

- دارين لم تُقتَل، كان حادث سيارةٍ عرضيًّا.

استقام مازن واقفًا، تقدم وجلس مُقابله مُباشرةً، وخبط على رُكبة سامح يجذب نظراته بنبرة حاسمة:

- نعم أنت ذكرت شيئًا عن حفلةٍ وحادثة، لماذا لا تُحدثني بالتفصيل عن تلك الحفلة وما الذي حدث ليلتها؟ وعن العراك الذي حدث؟

عاود ابتلاع ريقه:

- لا أتذكر ما الذي حدث تحديدًا، لقد كان هذا منذ أربع سنواتٍ مضت، ولم أكن جالسًا معهم طوال الحفل، فقد كنتُ قريبًا من الشاطئ، بعيدًا عنهم، وعدتُ على صوت عِراكٍ بينهم غادرت على إثره دارين وأختها الحفل بسيارتهما، وقد صَمَّمَت على العودة إلى القاهرة، وبعد ساعتين تقريبًا اتصلوا بنا ليخبرونا أنهما بالمشفى، فقد تعرضتا لحادث تصادم وماتت دارين.

- وماذا كان سبب العراك؟

التقف نفسًا آخر مُضطَرِبًا، وتملَّصت عيناه:

- لا أعرف تحديدًا، لقد كنا كثيري الشجار ككل الأصدقاء.

مسح سامح على شعره بتوتر، وانتصب واقفًا بصوتٍ قلق:

- هل يمكنني المغادرة الآن؟

- نعم، يمكنك، لكن حين أستدعيك أريدك أمامي، هل هذا مفهوم؟

أجاب بالتأكيد وغادر مُسرِعًا كأنه يهرب من وحشٍ خفي، بينما سحب مازن الملف الذي كان على مكتبه، ملف القضية ستة آلاف وخمسمائة واثنين وأربعين، لعام ألفين وستة عشر، حادث تصادم على الطريق الصحراوي. أخذ يطرق بأصابعه فوق الملف وحدسه يخبره بثقةٍ أنه يُخفي شيئًا.

على الجانب الآخر بوسط المدينة، داخل مقهاهم المفضل، والذي يترددون عليه منذ كانوا يدرسون بالمرحلة الثانوية، مُرورًا بالجامعة، وحتى بعد تخَرُّجِهم، وما زال مكان تجمعهم الرئيسي، بالدور الثاني منه تجلس رهف، على طاولتهم المفضلة بآخر الصف المجاور للنافذة، تبدو مُتوترة، إن دَقَّقتَ النظر بها ستجدها تُداري ارتعاش أصابعها بالتلاعب بحافة كأس عصير الليمون أمامها، تُجاهد للسيطرة على توجُّسها، ينتفض داخلها كخارجها، كل إيماءةٍ والتفافةٍ منها تنضح بالقلق والربية، أيَّة عينٍ تقع عليها تميز بوضوح تزعزعها، وتقرأ خوفها يتجلَّى بين تقاسيمها، تهدج أنفاسها، رجفتها مع أقل حركةٍ تحدث حولها.

تُرجِعُ الأمر إلى المسكنات التي تعيش عليها وآثارها الجانبية، لكن بداخلها تعرف أن الخوف وحده ما يُحَطِّمُ تُماسُكَها، يكاد الفزع يقتلها وهي تفكر بكل ما حدث، وهل حقًا حدث؟ تمنع نفسها بصعوبةٍ من البكاء، يراودها خاطرٌ أنه مجرد كابوسٍ يستنزفها، فأغمضت عينيها؛ هكذا علمتها جدتها، كلما راودها كابوسٌ مُزعج تُغمض عينيها، تتنفس وتعدُّ حتى الثلاثة، أو حتى المائة، لا يهم، لأنها حين تفتح عينها سوف يكون تلاشى، ودومًا كانت تنجح خدعتها الصغيرة في التحايل على الأحلام السيئة عند الثلاثة، تنفست، بدأت العد، واحد، اثنان، ثلاثة، فتحتهما؛ لا شيء تلاشى، ارتجافها، فزعها، كابوس حياتها، تبًّا! ما زالت مُحتَجَزةً داخل واقعها. مسحت أسفل عينيها تتأكَّدُ أنه لا دمعة هربت دون أن تدرك.

ارتحلت نظراتها خارج المقهى؛ تنتقل بين الساعة في يدها والسلم، عينها تترقب حضوره، ورغم أن موعدهما المتفق عليه لم يحن بعد، وهي من أتت باكرًا، فإنها ظَلَّت تتلَمَّس ظهوره، تنَفَّست الصعداء حين شاهدته يرتقي السلم الداخلي، لانت تقاسيمها وتجلَّى الارتياح على استقرار يدها وأريحية أكتافها.

تقدم هشام بخطواتٍ هادئة؛ بشعره البُنِّي كلون عينيه الواسعتين، ببشرته البيضاء وطولٍ متوسطٍ كبِنيته الجسدية التي أصبحت في الآونة الأخيرة تميل إلى الامتلاء بعض الشيء، تخطَّى مشارف الثلاثين بقليل، يبذل مجهودًا ليبدو مشدود القامة منتصب الظهر، ليبقى على هذا الثبات وتلك الهامة المرفوعة، تلمح بين ابتسامته تواتر قلقه، الذي يحاول وأده بتَصَنُّع نظرته اللامُبالية.

جلس بالكرسي المقابل لها، وضع هاتفه ومفاتيحه فوق الطاولة، بعثر نظراتٍ متفرقة غير مكترثة في المكان من حوله، حتى استقرت عندها، ألقى نَظَّارته الشمسية فوق الطاولة بإهمال.

بينما ظلت رهف على سيرتها الأولى منذ لحظة دخوله المكان، مُعلقة النظرات به، تتمعَّن بتفاصيله، تتلَمَّسُ بأطراف أصابعها خاتم خطبتهما، وسؤالٌ يتردد بداخلها كلما اجتمعا؛ كيف ظَلَّت على حبه كل هذه السنوات رغم الأذى النفسي الذي يسببه لها؟ لماذا تشعر أمامه بهذا الضعف والاستسلام؟ ورغم أنها اتخذت قرار الرحيل مائة مرة، فإنها لم تجرؤ على تنفيذه ولا مرة.

عرف كيف يُفقدها ثقتها بنفسها ويجعلها تابعًا لحبه، دُميةً مُعَلَّقة الأطراف؛ بين عشقها له وخوفها البعد عنه، يتحكم بها دون أن يحتاج إلى أداة تحكم، تكفي نظرة رِضًا منه لتفعل كل ما يريد، أو نظرة غضب لتقتل نفسها تحت قدميه، ورغم أنها تعرف كل هذا، فإنها تقبض على جمرةِ قربه بكل ما أوتيت من وَلَهٍ في هيامها به، حتى أدمتها وأحرقت قلبها.

شبك ذراعيه فوق الطاولة، تأمَّلها لثانيتين، ثم ألقى نظراتٍ مُتفرقة في المكان، وبنبرته الساخرة المعهودة لها:

- ما الذي حدث لتُصِرِّي أن نتقابل الآن؟

- أنت تمزح، صحيح!

أعاد ظهره إلى الخلف يُمسد ذقنه بأطراف أصابعه:

- لقد مات الأحمق.

- تقصد قُتِل يا هشام.

قاطعته بحدةٍ ارتفعت معها نبرتها قليلًا، فرفع حاجبه بنظرةٍ شرسة لتنتبه لارتفاع صوتها الذي قد يجذب انتباه الجالسين من حولهما. نَحَّت عينيها قصيًّا وأكتافها تعاود تشنجها الماضي، رد بضجر:

- مات أو قُتِل؛ هذا أمرٌ تبتُّ فيه الشرطة، أم إنكِ حزينة لأجله؟

هتف بنظرةٍ ذات مغزى لها، ونبرةٍ رغم برودها كانت حانقة. لم ترد، تعلم ما الذي يرمي إليه، تبًّا للماضي الذي يهاجمها بقسوةٍ كلما سنحت له الفرصة، لا ينفكُّ يذكرها بما تتمنى لو تنساه إلى الأبد. شبك كفيه واستطرد بنبرةٍ هازِئة:

- ولماذا أنتِ مُرتَعِبة إلى هذا الحد؟ هل أنتِ مَنْ قتله؟

- يبدو أنك لا تعرف شيئًا.

- وما الذي لا أعرفه يا حضرة المحقق رهف، أنه أحمق يهوى تحضير الجن والعفاريت؟ لا بد أن أحد النصابين الذين يتعامل معهم هو من قتله ليسرقه.

- لقد أتى إليَّ منذ أسبوع.

- مَنْ؟

- زياد.

تغلغل الغيظ في نبرته:

- كيف لم تخبريني؟ أم إنه أجبركِ هذه المرة أيضًا؟

- لقد أخبرني أنه استطاع التواصل معها.

تجاهلت اللوم والتقريع في تلميحه، غير آبهةٍ سوى بما حدث. أرخى ظهره إلى الخلف، بنفاد صبرٍ لوى شفتيه تذَمُّرًا، لتُردف قبل أن يستعر غضبه:

- دارين.

تخَشَّبت عيناه للحظةٍ دامت للكثير، اعتمل في صدره إعصارٌ من القلق، ورأسه طَنَّ بالهواجس؛ تطحنه الأفكار المُميتة، وتشنَّجت أعصابه التي اتخذت وضعًا مُتحفزًا، يكز أسنانه بحقدٍ مكظومٍ حتى كادت تتكَسَّر:

- هل فقدت عقلك؟ دارين ماتت.

- هذا ما قاله لي، أنت تعلم أنه كان مهووسًا بالجن وتحضير الأرواح.

– توقفي عن غبائك، هذا الغبي لا يمكنه تحضير روح حمار مثله.

– إنني أراها.

داهمه ما تفوهت به فابتلع سُبَّته، زاغت عينه لثانية قبل أن يتمالك نفسه، يضرب الطاولة بغيظٍ جفلت له:

– ألا يكفيني غباؤك ليبتليني الله بجنونك أيضًا؟

– أنا لستُ مجنونة، لقد رأيتها بذات الليلة التي قُتِلَ بها زياد، وسامح أيضًا، أخبرني أنه رآها بشقة زياد حين وجد جثته، قبل أن يفقد وعيه. وما كُتِبَ على الجدار...

احتدَّت نبرتها التي ارتفعت وانتبه لها القريبون منهما، وبنظرةٍ ذاتِ معنًى له:

– كِلانا يعلم لماذا عادت.

تأجَّجَ نقمه وانقدحت شرارة اهتياجه، وبهدوءٍ مُخيفٍ يشفُّ عمَّا تحتَه، أمسك أناملها يضغطها حتى قاربت أن تتهشَّم داخل كفه، اربدَّ وجهه وأزبد، وعيناه تشتعلان لهيبًا، وتُوشك عروق رقبته النافرة من الحنق أن تنفجر.

– أقسم إنكِ لو لم تُغلقي فمكِ هذا فلسوف أُرسلكِ لها، ودون تفكيرٍ أو لحظةِ ترددٍ واحدة. أيتها الغبية، الموتى لا يعودون!

اجترعت ريقها وباقي كلماتها، ألقى ببضعِ أوراق من النقود فوق الطاولة وسحبها عنوةً من ذراعها يضغطها يريد كسرها، لأنه إن لم يفعل، ربما سيكسر عنقها. وخرجا من المكان، صامتةً بعيونٍ تشي بهطولِ عاصفةٍ من الدموع المختنقة بين جفنيها تتبعه.

بالمساء تقف السيدة ناهد مُنهمكةً بتجهيز طعام العشاء، تنبهت حواسها فجأة حين جاءها صوت موسيقى من الخارج، تركت ما بيدها واتجهت نحو الاستقبال، لتجد باب غرفة المكتب مفتوحًا، تبَسَّمت بفرحٍ ملأ قلبها حين تأكَّدَت أن الصوت قادمٌ من الغرفة، فهذا يعني أن لين عادت للعزف مجددًا في المنزل، فمنذ الليلة المشؤومة وقد امتنعت عن العزف بالمنزل. لثانيةٍ تنبهت أن العزف الذي سمعته بين اليقظة والنوم منذ عدة ليالٍ خَلَت لم يكن أضغاثَ أحلام، بل كانت ابنتها.

سحرها صوت العزف فأخذتها قدماها نحوه، وجدت لين تقف بمنتصف الغرفة، ظهرها مُواجهٌ للباب، زادت سعادتها ووضعت أناملها تكتم شهقات فرحتها؛ ابنتها تحاول تخطي الماضي بكل آلامه.

تعزف مقطوعةً ساحرة لم تسمعها من قبل، لاح لها لحظتها أن ابنتها غارقةٌ فيها، فلم تشعر بها تدلف إلى الداخل وتجلس بطرف الأريكة وتغوص داخل اللحن الحزين، تشعر أنه يخترق كيانها، ورغم الحزن الذي يغلفه، فإنه كان ساحرًا بشكلٍ خاص؛ فيجمع الحزن بحماسةٍ رغم أنها لا تناسبه، فإنها تتآلف معه بطريقةٍ أنيقةٍ عذبة، تنسابُ بين نغماته التي تتراقص على أوتاره بسلاسةٍ فاتنة، ولا تتذَكَّرُ أنها سَمِعت ابنتها تعزفه أو ما يُشبهه في أي وقتٍ مضى.

مر الكثير قبل أن تتوقَّف يد ابنتها عن الغوص داخل لحنها، الذي ذابت به بكامل حضورها، حتى شعرت أنها انصهرت داخله، صدرها يعلو ويهبط وأنفاسها تتسارع باهتياج، تكاد لا تلحق بها من فرط تأثرها واندماجها مع كل وترٍ ضربت عليه، انتبهت حين سمعت صوت تصفيقٍ حاد من خلفها.

التفتت نحوها بابتسامةٍ حنونةٍ رقيقة، فاحتضنتها أمها والدموع تنسلُّ على وجهها، تسألها بفيض سعادتها:

- ما اسم هذا اللحن؟ عزفك له كان رائعًا.

- حصاد الماضي.

رفعت أمها حاجبها بنظرةٍ مُتفاجئة:

- غريبٌ اسمه، كغرابة اختلاط حزنه بالحماسة، لكنه ساحِرٌ بشكلٍ ما.

ضحكت لين بعفويةٍ تسند ظهرها لطرف المكتب خلفها:

- أهذا مَدحٌ أم ذمٌّ يا أمي؟

جلجلت ضحكة ناهد، والتي لم يُعطِها جرس الباب فرصةً للإجابة، رفعت حاجبها بنظرة دهشة وعينها تنظر نحو الساعة التي قاربت تمام التاسعة مساءً، تتساءل عن الزائر؛ فلا تستقبلان زوارًا كثيرين، خاصةً مساءً.

عاود الجرس نداءه، يصاحبه صوتُ طرقاتٍ مُتلاحقة، هَبَّت ناهد لفتح الباب، بذات اللحظة التي وضعت لين كمانها فوق الأريكة واتجهت نحو باب الغرفة تلحق بأمها، وقبل أن تصله، توقفت حين سمعت صوت صفيرٍ يأتي من خلفها...

تهَدَّجت أنفاسها ونبضاتها، ارتعشت أطرافها، انطفأ نور الغرفة، ونسمةٌ باردة عبرت جسدها انتصبت لها دماؤها وهي تلتفت على مهل، لتجد دارين تقف خلف الستارة المُكوَّمة بزاوية الغرفة، وبقايا ضوءٍ خافت تصل من الاستقبال ترسم ظلالًا

مضطربةً بالمكان. حاولت لين التنفس عندما ابتعدت الأخرى عن الستارة، ترميها بنظرةٍ مُبتسمةٍ غامضة لم تفهمها.

أسرعت ناهد مُنزَعِجةً لفتح الباب، الذي كاد ينخلع من شدة الطرق عليه، لتجد أمامها مجموعةً من الرجال الذين ملأوا الشقة بأقل من ثوانٍ ودون استئذان، وقبل أن تتساءل عن هويتهم، تقدَّم أحدهم نحوها يعرف عن شخصه بأنه مازن قدري، ضابط المباحث. فغرت أمها عينها من الدهشة وتجَمَّدت لين بالباب، اجتاحها شعورٌ سيئ تزداد حدته بالنظرات الشيطانية التي تتراقص بعين دارين الواقفة مقابلها، والتي ازداد وجهها قتامةً ورهبةً مع تضاؤل بقايا الضوء الساقط عليه، وصرخت بنبرةٍ حانقة:

- لم يكن عليكِ اختيار هذا اللحن.

صمتت، وقد تهاوى قلب لين واعتقدت أنها هالكة لا محالة، قبل أن تنقلب ملامح الأخرى الساخطة مائةً وثمانين درجة وتبتسم بخبث وبنبرةٍ مَرِحة:

- لكن ماذا أقول؟ لقد تفوَّقتِ على نفسك هذه المرة، فقد أعجبني، ولكن أتعرفين ماذا يُعجبني أكثر؟

صمتت دارين وجلست على الكُرسيِّ الهزاز...

- الاسم الذي اخترتِه: "حصاد الماضي".

قالتها بطريقةٍ استعراضية، ثم أنعمت النظر بلين:

- أنتِ مُحِقَّة، لا بد وأن نحصد كل ما نزرعه، حتى وإن كان آثامًا اقترفناها في الماضي، وأعتقد أن الآن هو الوقت المُناسب للحصاد.

ظلت لين على وقفتها وارتعادها، ونظرةُ جَزَعٍ احتلت مُحَيَّاها، وضعت دارين إصبعها على فمها بإشارة الصمت، تغمز بطرف عينها بابتسامةٍ أبصَرتها لين تلك اللحظة مُخيفةً:

- الآن تبدأ اللعبة!

تردَّدت الجملة بين جدران روحها وهوت بها إلى قاع الجحيم، إلى ليلةٍ غابرةٍ تردَّدت ذات الجملة بين ظلامها. رعدة خاطفة تسلَّلت بين أوصالها، لم يستردها سوى صوت أمها المُنزَعج تتساءل؛ لماذا رجال الشرطة بمنزلها؟ لكن الضابط لم يُجِبها، وخُطاه تتقدَّم رصينةً نحو المُتَسَمِّرة بمدخل الغرفة، يتساءل وعينه مُعَلَّقة بها:

- أعتقدُ أنَّكِ أنتِ هي الآنسة لين مراد العلي، أليس كذلك؟

لم تُبعِد لين ناظريها عن دارين، الجالسة فوق الكرسي، وأنفاسها تتباعد، بذات اللحظة التي انتفضت أمها تقف أمام الضابط تمنعه خطوةً أخرى نحو ابنتها، لتلتفت لين نحوهما، فالتقط الضابط عينها المُشوَّشة بنظراتها الزائغة، التي رأى الفزع يتراقص بها، ولوهلةٍ شعر بأنها تعرف لماذا هو موجود ببيتها.

- أعتقد أن ابنتك تعلم لماذا نحن هنا؟

فالتفتت ناهد نحوها فوجدتها على حالتها الأولى من الصدمة، لتعاود النظر نحوه، وبصوتٍ فقد هدوءه كُليًّا:

- ما الذي تريده من ابنتي؟

تخطاها مازن بعينه وخطواته تقدمت نحو لين:

- لما لا تخبري أمكِ لماذا نحن هنا؟

أغمضت لين عينيها وفتحتهما، تُثابر لتأخذ نفسًا تستردُّ به عقلها، أو لتحريك شفتيها بشيءٍ لم يغادرها؛ فالأمر برمته فوق استيعابها، فحتى تلك اللحظة لا تعرف إلى أين سيؤول كل هذا، والأهم؛ متى ينتهي؟ ليتقدم الضابط خطوةً أخرى، فصار أمامها يُوغِلُ النظر بعينها المُتصلبة:

- إن ابنتكِ مُتوَرِّطة بجريمة قتل.

ارتاعت لين وفغرت فمها وعينها، خَبَت أنفاسها بغتة، التفتت مُرتَعِبةً نحو الكرسي، تزامُنًا مع صرخة أمها:

- ما الذي تهذي به يا هذا؟ مستحيل!

لم يُعِرها الضابط انتباهه، بل ظل نظره مُثَبَّتًا نحو المُتَصَنِّمة أمامه، والتي أخذت تنتفض باهتياج، ووجهها نضح بذُعرٍ خانِقٍ مُوجَّهٍ داخل الغرفة، ونبرتها الغاضبة مُرتَعِشة بخوفها:

- ما الذي فعلتِه؟

تقدم مازن مُسرِعًا إلى الداخل، ضغط كابس الضوء، عينه صُلِبَت حيث عيناها مُعلَّقتان بالكرسي الفارغ؛ الغرفة خالية على عروشها، وقبل أن ينطق حَرفًا، فقدت لين جمودها وشرعت تصرخ وهي تنظر نحو ذات الكرسي:

- ما الذي فعلتِه يا غبية؟

انفجرت تصرخ بها مرةً تلو أخرى بغَضَبٍ أعتى، حتى وقعت مغشيًّا عليها بين يديه.

الجدار الثالث

“لا تنتظر من الحياة الكثير، لأنك لن تكون
راضيًا عَمَّا ستُعطِيه لك”

كل شيء ضبابيٌّ غير واضح المعالم، غيمةٌ من الأفكار السوداء تحلق في رأسها، تمطر عقلها بكل الاحتمالات؛ تتساقط جميعها عند كلمة: "متورطة بجريمة قتل". ازدادت الغيمة سوادًا مع صوتها يتردَّد بين حنايا عقلها: "الآن تبدأ اللعبة"، "حصاد الماضي وآثامه". يكاد عقلها يتفتت من عواصف التفكير، يغرق في لُجَّةٍ من الهواجس والقطع الناقصة، كل الأشياء هذه اللحظة رمادية، الحياة بأكملها كئيبة.

عينها عُلِّقت بزاوية الغرفة فرأت دارين تقف هناك عاقدةً ساعديها بابتسامة ظَفَرِها، ترميها بنظرة شماتة ساخرة، وقبل أن تتفوه حَرفًا ويطحنها المزيد من تخبط الاحتمالات، انفتح الباب، ودخل الضابط ومن خلفه أمها التي انحنت تضمها بحنانٍ واضطراب، جلست بالكرسي المقابل لها وجلس الضابط خلف مكتبه، أخرج علبة سجائره سحب منها واحدة، أشعلها. تتلاعب أنامله بطرف الملف الموضوع أمامه، ويده الأخرى ظَلَّت لبضع ثوانٍ تتلاعب بقَدَّاحَته؛ يغلقها ويفتحها وصوتها يرن داخل الغرفة الصامتة، حتى وضعها أخيرًا فوق الطاولة.

يزفر دخان سيجارته وعينه مُعَلَّقة بلين، ساكنة، لا يمكنه قراءة أيِّ شيء بتعابير وجهها الصَمَّاء، لا اختلاجة تندى عنها، مُثَبِّتة ناظريها أرضًا، ما زالت هيئتها وهي متسمرة بمدخل الغرفة وصرخاتها الغريبة كأنها تُحادث شخصًا بالداخل مُتجسدةً أمامه، وتُمَثِّلُ علامة استفهامٍ كبيرة. سحب شهيقًا، يعدل من جلسته، يُزعِجُ الصمت الجاثم بينهم بنبرته الواثقة:

- هل كنتِ تعرفين الضحية زياد عزت؟

- هل تقصد زياد عزت الرفاعي؟

تساءلت والدتها بدهشة، تشهق بصدمةٍ من وقع كلمة ضحية التي سبقت الاسم، ليعتدل مازن بمجلسه ويُتبِع:

- أعتقد أنه كان صديقًا لأختك دارين، أليس كذلك؟

ابتلعت ريقَها بتوجُّس، "تبًّا، إنه الماضي يدق الأبواب من جديد!"، وقبل أن تتفوَّه شيئًا سبقتها أمها بنبرةٍ حادَّة مُنفَعِلة:

- هذا كان في الماضي.

لم تُنَحِّ لين نظرها عن موضعه، بينما أغمضت أمها عينها بغصةٍ كادت تقضي على ما تبقَّى من أشلائها. طَرَق مازن طرقتين فوق سطح المكتب:

- هل تعرفينه يا لين؟

كادت الأم تفتح فمها لتقول شيئًا، فأشار لها أن تصمت بنظرةٍ ذاتِ معنى؛ يكفي أنه سمح لها بالوجود أثناء التحقيق، ردت لين بنبرةٍ غيرِ مُبالية:

- ليس كثيرًا، كان صديقًا لأختي.

صمتت تنظر نحوه، انتظر بضع لحظاتٍ لتُكمِل، لكنها رمت نظرةً خاطفة نحو الزاوية ثم التفتت نحوه بتلك النظرة التي تُخبره ألَّا مزيد. رسم ابتسامةً باردة:

- هذا كل شيء؟

- هذا كل شيء.

- متى آخر مرةٍ رأيتِه فيها؟

- لم أرَه كثيرًا بعد...

صمتت، مسحت بين عينيها واستدركت:

- بعد الحادث.

- هل يمكنكِ أن تخبريني متى تحديدًا كانت آخر مرة؟

نظرت نحو أمها، التي سارعت بقطع الحديث بينهما:

- لماذا كل تلك الأسئلة؟ ما علاقة ابنتي بمقتله؟

- أرجوكِ يا سيدة ناهد، سوف يتضح كل شيءٍ بوقته.

أماء نحو لين وهو يتساءل بنفاد صبر:

- ألم يتصل بكِ؟

دقَّقَ النظر بعينها وأنامله تنقر على الملف أسفلها، لتُبادِله ذات النظرة الواثقة، والابتسامة الباهتة:

- تقصد الرسائل التي أرسلها لي؟

ابتسم بفتور، وأنامله تتلَمَّس الملف الذي يحوي تفريغ سجل هاتف زياد. التفتت أمها نحوها بنظرةٍ مُتفاجئة، بادلتها لين بأخرى مُختنقةٍ مُشفِقة، تعلم ألَّا شيء له علاقة بالماضي يمرُّ على خير.

وقبل أن يجذب الضابط نظرها نحوه، طُرِقَ الباب عدة طرقاتٍ مُتتالية، فأمر الطارق بالدخول، ليدلف رجلٌ تخطى منتصف الخمسين من عمره، لكنه بدا في

الثلاثينيات، أنيقًا مُهَندَمًا إلى حَدٍّ لافت، تخلَّلَت شعره الأسود شُعيراتٌ بيضاء زادته جاذبية، بجَسَدٍ رياضي. حين وقعت عين لين عليه اعترتها نظرة غاضبة صوَّبَتها نحو والدتها، التي تهَدَّلت رأسها بأسى وقلة حيلة، وتملَّصت بعينيها بعيدًا، فوجَّهَت لين عينيها نحو دارين، القابعة في زاويتها، ثم نحو الأرض تتحاشى النظر نحو الجميع.

دخل بخطواتٍ واثقة، ومن خلفه رجلٌ قارب السبعين لا يقلُّ عنه في هندامه، لكن يبدو السنُّ عليه بوضوح. عَرَّفَ نفسه بأنه السيد نجيب سعد، المحامي، ومعه المهندس مراد العلي، والد لين ورجل الأعمال المعروف. انتقلت والدتها إلى الأريكة، وجلس والدها بجوارها بعد تبادُلِ نظرةِ صمتٍ طويلة، وجلس المحامي في الكُرسيِّ المقابل للين.

حَلَّق الصمتُ لحظاتٍ لاحظ فيها مازن قبضتيها القابضتين على يدي الكرسي بانفعالٍ تحاول كبحه، وحسر وجهها وعينيها اللتين تنتقلان بين الأرض والزاوية. تنَفُّسها يكاد يكون مسموعًا داخل الغرفة من فرط انفعالها، الآن الجو صار مشحونًا بشَكلٍ لم يلفت انتباهه فقط، بل وفضوله أيضًا.

استفسر المحامي عن سبب وجود موكلته في مديرية الأمن، لكن الضابط لم يُعطِه شيئًا واضِحًا؛ أخبره أنه مجرد حديثٍ معها عن بعض الأصدقاء القُدامى، وقبل أن يُضيف أيٌّ منهم حرفًا، قاطعتهم لين وما زالت على هيئتها ونظراتها:

- لقد أرسل لي الكثير من الرسائل يريد مقابلتي.

- دعي المحامي يتحدث.

خرج صوت والدها حادًّا، وأتبع المحامي وهو ينقل عينيه بينها وبين الضابط:

- هل يمكنني أن أنفرد بموكلتي بضع دقائق؟

- إنه مجرد حديثٍ بسيط يا سيد نجيب، لا يستدعي أن تنفرد بموكلتك.

رماها مازن بنبرةٍ تصَنَّعت الهدوء والمرح، فأخرج المحامي ورقةً مطوية من جيب سترته وأعطاها للضابط، الذي تناولها وفتحها، وعبرت عيناه السطور سريعًا، تلبَّسَته نظرةٌ مُندَهِشة وعينه مُسَلَّطة على لين، تجَسَّدت أمامه تلك اللحظة حين انهارت صارخةً على عتبة الغرفة تُحادِثُ شخصًا غير موجود، جذب انتباهه صوت المحامي:

- إن موكلتي مريضةٌ نفسية، وسبق وضعها في مصحة.

احتقن وجه لين وصَكَّت أسنانها حَنقًا، والواقفة في الزاوية رفعت حاجبها ببسمةٍ هازئة، فأخرجت لين هاتفها بحركةٍ انفعالية، فتحته وألقت به أمام مازن مفتوحًا على الرسائل:

- كان يريد مقابلتي.

أحاق بوجه والدها الضيق، أغمضت أمها عينها بخيبة أمل، الآن عَلِمَت أنها اقترفت خطأً فادِحًا باستدعائه، لكن ما بيدها وابنتها؟ يتم التحقيق معها في جريمة قتل، انحنى المحامي قليلًا نحوها، وبنبرةٍ صارمةٍ ذات مغزى:

- آنسة لين، يجب أن نتحدث أولًا.

رمته بنظرةٍ لو تحوَّلت لنارٍ لحوَّلَته إلى رماد، ثم التفتت نحو مازن بنظرة إصرارٍ غاضبة:

- قال إنه شيءٌ يخصُّ دارين يُريدُ أن يطلعني عليه.

اعتدل مازن وقد تنبَّه أن وجودهما ليس عائقًا، بل يبدو مُحَفِّزًا كبِيرًا لتتحدث، ويجب أن يستغل ذلك الآن بأفضل طريقة، فركَّزَ عينه عليها وتجاهل عين والدها الغاضبة ووالدتها القلقة، وعيون المحامي المُغتَاظة:

- ما الذي تعتقدين أنه كان يريد إخبارك به عن دارين؟

لوَّحت بكفها أنها لا تعرف، فعاود بعدم فهم:

- ألم يراودكِ أيُّ فضولٍ لمعرفة ما الشيء المُلِح الذي جعله يرسل لكِ عَشرَ رسائل دفعةً واحدة في أقل من دقيقتين ويُصر على مقابلتك من أجله؟

ألقت برأسها بين كفيها تهزها نفيًا، ليتساءل بنبرةٍ متحفزة:

- ما الذي دار بينكما في المكالمة التليفونية؟

- أعتقد أن هذا يكفي، وموكلتي تعاونت بما فيه الكفاية.

جاء اعتراض المحامي الذي رأى أن الأمور قد تأخذ مَنحًى لا يمكن لأحدٍ السيطرة عليه، ليخبط مازن بيديه فوق الطاولة بانفعالٍ ويمسك الملف بيده:

- يبدو أنك لا تعي الموقف جيدًا يا سيد نجيب، تفريغ سجل هاتف القتيل يؤكد أن موكلتك تكاد تكون هي الشخص الوحيد الذي راسَله المجني عليه طوال الأسبوع السابق لوفاته، وفي ظُهر يوم مقتله كانت بينهما مكالمة تخَطَّت الخمس عشرة دقيقة، غير إنها آخرُ شَخصٍ راسَلَه قبل قَتلِه مُباشرةً، غير إن لديَّ الدليل الأهم.

صمت فتركزت كل العيون حوله، إلا عيونها، ظلت حيث هي أسفل قدميها، لم يزِد؛ فلن يرمي آخر أوراقه على الطاولة، لأنه ليس واثِقًا تحديدًا مما لديه؛ فكل ما أخبرهم به حارس العقار هو رؤيته لفتاةٍ تزوره بذات أسبوع الحادثة، لكنه لم يستطع أن يُدلي

بأوصافٍ دقيقةٍ لها، لأنه لمحها تصعد ولا يعرف إن كانت زارته بعدها أم لا. ورغم أن الوصف العام يكاد يكون مُقارِبًا للين بالبنية الجسدية، فإنه لا يملك غير ذلك، الضغط النفسي كل ما يمتلك الآن، سلاحه الأقوى، وخاصَّةً وإن كانت تعاني تقلباتٍ نفسية، فربما تنهار أسرع مما يتصور، ويغلق القضية هنا والآن.

سحب المحامي نفسًا طويلًا يتجَهَّز لقول شيء، قاطعته لين بنبرةٍ واهنة ورأسها ينزلق بين كفيها، ونظراتها بذات البقعة:

- في البداية أرسل يخبرني أنه استطاع تحضير روح دارين، وأنه يريدني أن أحضر ليخبرني شيئًا يخصُّ الحادثة.

ألقت بها دفعةً واحدة، صمتت تمسح بين عينيها، ليحثها أن تكمل؛ يخشى أن يُفلِت انفعالها من بين يديه:

- و؟

- تقابلنا.

- ماذا؟!

ضَجَّت همهمات التعجب ونظرات الفزع في أعين ثلاثتهم، بينما عينا مازن التمعتا من الانفعال والإثارة؛ تلك الفتاة حقًا تُفاجئه، كان على يقينٍ من أنها لن تقول، حتى وإن واجهها سوف تُنكر، أيُّ شخصٍ حَذِر كان ليفعل، سحب أنفاسًا مُتعَجِّلة، انتفض واقِفًا، وفي أقل من ثانية كان أمامها مُباشرةً، وقبل أن يخرج أيٌّ منهم من صدمته انحني نحوها بتسارُعِ أنفاسه:

- متى كان هذا وأين؟ وما الذي حدث؟

- لا أذكر متى تحديدًا، لكنني ذهبت إلى بيته.

- و؟

- حضرة الضابط، أرجوك.

تدَخَّل المحامي، ليوقفه مازن بالتفافةٍ سريعةٍ ونظرةٍ حادَّة وسبابته يوجهها نحوه بقطعية:

- كلمة أخرى وسوف أُخرج الجميع، حتى الآن أنا أضع اعتبارًا لأصدقاء السيد مراد، الذين ترَجَّوني لوجودكم هنا، لكنني لن أسمح بالمزيد.

تبادل ثلاثتهم النظرات، التي قطعها صوتها المتهدج:

- كل ما قاله إنه أطلق شَرًّا عظيمًا، وهذا الشر باتَ يطارده.

- تعنين روح دارين؟

أومأت إيجابًا، أمسك مازن بساعد الكرسي وكل جزءٍ فيه يستمع إليها بتركيزٍ شديد، لتستأنف حديثها وأناملها التي تفركها ببعضها بعضًا تكاد تتكَسَّر من فرط انفعالِها، وقد عادت نظراتها تغرق في الفراغ أسفل قدميها:

- أخبرته أنني لا أكترث، وأنني أتيت فقط لأحَذِّره أن يبقى بعيدًا عني، وألَّا يتَّصِلَ بي مُجددًا وإلا سأبلغ الشرطة، وغادرت دون أن أسمع المزيد.

- غادَرتِ؟

- لا أريد أن أعيش هذا مُجددًا.

جاء صوتها مُضطربًا مُتألمًا، اهتزَّ له قلب أمها، وظهر تأثُّرٌ واضح على وجه أبيها، بينما ظَلَّ وجه المحامي على سيرته الأولى، وعاد مازن خلف كرسيه. تبادَلا نظراتٍ غير مفهومة؛ كل منهما يحمل بداخله شيئًا لا يستطيع الآخر قراءته، أو إنه فعل، هذا ما لم يقولاه. حَكَّ مازن جبهته:

- ومع ذلك، في نفس يوم وقوع الجريمة اتَّصَل بِكِ في مكالمةٍ دامت خمس عشرة دقيقة، ما الذي دار بينكما فيها؟

- ذات الهراء، فأغلقت الهاتف في وجهه.

أشعل سيجارةً أخرى، زفر دخانها ونبرته المحتدة تتساءل:

- وعاد وأرسل لكِ أنَّ ما لديه لا يمكن إخبارك به في رسالة، لا بُدَّ أن يلتقيك ويتحدث إليكِ وينتظركِ في المساء؟

رمقته بنظرةٍ واثقة:

- ولا بد أنك قرأت رسالتي بالرفض، وأنني لا أودُّ أن أسمع منه بعد الآن؟

- فأرسل أنه سيظلُّ ينتظرك لمساء الغد، ولن يكون لديه وقتٌ بعد ذلك؟

بسمة ساخرة احتلَّت وجهه ونبرته، رفعت كتفيها دون مُبَالاةٍ وبنظرةٍ لم تُوحِ بأي شيء. ارتكن إلى مسند الكرسي وأخذ يُقَلِّبُ القلم بين يديه ونظراته تتقَلَّب بينهم:

- هناك شيءٌ لا أفهمه.

صمت، استقرَّت نظراته عند لين:

– لقد تحَدَّث في إحدى رسائله الأخيرة أن ما يُريد إخبارِكِ به يخصُّ حادثة وفاة أختك، أو تحديدًا مقتلها.

جحظت كل العيون، إلا هي، عادت عيناها المُزدحمتان بدموعِها إلى الزاوية، تسَمَّرت حدقتاها بحدقتي دارين، والنظرات الممتدة بينهما تشعر بها حبلًا يلتفُّ حول رقبتها يكاد يخنقها. اعتدل ووضع كلتا يديه فوق المكتب لا تحيد نظراته عنها:

– أكثر ما أثار فضولي الرسالة الأخيرة التي أرسلها لَكِ قبل مقتله مُباشرةً: "أنا أعرف حقيقةَ ما حدث تلك الليلة!".

هوت أنفاسها بخيبةٍ وعيناها تكادان تخرجان من فَرطِ انفعالها، وما زالت دارين، الواقفة في الزاوية، كل ما ترى من غمامة الدموع التي هطلت على خديها. تراها تنزلق للأسفل، تبَدَّلت ملامحها الغاضبة إلى العبوس والحزن، جلست ضامَّةً ساقيها إلى صدرها باستسلامٍ ويأس، وتتلاشى من الزاوية. شهقة مكتومة بمرارة كل ما نَدَا عن لين، وأحسَّت ألَمًا يعتصر قلبها حين ألقى مازن سؤاله الذي كانت تعرف أنه آتٍ لا محالة:

– ما الذي حدث ليلة وفاة دارين؟

أغمضت عينيها بثقلٍ جثم فوق أنفاسها المتباعدة كأنها تراها تموت الآن، مُجددًا، ومُجددًا، تبًا، لماذا يأبى الماضي أن تنقشع غمامته المُعتِمة مهما أشرقت ألف شمسٍ من حولنا؟ تأبى إلا أن تضربنا عاصفة ظلامه الساخطة، لماذا نرى الذكريات السيئة بكل هذا الوضوح مهما مضت السنين؟ نراها كأنها تحدث الآن، لكن الأسوأ أننا نشعر بذات الألم يشقُّ صدورنا بذاتِ الحُرقَة، يضرب جذورَنا بذات القسوة كأنَّ كُلَّ شيءٍ يحدث من جديد، الآن.

فجأة عادت تشدُّ قبضتيها باستماتةٍ فوق ساعدي الكرسي، وتَدَاعي أنفاسها يوحي بانهيارٍ قادِمٍ لا محالة؛ هذا ما التقطته عين الضابط والمحامي، بينما والداها فقد طرحهما السؤال أرضًا كقنبلةٍ انفجرت دون سابق إنذار؛ يتنفس والدها بصعوبةٍ رغم أنه يحاول أن يبدو هادئًا، نظرات أمها الضالة توحي بأنها غادرت لعالَمٍ آخر، ليقطع المحامي تلك اللحظات الثقيلة بإجابةٍ سريعة:

– حادِثٌ مضى منذ أربع سنوات ولم تكن به أية شُبهَةٍ جنائية، وهناك مَحضَرٌ بذلك يمكنك الاطلاع عليه، غير إن تلك الحادثة بعيدةٌ كل البعد عن القضية المطروحة أمام سيادتك، وهذا المُختل زياد كان مهووسًا بتلك الخُزَعبلات؛ من تحضير الجن والأرواح وغيره، فلا يُعتَدُّ بأيِ شيءٍ يقوله، وموكلتي متعاونة إلى أقصى حد، وأثق أن التحريات

تشير أنه لا علاقة لها بالقتيل ولم تقابِله في أيِّ وقتٍ يومَ ارتكاب الجريمة، ورسائل الهاتف تُثبت رفضها لهذا؛ ما يُبعِدها عن دائرة الشك بأية حال، وأعتقد الآن أن وجودها هنا ليس له أيُّ داعٍ؟

هَزَّ مازن رأسه مُوافقةً على كلامه، ثم حَوَّل عينه نحوها:

- أين كُنتِ يومَ الثلاثاء الماضي عند منتصف الليل يا آنسة لين؟

- غادرتُ مسرح الأوبرا عند الحادية عشرة، ووصلت إلى البيت في تمام منتصف الليل.

عَمَّ صمتٌ للحظات، الوجوه من حوله تلَبَّسَها صقيعٌ بارد، إلا إن إحساسه أقسم له إن أسفلها جذوة نارٍ تلتهم أفكارهم، لكنه اكتفى بكونه رمى الشرارة الأولى، أشار لهم بإمكانية الانصراف، بعد أن أكَّدَ على أنه قد يستدعيها في أي وقت.

فكان والدها أول المُغادِرين، تَبِعَته والدتها، ولحقهما المحامي، بينما كانت هي آخرهم. حين انتبه الضابط أن هاتفها فوق مكتبه، التقطه وأوقفها، مَدَّت يدها تُمسِكُ بالهاتف، فوقف أمامها مُباشرةً وكُلٌّ منهما يمسك طرف الهاتف، وقبل أن يُفلِتَه سألها:

- كنتما توأمًا، أليس كذلك؟

أومأت تأكيدًا تُسيطرُ على تهَدُّجِ أنفاسها ورعشةٍ خفيةٍ أصابتها، ليتقدَّم خطوةً وما زال الهاتف بينهما:

- أتعتقدين حَقًّا أن شبح أختك الغاضب هو من قتله؟

- وهل أصبحت الشرطة تؤمن بالأشباح الآن يا سيادة الضابط؟

تبَسَّم بتلقائية؛ فقد أعجبته سرعة بديهتها:

- ما الذي حدث تلك الليلة في الفيلا يا لين؟ تعتقدين أنه ربما يكون مُحِقًّا؟ وأن أختك قد قُتِلَت؟

سحبت هاتفها من يده، التفتت مُغادِرةً دون أن تتفوَّه حرفًا، أمسكت مقبض الباب، حين باغتها بسؤال:

- هل تعني لكِ جملة "الآن تبدأ اللعبة" أيَّ شيء؟

تجَمَّدت بموضعها، ازدردت ريقها بصعوبةٍ بالغة، زاغت نظراتها الشريدة لثانية، قبل أن تُطبِقَ على قبضتيها تستدعي ثباتها الواهي. أشارت برأسِها نَفيًا دون أن تلتفت، لكنه يكاد يُقسِم إنه لمح ارتجافها المتوتر، وسمع غطيط أنفاسها المضطرب. أغلقت الباب خلفها وخَلَّفَته وراءها غارِقًا في تلك الفتاة العجيبة والقضية الأعجب.

استردَّه دخول الضابط جمال، مساعده، يتساءل إن كان أحرز أيَّ تقدم، فأشار له بلا، لكنه طلب إليه مُراقبةَ لين على مدار الساعة، وأن يعرف كُلَّ شيءٍ عن حياتها وتوأمتها، دارين، منذ ولدتهما أمهما، فتعَجَّب جمال وتساءل هل يشك بها، ليجيبه بابتسامةٍ غامضة:

– تلك الفتاة لا يمكنها قتل صرصار، لكِنَّ حدسي يخبرني أنها أول الخيط وآخره.

في مساء اليوم التالي، رهف تنام مُمددة فوق سريرها، تحدق إلى سقف غرفتها زهري اللون، لأول مرةٍ تنتبه أن به انبعاجاتٍ طفيفةً تشَكِّلُ ظلالًا مُتباينة. تسبح نظراتها خلفها دون هدف، أو إن هدفها ملء فراغات عقلها باللاشيء؛ لعلها تستطيع النوم، تنهدت، مسحت على وجهها بكلتا كفيها بيأسٍ تمَلَّكَ منها.

ترتدي منامةً قطنيةً وردية اللون بسروالٍ قصير، وقميصٍ تتوسَّطه رسمةٌ كرتونية دون أكمام، وحيدةٌ تمامًا داخل منزلها؛ بعدما غادر الجميع إلى أحد الحفلات الخيرية التابعة لإحدى الجمعيات التي ترأسها والدتها. حاولوا معها كثيرًا أن تذهب بصحبتهم، لكنها رفضت، منذ مقتل زياد وهي لا تستطيع الصمود خمس دقائق كاملة بين الناس دون أن تشعر باختناقٍ مُفاجئ، وأن شيئًا يلتفُّ حول عنقها يمنع عنها الهواء.

لكن للحق، مشكلاتها ظهرت في وقتٍ أبكر من مقتله، لعلها بدأت منذ أربع سنوات؛ في ليلةٍ شتويةٍ لعينة، ليلةٍ عاصفةٍ ماتت بها دارين، أعز صديقةٍ لها، أو هذا ما اكتشفته بعدها، أنها كانت كل ما تمتلك، لكن ما جدوى معرفة الحقيقة بعد انقضاء وقتها؟ تتحول لخنجرٍ تطعنك به الذكرى كلما حَلَّت داخلك، تتمنى لو ظَلَّ مُسَكِّنُ الجهل حليفك، ولتذهب الحقائق المؤلمة إلى الجحيم.

انقلبت على جَنْبها الأيمن تسبُّ نفسها ولسان حالها يسخر منها بشماتة: "من قال: أن تعرف مُتأخرًا خيرٌ من ألَّا تعرف على الإطلاق؟ لا بُدَّ أنه كان أحمق، لا يعرف معنى أن تأكلك الحسرة من الداخل، لا يعي أن الندم يتغذى على الروح حتى يتركها خَرِبةً مُحَطَّمة؛ بقايا قلب، بقايا عقل، فُتاتًا من كُلِّ شيء، لا تصلح لأن تكون أيَّ شيء".

مدت رهف يدها وأخرجت علبة المسكنات التي تُخبئها خلف الكومود بجوار سريرها، اعتدلت قليلًا ووضعت براحة كفها واحدة؛ طبقًا لتعليمات طبيبها النفسي، وقبل أن تأخذها تردَّدَت للحظة، ثم وضعت بها الثانية، فواحدة لم تَعُدْ تجدي نفعًا معها، ربما كان عليها أن تخبر الطبيب بازدياد حالتها سوءًا، فوضعت الثالثة، وبلعتهم بشربة ماء، لعلهم يوقفون أشباح الماضي عن مُلاحقتها.

منذ تلك الليلة اللعينة لم يعد شيءٌ بحياتها يسير بشكلٍ جيد، تتمنى لو تعود إلى تلك اللحظة فتحول مسار الزمن فلا يكون ما كان، تبًّا لكلمة لو التي تستنزف طاقتنا وتتغذى على أرواحنا وتُهلك عقولنا وتسكننا كهوف الأوهام والكوابيس لياليَ تلو ليالٍ حتى نُصبِحَ بقايا مُحَطَّمة لا نقوى على أشباحِ كوابيسنا المُتَجَبِّرة بانتقامها.

نفضت كل هذا عن تفكيرها قدر استطاعتها، عادت تتجرَّع الماء، لكنها شعرت أنه فاتر، ليس باردًا كفايةً كما تفضله في هذا الحر الملتهب، فتركت الكوب واستقامت واقفة، ابتعدت عن سريرها بضع خطوات، أحَسَّت أنها تترنح فاستندت إلى خزانة الملابس المجاورة لها.

أغمضت عينيها، تتنفس بعمق، لحظات واستطاعت السيطرة على ضعفها، تقدمت خطواتٍ حَذِرةً تستند بيدٍ على كُلِّ ما هو صلبٍ في طريقها، والأخرى تُطبِقُ على هاتفها.

حتى اللحظة لا تستطيع إخبار أحدٍ من عائلتها عن مشكلاتها النفسية، ولا حتى هشام خطيبها وحب عمرها استطاعت إخباره، فهي خير من يعلم كيف ستكون ردة فعله تجاه الأمر. لكن لو كانت دارين هنا لأخبرتها، فما كانت تُخفي عنها شيئًا، لم تحتَج يومًا أن تفعل، ومن يحتاج أن يكذب أو يتجمل أمام الشخص الذي يكترث له؟ يحبه دون شروط، يفهمه دون شرح، يتقَبَّله بعيوبه، بكل حالاته وتغيُّراته وتقلباته. تنهدت بضيق، أصبحت الآن تحتاج الماء أكثر لعَلّه يُخَلِّصها من المرارة التي عَبَّأت حلقها فجأة.

وصلت المطبخ، أخرجت من المُبَرِّد زجاجة، تجَرَّعت الكثير منها دُفعةً واحدة، تشعر بنَهَمٍ لم تعتده للماء، سمعت باب الشقة الخارجي يُغلَق، ذهبت لترى العائد فوجدته أخاها، يخطو مُهرولًا نحو غرفته، لا بُدَّ أنه نسي شيئًا كعادته. عادت إلى الداخل وما زالت الزجاجة الباردة في يدها، نظرت نحوها، وبعد هُنيهةٍ قصيرة تجَرَّعت البعض، ثم أحنت رأسها داخل الحوض وأفرغت ما تبقَّى منها فوقه. شعرت بالمياه تُبَلِّلُ شعرها، البرودة تغزو جلدها، تجتاح مسامها، توقف كل ذرةٍ بها عن الحياة للحظة، فتمنَّت لو تتجمد أفكارها السوداوية للأبد وتكف عن النعيق كغرابٍ بائسٍ داخل رأسها الملعون، لكن لا شيء من هذا حدث، تبدَّدت اللحظة سريعًا وعادت الأفكار تنخر والنعيق يعلو يُنذِرُ بالشؤم.

أطلَّت من المطبخ بنصف عَقلٍ ونصف حضورٍ وبعض وعي، شعرها ونصفها العلوي مُبلَّلان، ويبدو عليها خدرٌ يترنَّح له جسدها، فتبدو ناعسة، لتجد أخاها يقف مُقابلها. اعتدلت بوقفتها وفردت كتفيها بما أمكنها، استحضرت وعيها قدر استطاعتها، اصطنعت ابتسامةً تسأله بنبرةٍ واهنة جاهدت لتبدو مَرِحة:

– ما الذي نسيتَه هذه المرة لتعود؟

عقد حاجبيه بغضبٍ وفرد ذراعه أمامه وقد ظهرت علبة المسكنات في راحة يده، تجَمَّدَت رهف بموقفها، مالت إلى الجدار تستند إليه تشعر بدوارٍ يعصف برأسها ويطحن أنفاسها اللاهثة، هتف أخوها بنبرةٍ حانِقةٍ بشيءٍ لم يصل وعيها الضال وقد اجتاحها إعصارٌ داخليٌّ صَمَّ أُذنيها، سُلسِلَت نظراتها بكَفِّه، يتقدم خطوةً ويعيد ما لم تسمعه ويعيدها إلى اللحظة الراهنة:

– منذ متى وأنتِ تتعاطين تلك الأشياء؟

جَفَّ حلقها مُجددًا، وشعرت بأشواكٍ تَخمِشه بعُنفٍ كلما ازدردت ريقها، تُعافِر الكلمات لتخرج من فمها دون جدوى؛ هذا كان أسوأ مخاوفها، ما حاولت تجنبه، أن ترى نظرة الخذلان بعينه هو تحديدًا، مَنْ يفخر ويتباهى بها أمام الجميع، ويخبرهم أنها ابنته وليست أخته، أهون عليها أن تقتل نفسها على أن ترى نظرات الخيبة بعينه. تستمع لصرخاته الغاضبة مع كل خطوةٍ يتقدمها نحوها، يقذفها بسهام كلماته عن خيبته فيها وكيف خذلته، وعن جدار الثقة الذي هدمته فوق رؤوس الجميع.

– أنا...

كل ما استطاع لسانها إطلاقه بعد محاولاتٍ مُضنية، توقَّف على بُعدِ خطوتين منها. هدر بسُخطٍ وكفه تعتصر علبة المسكنات:

– أنتِ دُميةٌ غبية، حُثالة، لا تستحقين سوى الموتِ، عارٌ عليَّ وعلى الجميع.

جُبِلَت بمكانها من الذهول والخوف والاضطراب، نفذت كلماته تخترق أعماق روحها المتضعضعة لتقضَّ آخر قشةٍ كانت تُقيمُ أركانها، صُفِّدت قَدَماها ويداها فلم تقوَ على اختلاجة، طفحت الدموع بعينيها وسالت على خديها، ارتكن جسدها الخائر إلى الجدار تغتالها الصدمة.

استعادها ارتفاعِ صوت رنين الهاتف في يدها، رفعت كفها قليلًا نحو وجهها لترى شاشته تضيء باسم المتصل. عادت غيلان الشوك تستولي على حلقها الجاف تنهشه، الرنين يرتفع مع ارتفاع كفها، وعيناها استقرَّتا عند أخيها، ضغط إصبعها دون وعي منها إجابة الاتصال، وضعت الهاتف على أذنها ليأتيها الصوت من الجهة الأخرى.

اتسعت حدقتاها ورعدةٌ جارفة ضربت أوردتها، ترُجُّها من الداخل رَجًّا، وارتجفت أطرافها جَرَّاء توابعها، شحب لونها، تتنفس بصعوبة، نظراتها صُلِبت على أخيها الذي رماها نظرةً بدت لها لحظتها ساخرةً مُتشفية قاتلة، تنكمش على نفسها وعيناها

الذاهلتان متجمدتان عليه تدفع الحائط دَفعًا، تمنت لو تذوب داخله فلا تشعر ما تشعر به الآن. ارتفع صوتُ أخيها القادم من الجهة الأخرى على الهاتف يخبرها أن تتأكد إن كان ترك ساعته بالحمام أم لا، لكنها لم تسمع منه شيئًا فكُلُّها مُقيد الوعي والوجود بالماثل أمامها، إن كان أخوها على الهاتف، فمَنْ الذي يقف على بُعدِ خطوتين منها؟

هَبَّت ريحٌ عنيفةٌ ارتجَّت لها النوافذ، تفاقم لها فزعها وسقط الهاتف من يدها المُرتجفة، ازدادت ابتسامته الساخرة بشماتتها، وانتفضت عيناه بحنقٍ من الجحيم، وتحَوَّل في ثانيةٍ إلى غيمةٍ من الضباب الأسود استقرَّت بالركن المقابل لها. انتصب شعر جسدها ونفرت الدماء بعروقها، طفقت تنتفض وأنفاسها تخبو مع صوت كل خطوةٍ تقترب منها تتخفَّى وسط الضباب المُقبِل عليها، صوتُ حفيفٍ قادمٌ من بعيد، وقبل أن تعي، اهتزَّ المصباح فجأةً بقوة وتهَشَّم، فسقطت أرضًا وأظلم كل شيء.

في اليوم التالي مع غروب الشمس، تجلس لين بغرفتها، تمسك بالهاتف تتفقده كل بضع ثوانٍ، تضع سماعات الرأس، تستمع باهتمامٍ وتركيز واضح، كتبت بضع رسائل وضغطت إرسال، بذات اللحظة التي انتبهت بها لطرقاتٍ قويةٍ على باب الغرفة، فقد حرصت على غلقه بالمفتاح، أزاحت السماعات وأطفأت الهاتف ودَسَّته أسفل وسادتها من الجهة البعيدة، ساوت سريرها، أدارت المفتاح، لتندفع ريم داخل الغرفة عاقدةً ساعديها.

- أتعتقدين أنه يمكنكِ الهروب مني؟

تنَهَّدَت لين بضجرٍ وابتساماتٍ مُتقطعة مُغتاظة، جلست إلى المكتب، لتجلس ريم فوق حافة السرير تعقد ذراعيها تُسهِبُ النظر فيها باهتمام، تتابع كل انفعالاتها ولا تكترث لما تُبديه من تَبَرُّم، تشعر أن صديقتها قاربت على الاستسلام كُلَّمَا ضيَّقت عليها الخناق، فهكذا استسلمت السيدة ناهد منذ لحظات على الهاتف، والتي بكل الأحوال على وشك الوصول لتدعمها في معركتها ضد الحمقاء، وحينها يتحقَّق ما أمضت الساعتين الماضيتين تحاول اقتناصه، فعادت لتبدأ من جديد:

- هو مُعجَبٌ بِكِ، يريد التحدث معك، أعطِه فرصة، ربما يعجبك.

- يا ريم، ألا يمكنك التوقف عن فعل هذا؟

- كلا، لا يمكنني؛ أنتِ صديقتي الوحيدة ولن أتوقف حتى أراكِ سعيدة.

مسحت لين بين عينيها وهي تثب فجأةً إلى جوارها على السرير بصوتٍ نافِدِ الصبر:

– ليس الزواج أو عدمه هو ما يجعل البشر سُعَداء أو أشقياء، نحن من نفعل ذلك، نحن من نحدد الطريقة التي نعيش بها، نحن، ونحن فقط، من يجعل حياتنا سعيدةً أو حزينة، وليس شخصًا آخر؛ لذلك توقفي عن لعب دور الخاطبة معي.

– ما هي مشكلتك؟ أخبرتك أنه رجلٌ مُمتاز، مهندسٌ مرموق.

– ومن عائلةٍ كبيرة ومُثَقَّف ويعشق الموسيقى، وصديق خطيبك.

قاطعتها وهي تتنهَّد بعبوس، لتبتسم ريم عاقدةً ساعديها فوق صدرها:

– إذن كُنتِ تستمعين لكل ما قلته؟

– أنتِ تُعيدين نفس الحديث منذ الصباح، وسأعيد ما قلته، لا أفكر بهذا الأمر الآن، لذا أرجوكِ، توقفي.

– يا لين فقط اسمعيني...

وضعت لين كفها على فم صديقتها:

– ولا حرفًا آخر، وإلا أُقسِمُ إنني سألقي بكِ من النافذة.

ابتسمت لين بودٍّ مُشاكِسَة، فتعرف كم تُحبها ريم، وتفعل أيَّ شيءٍ لتراها سعيدة، ولن تتراجع عن ذلك مهما كان الثمن، كم هي مُمتنة للحياة التي أعطتها صديقةً لا تتخلى عنها في أحلك اللحظات وأكثرها قسوة، وتحارب لإبقائها سعيدة.

عقدت ريم ساعديها بغيظٍ تُعلِنُ استئناف الهجوم في معركتها التي لن تخسرها، فلن تتوقف حتى ترى صديقتها تبدأ حياتها من جديد، تتخطى الماضي بكل آلامه وصعابه. رفعت يد لين عن فمها، وقبل أن تتفوَّه أيٌّ منهما حَرفًا قاطعهما جرس الباب، ابتسمت لين بمرحٍ مُفاجئ وهرولت تجري من أمامها لتفتح لأمها، التي لم تكن عادت من الخارج بعد، فتحت الباب لتتحجَّرَ بقايا ابتسامتها على وجهها، وتتشَقَّقَ عن تجهمها المفاجئ الذي تلَبَّسها لمرأى زائرها غير المتوقع. استعادت نفسها سريعًا من المفاجأة السخيفة، عقدت ساعديها بوجهٍ مُكفهرٍّ ونبرةٍ حادة:

– ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

تجاهلت الضيفة حِدَّتها وعبرت من المسافة المحدودة بين لين والباب، وقد احتَكَّت بساعدها دون مُبالاة، حتى إنها ربما تكون قد تعَمَّدت ذلك.

ظهور هذه الفتاة هنا والآن كفيلٌ بإشعال فتيل حَنَق لين الذي لا تواريه. فَكَّرت ريم بقلق، والذي قرأته الزائرة بوضوح، لكن دون اكتراث، فإيناس ليست الشخص الذي يُبالي، أو بالأحرى يكترث لما يريده الآخرون أو يعتقدونه، الأهم ما تريده هي وما ترغبه. فتاةٌ في مثل عمر لين تقريبًا، بطولها المتوسط وبنيتها الممتلئة، تقدَّمت خطواتها للداخل بدلالٍ تتعَمَّدُ إظهاره، تلاعبت بأطراف شعرها المُستَرسِل حتى منتصف ظهرها، الذي تصبغه بالأصفر، ترتدي فستانًا أزرقَ قصيرًا، بالكاد يصل إلى ركبتيها، يُحكِمُ خيوطه عليها فيُفشي تقاسيمها بجُرأة. وصلت إلى الصالون وجلست إلى الكرسي دون دعوة.

ظلت لين على وقفتها أمام الباب للحظة، وجهها بالاتجاه المعاكس، أغمضت عينها تحاول التنفس؛ فهي لا تكره أحدًا بقدر كُرهها لإيناس.

عقدت ساعديها وخمشتهما بأظفارها بحدة حتى شعرت الألم، وللحظة، استجاب عقلها للتشتيت بالألم بعيدًا عن الزائرة غير المُرَحَّبِ بها؛ فلن تتركها تستفزها لتُفسِدَ كُلَّ شيء، ليس الآن، استعادت قليلًا من توازنها والتفتت نحوها، تقدمت خطواتٍ مُتثاقلةً تاركةً الباب خلفها مفتوحًا علامةً على عدم الترحيب، فتجاهلتها الضيفة ووضعت ساقًا فوق الأخرى، بابتسامة مُستفِزَّةٍ كنبرتها.

- أتلك هي الطريقة المُلائمة التي تُقابلين بها زوجة أبيكِ؟

تلجلجت نظرات ريم القلقة، لقد بدأت إيناس الهجوم أسرع مما توقعت، وتعلم أن لين تستعر على صفيحٍ ساخن، وردُّ فِعلها، وإن كان يتَّسِمُ بالهدوء والتفكير في أغلب المواقف، لكنه مع إيناس تحديدًا لا يتوقَّعه أحد، لا تعرف ماذا عليها أن تفعل وقد باتت لين تقِفُ أمام ضيفتها بابتسامةٍ ساخطة وما زالت عاقدةً ساعديها.

- تقصدين عاهرته!

انمحت ابتسامة إيناس للحظة وحَلَّ مكانها غيظ، تبادَلَتا نظراتٍ تَتَّقد كُرهًا، حين التفتت نحو ريم، التي تقدَّمت لتقف مُقابلهما لا تشعر أن تلك المقابلة ستنتهي على خير، تبَسَّمت الجالسة باستهزاء، مسحت على فخذها بأطراف أناملها، نقلت عينها بين كلتيهما.

- هذا جزائي؛ لأنني أتيتُ للاطمئنان على صحتك، بعدما عَلِمتُ أنكِ عُدتِ لجنونك القديم، والدكُ يُريدُ إعادتك إلى المصحة العقلية.

زادت نبرتها شماتةً كنظراتها الخبيثة التي رَكَّزَتها بعينِ لين تتعَمَّدُ استفزازها، وهي تمسح على بطنها البارز المُنتَفِخ قليلًا:

- يخشى على ابننا القادم من جنون أخته.

اقتربت لين بهدوء، ودنت تُمسك بساعدي الكرسي الذي تجلس إليه إيناس بإحكام، فأصبحت حبيسة ذراعيها، انحنت على أذنها اليُمنى بنبرةٍ باردة بَثَّت الخوف بقلب زائرتها:

- أعتقد أنه يخشى على الشخص الخطأ، للحَقِّ، يجب أن يخشى على عاهرته أولًا.

تراجعت برأسها للخلف تُثَبِّت عينها بعين إيناس، التي تمَلَّكها الخوف ونضحت حَبَّاتُ العرق بوجهها وتلعثمت أنفاسها، تبتلع ريقها باضطراب، تتململ في مجلسها، ثم عادت وانحنت على أذنها اليسرى:

- أنتِ تعلمين أن القانون لا يُعاقِب المجنون على أفعالِه!

صمتت لثانيةٍ تفاقم ذُعرُ إيناس فيها جِبالًا، أحكمت كفها اليُسرى فوق ساعد الكرسي بغضب، وأطبقت اليمنى بغتةً على عُنُقِ إيناس، التي كادت تموت فزعًا وهي تنتفض بظهرها للخلف تُمسك يد لين تحاول إبعادها عن عنقها، والأخرى تهمس لها بذات النبرةِ المُخيفة وأنفاسها الحانقة وهي جاثمة فوقها:

- حتى وإن قتل.

انتفضت ريم تحاول عَبَثًا سحب صديقتها، بذات اللحظة التي دلفت بها أمها ومن خلفها البواب يحمل أغراضًا، فهرولت تسحب ابنتها، بينما البوَّابُ ألقى ما بيده يكدُّ للحيلولة بينهما. ثلاثتهم يجاهدون لتخليصها من تحت يد لين الغاضبة، حتى استطاعوا بشِقِّ الأنفس إبعادَها عنها، فهَبَّت إيناس تسعل من شدة الاختناق، تحاول استعادة أنفاسها وهي تتوعَّدها بأن تجعل أباها يلقيها في المصحة العقلية للأبد وتهرول هاربةً من المنزل.

تجمدت لين حين تراءت لها دارين تقف في الزاوية البعيدة خلف الباب الذي ركضت منه إيناس، عاقدةً ساعديها فوق صدرها ترمقها نظرةً شامتة، أزاحت لين أيديهم عنها بسخطها المحتدم، وقد زادتها نظرات أختها ضيقًا، وحمرة وجهها المستاء كأنفاسها اللاهثة تُعلِنُ عن بُركانِ اهتياجها المُستعر، فلم يجرؤ أحد على التفوه بحرف، ورزح صمتٌ ثقيلٌ على الصدور، قطعته مُغادرة البوَّابِ في صمت، وأغلق الباب خلفه، فالتقت عين لين وأمها في نظرةٍ طويلةٍ مُغَلَّفةٍ بالألم والشفقة من واحدة، والملامة والغضب من الأخرى.

حينما عادت بنظرها إلى الزاوية كان طيف أختها قد تبخر، فهرولت إلى غرفتها وتبعتها ريم، بينما ظلت أمها على وجومها وانفعالها، جلست إلى الكرسي الذي فَرَّت إيناس من فوقه واضعةً رأسها بين كفيها تشعر بألمٍ ينخر كل ذَرَّةٍ بها.

وقفت لين في زاوية الغرفة دافنةً نفسها بين جدارين تدفع نفسها بينهما كأنها تنصهر بداخلهما، تُطمَسُ حتى تُصبِحَ جزءًا لا يتجزَّأ منهما، وانفعالها في تواتر، ثم أخذت تُحَرِّكُ رأسها للأمام والخلف كأنَّها تخبطه في الحائط، لم تفعل ريم شيئًا سوى الجلوس على طرف الفراش تنظر إلى صديقتها بألمٍ ويأس؛ تعلم أنها منذ الحادثة تنتابها تلك الحالة العجيبة من التوَحُّدِ داخل ذاتها، وانفعالاتها تأخذها إلى عالَمٍ آخر، وليس بيدها فِعلُ شيءٍ سوى أن تظل جوارها، حتى لو جلست صامتةً ليومين، يكفي أن تعلم أنها هنا من أجلها وأنها ليست وحيدةً في هذا الألم.

وما توقعته تمامًا قد حدث، ازدادت حركة رأسها تزامنًا مع خبطات قبضتها اليمنى على الجدار بجوارها، واليسرى تنقر بسبابتها على الحائط الآخر بتوالٍ مستمر مُنَغَّمٍ بذات المقطوعة؛ "الحصاد"، وعينها مُثَبَّتةٌ على نقطةٍ بعيدة في الفراغ، أصبحت تغوص كُلِّيًا مع ألمها وغضبها وفزعها، لتسقط في دوامة ذكرياتها البائسة.

تكزُّ أسنانها بغيظ، تحاول كبحه، فما عادت تتحمَّلُ نوبات جنوحها، والتي تشعرُ أنَّها

ستُفقِدُها عَقلها يومًا ما.

- ما الذي تريدينه مني الآن يا دارين؟

- أن تأتي معي.

- تعرفين أن أصدقاءك ليسوا أصدقائي، غير إنني لستُ على وِفاقٍ معهم ولا أحبهم.

- إنني لا أحب ريم، ولا أستلطفها، لكنَّني ذهبت إلى حفلة عيد مولدها وقَدَّمتُ لها هديةً لأجلك.

مسحت لين بين حاجبيها وهي تفرك جبهتها بامتعاضٍ ونظراتٍ توحي بالنفور، فهي ترى أصدقاء أختها حِفنةً من الحَمقى المُنَافِقين المستهترين، وكثيرًا ما

تشاجرت مع أختها كي تبقى بعيدةً عنهم، فتراهم يؤثّرون عليها بشكلٍ سيئ، ما يجعلها تقع في المشكلات بسبب تصرفاتها الطائشة، ما لا يروق لوالدتها أيضًا، لكنَّ دارين منذ انفصال والديهما وتوطُّدُ صداقتها بهم، أصبحت متمردةً وجامحة ولا تكترث لشيء. عقدت لين ساعديها بنظرةِ ضِيق:

- لن أذهب إلى تلك الحفلة.

- ستأتين معي إلى الحفل، وإلا أقسم إنني سأخبر أمي أنك تواعدين أخا ريم.

- ماذا؟ لكنني لا أفعل!

انتفضت لين بنظرةٍ مُغتاظة، رَدَّت أختها دون مبالاة:

- لا أكترث، وأمي أيضًا لن تكترث حينما تسمع كلمة مواعدة وفتى في الأمر، وتَخَيَّلي ماذا يحدث لها حين تعلم أن جوهرتها الغالية وحلمها المضيء تفعل ذاك.

عقدت دارين ساعديها بنظرةِ تَحَدٍّ وتصميم، نظرةٍ تقسم لها إنها ستفعل، وكلتاهما تعرفان موقف أمهما الصارم من هذا الأمر، خاصَّةً منذ انفصالها عن والدهما، لن تستمع لأيّ شيءٍ سيُقال حينها، خاصةً حين يتعلَّق الأمر بلين تحديدًا؛ فهي تُعَوِّل عليها أن تحقق فيها كُلَّ أحلامها الضائعة، وأن تعوضها خيبتها في دارين، التي انحرفت عن المسار الذي تريده لهما، وعن خيبتها في زوجها، وعن كل ما لاقته في حياتها من مُعاناةٍ وخِذلان. نفثت لين أنفاسَها ضِيقًا تهتف بنفاد صبر:

- لن أجلس أكثر من نصف ساعة، وسوف أغادر، حتى وإن لم تأتي معي.

- لا تقلقي بهذا الشأن، يمكنك المغادرة وقتما تريدين.

التمعت عين دارين بفرحة المنتصر، ليزداد تجَهُّمُ أختها.

- هل الحفل في منزلها؟

- كلا، في أحد الفنادق على أطراف القاهرة.

- نصف ساعة فقط، فأنا لا أحتمل هؤلاء الأغبياء الفاشلين.

أكَّدَت لين بنبرةٍ صارِمةٍ كنظرتها، التفَّت دارين بحركةٍ مَرِحةٍ مُفاجئة تحتضنها من الخلف:

- لا تقلقي، أعِدُكِ، كُلُّ شيءٍ سيكون بخير.

في تمام الثامنة مساءً، وداخل مكتب الضابط مازن، الذي يتلاعب بقَدَّاحته بين أصابعه وعينه مُسَلَّطة على ورقةٍ أمامه، اعتدل بكرسيه وقد أراح ظهره للخلف، بعدما ظَلَّ للساعة الماضية كاملةً يُعيدُ قراءة الملف مرةً تلو الأخرى، ويكتشف في كل مرةٍ شيئًا جديدًا، فيزداد رضاه عن نفسه وعن ذكائه، وحدسه الذي يثق به. أدار الكرسي قليلًا وما زال يفتح القداحة ويُغلقها بصوتها الرتيب، ابتسم من طرف فمه ابتسامة الظافر بصيدٍ ثمين، ليبتسم جمال الجالس أمامه.

- تقرير المَشفى أكَّد أنهم وجدوا نسبة مخدرات عالية في دماء دارين، ولفظت أنفاسها الأخيرة داخل غرفة العمليات حين كانوا يحاولون إسعافها إثر حادث انقلاب السيارة، لكن والدها دفع بكل علاقاته ومعارفه وأمواله لعدم ذكر هذا الأمر بتقرير المَشفى، خاصَّةً أنها من كانت تقود السيارة، فلم يكن ليقبل بأن تتأثَّر سمعته جراء طيش ابنته، وتم إغلاق القضية على أنها حادث سير.

- وهل كانت تتعاطى المخدرات بالفعل؟

- يبدو الأمر كذلك.

أجاب جمال مؤكدًا وهو يزيد:

- الحقيقة أنَّني تعبت جدًا حتى استطعت الحصول على تلك المعلومات، أعتقد أن لغز القضية قد حُلَّ، وأمر المخدرات سبب توتر والديها والمحامي حين أتيتَ على ذِكرِ الحادثة، وإلا لماذا كل هذا العناء في إخفاء الأمر.

حَكَّ مازن مؤخِّرَة رأسه بتنهيدةٍ أثارت حيرة جمال، الذي تساءل:

- ماذا؟

- حدسي يُنبئني أن هناك شيئًا آخر.

- أتشك أنها قد قُتِلَت بالفِعل؟

- قتل زياد، ورسائله إلى أختها عن قتلها، هناك شيءٌ غامض.

- ربما القاتل يحاول تشتيتنا عنه؟

- ربما، لكن...

صمت مازن وانتصب من خلف مكتبه واقِفًا أمام النافذة، وضع سيجارةً في فمه، أشعلها، نفث دخانها، وقف لثانيتين يفتح القَدَّاحةَ ويُغلقها، ثم التفت فجأةً نحو

جمال، الذي ما زال على جِلسَتِه وحيرته، يتساءل باهتمام:

- أين تقرير المعمل الجنائي لفحص السيارة التي انقلبت بهما؟

- كان حادث سير، ولم تكن هناك أية شبهةٍ جِنائية؛ فلم يتم فحص السيارة.

- أعد التحريات في تلك القضية، عُد للمَشفى مُجددًا، ولا تنسَ السيارة، والشهود.

أعاد تلك الأخيرة بنبرةٍ حازمة وهو يعود ليجلس خلف مكتبه يفتح القَدَّاحة ويطفئها، يتلاعب بالقلم بيده الأخرى ويدوِّنُ شيئًا في ورقةٍ أمامه غارِقًا بتفكيرٍ عميق.

- فقط لو يمكننا أن نعرف ما الذي حدث في تلك الحفلة، ويقتلني فضولي أكثر لمعرفة ما الذي تعنيه جملة "الآن تبدأ اللعبة"؟

ثم أعطى جمال الورقة التي بيده وهو يهتف بحماسة:

- هؤلاء هم الشهود في تلك القضية، وإن كانت حدثت جريمة قَتلٍ بالفعل في تلك الليلة، فلن يعرف غيرهم ما الذي حدث.

فغر جمال عينيه وفمه من المفاجأة التي أخذته وهو ينظر في الورقة، ليتساءل بعد ثانية:

- حتى لين؟

- لكُلٍّ منا دوافعه التي قد تجعله يقتل حتى أقرب الناس إليه.

أكَّدَ مازن بنظرةٍ حِاسمة، حين عاود الآخر النظر في الورقة وهتف بدهشة:

- يبدو لي أنَّ البعض دوافعهم أقوى من غيرهم.

- ما الذي تعنيه؟

سحب القلم ووضع دائرةً حول اسم أحدهم وأعاد إليه الورقة، فقرأ الاسم بتَمَهُّلٍ بنظرة تساؤل:

- إيناس؟!

- تزَوَّجت من والد الضحية بعد شهرين من الحادثة.

- صديقتها تزَوَّجَت والدها!

خرجت من مازن بابتسامة ذهول، ليُتبِع:

- يبدو أن هناك الكثير من المفاجآت في هذه القضية.

على الجانب الآخر مع تمام التاسعة مساءً، تجلس إيناس تتلاعب أناملها بحافَة الكأس لا تكترث لزفراته المُغتَاظة، وغير الراضية، التي تكاد تصل مجلسها المقابل له. تُشيحُ بنظراتها تجاه أضواء الملهى الليلي، المتدلية من السقف تُشِعُّ بألوانٍ كثيرةٍ مُتداخِلة شعرت للحظةٍ أنها تتناغم وتتراقص مع أصوات الموسيقى الصاخبة في المكان، حين أعاد سؤاله بجِدَّةٍ ويخبط الطاولة بقبضته باستياءٍ من عدم مُبالاتها:

- هذا يعني أنَّكِ عُدتي إليَّ خالية الوفاض!

التفتت نحو هشام بذات النظرة الباردة التي تزيد اهتياجه، رفعت كأسها، رشفت القليل وأعادته إلى مكانه، ثم أشارت بيدها بتجاهل:

- لا تُحدثني عن هذه المجنونة مجددًا.

- لم أُرسلك لها لتستفزيها، بل لتعرفي ما تعرفه.

ازداد غضبه وهو يخبط على الطاولة مجددًا، لتنتفض إيناس غاضبةً تطرق على الطاولة بذات الطريقة ونظرةٍ خبيثة:

- وما الذي تخافُ أن يكون أخبرها به زياد قَبلَ موته؟

- أنا لست خائفًا، أنا فقط أتساءل؛ أيُّ جنونٍ قد يكون قاله هذا الأخرق؟

- توقَّفَا كلاكما عن تلك الحماقات.

انتفضت رهف، الجالسة بينهما بانفعالٍ واضطرابٍ جليٍّ من ارتعاش يديها اللتين تحاول السيطرة عليهما منذ لحظة دخولها الملهى، أو بالأحرى منذ ما حدث لها في الليلة السابقة، فهذه ليست المرة الأولى التي ترى بها دارين منذ الحادثة، لكن هذه المرة كان الأمر جنونيًّا. زفر هشام بسخط، والذي رغم أنه قد لاحظ توتُّرَها الزائد هذه الليلة لكنه تَغَابى، فلديه من القلق ما يجعله لا يحتمل جنونها.

خيَّمَ الصمت المضطرب لحظات، استردَّهم صوت سامح المتوتر، والذي ينتفض رُعبًا من الداخل بعدما أفرغ كأسه دفعةً واحدة من التزعزع:

- كانت مجرد لعبة سخيفة، ولين نفسها كانت في الحفل، لو أن هُرَاءً قتل أختها حقيقةً لأخبرت الشرطة في وقتها.

- ومن تحدث عما تعرفه لين؟

- تقصد ما يعرفه زياد؟

ثَبُتت عينا الشابين على بعضهما لثانيةٍ بنظرة فهمها كلاهما، قبل أن يأخذ سامح نَفَسًا سريعًا من بخاخته وعينه زائغة في كل مكان.

- لا شيء لقولِه، مجرد مُشاجرة غبية بسبب لعبةٍ أغبى.

صمت، شهق نَفَسًا آخر، وبصوتٍ يشبه حديثَ النفس لكنَّه مسموعٌ للجميع:

- لا أعرف كيف وافقت حينها على هذا الجنون.

- أعتقد أن...

خرجت رهف عن صمتها وعينها شاردة داخل كأسها، تلَبَّس وجه هشام استياءً وهتف بامتعاضٍ ساخر:

- وما الذي تعتقدينه يا سيدة رهف؟

- دارين عادت لتقتلنا جميعًا.

أتبعت دون أن تكترث لتَبَرُّمه، تجَمَّد الآخران وانتفض نبضهما ذُعرًا، بينما اهتاجت ابتسامة هشام الساخطة، وبنفاد صبر:

- لقد فَقَدَت عقلها، تتخيل أنها ترى شبح دارين.

- أنا أعرف تمامًا ما رأيته، سامح أيضًا فعل.

انفعلت نبرتها ونظراتها وأنفاسها الثائرة، ثم التفتت نحو سامح الجالس مُقابلها تضم جسدها بيديها، تُجاهد للسيطرة على فَزَعها، والذي أماء لها تأكيدًا يمسح جبينه المُتَصَبِّب عَرَقًا، لتضع إيناس ساقًا فوق الأخرى، والتي ظَلَّت كل هذا الوقت صامتة، وبنبرتها اللامُبالية تفتعل الثبات:

- من يكترث؟ فلتذهب كلتاهما إلى الجحيم.

- أرأيتِ إن كان عاد شبحها لينتقم، لكانت إيناس مُحتَرِقةً الآن.

هتف هشام بمَرَحٍ مُفاجئ، فضحك سامح ثم أردف:

- صديقتها التي تزوَّجت أباها بعد شهرين من وفاتها ووضعت أختها بمصحةٍ عقلية.

- اخرس أنت.

لكزته إيناس بغيظٍ في صدره وعيونٍ تلتمع حَنَقًا، ليلُفَّ هشام ذراعه حول رهف يشير نحو إيناس:

- لو كان هناك شبح لكانت إيناس أُولى القَتلى.

- الضابط قال إن رسالة زياد تحدَّثت عن الحفل ومَقتَلِ دارين.

ضغط رقبتها بساعده بجِدَّة، حتى كادت تؤلمها، وبنظرةٍ صارمةٍ كنبرته:

- لم يقتلها أحد، هي مَنْ قتلت نفسها.

أراحت رأسها على صدره، فرمتهما إيناس بنظرةٍ ساخِطةٍ تجاهلها.

الجدار الرابع

"حين نَصِلُ خَطَّ النهاية لا أبواب خَلفِيَّة للهُروب، لا سُبُلَ خفِيَّة للفرار، إما المَوت وإما المَوت، لا خِيارَ ثالث"

- لين، لين، لين مُجددًا!

خبط مازن بغيظٍ على مكتبه، وعيناه تتفرَّسها كصيادٍ يتحيَّن لحظة الانقضاض على فريسته التي يراقب كل اختلاجةٍ منها، منذ يومين وهو يفكر في الذهاب إليها والحديث معها، وها هي تأتي إليه على طبقٍ من فضة.

رفعت طرف عينها نحوه لثانيةٍ دون أن تنبث بحرف، ثم أعادتها إلى حيث كانت تُحَدِّق إلى نقطةٍ مُحَدَّدةٍ في زاوية الغرفة خلف الباب المُغلَق. أنفاسها رغم تهدجها بَدَتْ ثابتة، أطرافها المضطربة متماسكة؛ ما أثار حفيظته. يجلس السيد نجيب بالكرسي المقابل لها هادئًا، ينقل عينيه بين كليهما، ليُلقي مازن بولَّاعته بحركةٍ سريعةٍ مُفاجئة فوق المكتب لم تهتز على إثرها قيد، أنملة بينما استَرعَت انتباه المحامي، وتساءل:

- أين كُنتِ مساء أمس؟

- غادرت المسرح في موعدي، قُربَ منتصف الليل.

- ومتى وصلتِ المنزل؟

- أعتقد أنني استهلكت ساعةً في الطريق، ربما أقل ربما أكثر.

- متى آخر مرةٍ رأيتِ فيها المجني عليها؟

ترَقَّبَت للحظةٍ صامتة، وعينها مُثَبَّتةٌ بذات الزاوية، اعتقد أنها تحاول التذكر، لكنها لم تكن تفعل، بل يحاول أن يتعامل عقلها بشَكلٍ صحيح مع جملة "المجني عليها"، لماذا تحسها بهذه الغرابة؟ والآن تحديدًا لا تعرف أي شعور يجب أن يبقى داخلها وأيها يتبخر، كثيرًا ما نتمنى أشياء، وحال حدوثها تُصيبُنا حالةٌ من عدم الفهم؛ لماذا الآن لسنا راضين تمامًا عن حدوثها؟ لماذا نشعر بعدم الارتياح لتحققها رغم أننا تمنيناها بعدد أنفاسنا؟ فجأة تُغَلِّفنا هالةٌ من البرود وبهوت المشاعر ورمادية الأفكار حول قناعتنا السابقة، بينما زادت ابتسامة القابعة في الزاوية تنظر إليها بتَشَفٍّ.

انتبهت على طقطقة أصابعه فوق الطاولة، وصوته يعيد السؤال، ابتلعت ريقها:

- منذ بضعة أيام أتت إلى المنزل.

- كيف كانت علاقتك بالمجني عليها السيدة إيناس؟

- لم نكن على وِفَاق.

- ليس هذا ما تعنينَه بالضبط.

تَدَخَّل نجيب مُحاوِلًا السيطرة على ما تقوله، ورماها بنظرةٍ مُستَنكِرَةٍ لم تكترث لها. سَلَّطَت عينها على مازن، وبنبرةٍ نافدة الصبر مُتَهَكِّمة:

- كيف تتوقع أن تكون علاقتي بعاهرة أبي؟

- هل كنتِ تكرهينها إلى هذا الحد يا لين؟

- ليس كُرهًا بهذا المعنى، هو مُجَرَّدُ خِلافٍ عائليّ.

حاول نجيب أن يسبقها، فهو يعلم أنها فتاةٌ متَهَوِّرةٌ في ردودها ولن تَنصاع له مهما كان موقفها مُتأزِّمًا، تلك الفتاة تكرهه، ولا تُداريها، لكنه لا يعلم السبب، لكن ما باليد حيلة؛ فلا يستطيع أن يرفض الدفاع عنها، فوالدها أحد أهم عُمَلائه، وأَصَرَّ على وجودِه، فلا يُصَدِّقُ أن ابنته قد تقتل زوجته، حتى وإن فعلت، وهو ما لا يستبعده نجيب مُطلقًا، والذي يراها منذ وفاةِ أختها فتاةً غير مُتَّزِنةٍ نفسيًّا، فالسيد مراد لن يسمح أن تضيع فتاته الوحيدة وآخر إرثه في الحياة، بعدما خَسِرَ دارين، والآن زوجته وهي حاملٌ بطِفلِه. استردَّته مُقاطعة مازن بابتسامته المتهكمة:

- خلافٌ عائلي!

رمت لين مازن بنظرةٍ غامِضةٍ لم يفهمها، ولم تُصَرِّح بشيء، قام من خلف مكتبه، استند إلى النافذة عاقِدًا ساعديه، وعينُه مُثَبَّتةٌ بعينها:

- هل لديك دليلٌ على أنك لم تقتليها؟

- وهل لديكَ دليلٌ على أنني فعلت؟

- أنتِ بالفعل حاولتِ قَتلَها في منزلك، وقد شهد ذلك البواب، وحتى صديقتك وأمك لم تستطيعا أن تنفيا الواقعة، حتى وإن حاولتا تبريرها، غير شهادة أصدقاء إيناس، الذين أقروا بكرهك الشديد لها.

أشاحت لين بوجهها إلى الزاوية وعادت للصمت، ليرُدَّ نجيب وعيناه تتوسَّلانها ألَّا تتكلم:

- مجرد شجار، لم يصل أبدًا حَدَّ اتهامٍ خطيرٍ بمحاولة القتل، ثم إن موكلتي لا تمتلك أيَّ دافِعٍ لقتل السيدة إيناس؟

ليستطرد مازن ويتقَدَّم بخطواتٍ مُتباطئةٍ خلف مكتبه مُجددًا:

- إيناس كانت حامِلًا في صبي، والذي كان سيأخذ النصيب الأكبر من ثروة السيد مراد؛ لذلك أعتقد أن موكلتك لديها الدافع، وأنها المستفيد الأول من موتها هي والطفل

يا سيد نجيب.

تبَسَّمت بسُخرية، فلم يجد نجيب بُدًّا من اللعب بورقته الرابحة، أخرج ذات التقرير الطبي عن حالتها النفسية غير المستقرة، لتُصَفِّقَ دارين القابعة في الزاوية بابتهاجٍ وتغمز لها بطرف عينها، ترميها بابتسامةٍ حانقة، فكانت تنتظر تلك اللحظة تحديدًا، وقبل أن يتفوَّه أحدٌ بحرف، انتفضت لين واقفةً فجأةً تصرخ باتجاه الزاوية:

- فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم!

ثم التفتت نحوهما بفورة انفعالها وخبطت بكلتا كفيها فوق المكتب بسخط:

- أتريدني أن أتحدث؟ ألِقه خارِجًا.

فغر نجيب عينيه ذهولًا وشحب وجهه، بينما تمَكَّنت الصدمة من ملامح مازن فأخرسته، ونظرتها المتحدية تصرخ قبل نبرتها المحتَدِمة:

- ألقه خارِجًا، وإلا، حَظًّا سعيدًا مع حَلِّ قضاياك.

طالت نظرَتُهما، ارتبك مازن ثم حَوَّل عينَه نحو نجيب بنظرةٍ ذاتِ معنى، فكاد الأخير أن يحتج، إلا إنه عدل عن ذلك في آخر ثانيةٍ وخرج لا يلوي على شيء، فلتذهب إلى الجحيم، إنها حقًا مجنونة مثلما أخبره ولده مِرَارًا وتكرارًا.

عادت إلى مجلسها تمسك ساعدي الكرسي بإحكام، تتلاحق أنفاسها التي تعدو لألف ميلٍ ذهابًا وإيابًا بين أفكارِها ومخاوِفها، وبين المُثبّتة عينها عليها متشبثةً بالزاوية وابتسامتها اللئيمة تحتلُّ شدقيها.

شُدِهَ مازن، الذي رمى نظرةً مُتفَحِّصةً نحو الزاوية الفارغة؛ هل كانت تُحادِثُهما أم تحادث الفراغ كما حدث في منزلها أول مرةٍ رآها؟ يبدو أنها حقًّا تُعاني خَطبًا ما. سحبته لين من تَخَبُّطِ أفكاره بصوتها المتهكم بامتعاضه، وقد بدا أنها ارتدَّت لسيرتها الأولى وتمَكَّن منها الهدوء في لحظات، فزادته دهشةً وتشوُّشًا:

- أتعتقدُ حقًّا أنني قتلتها لأنها ستلد صبيًّا يُشاركني بثروة أبي؟

- ولِمَ لا؟

رد بعد لحظةٍ جَدَّ خلالها للسيطرة على تَخَبُّطه. عقد ساعديه فوق المكتب، فانطلقت منها ضحكةٌ مستهزئة أثارت اضطرابه فأوتده، لتُلحِق:

- هذا صحيحٌ تمامًا في حالةٍ واحدة فقط...

صمتت ومالت فوق المكتب باتِّجاهه، اختفت ابتسامتها وتلَبَّسها جمودٌ مفاجئ:

– إن كان الطفل الذي تحمله أخي وله الحق في حمل اسم أبي ومُشاركتي بأي شيء.

اتَّسعت حدقتاه وفغر فاه، وارتفع حاجباه:

– ماذا؟

– لا أُنكرُ أنني أكره تلك العاهرة، ولن أُخفي هذا، ونعم، تشاجرتُ معها في منزلي، وربما إن لم يكونوا موجودين لكنت قتلتها، وربما حتى أن أكون قتلتها بعد ذلك كما تتوهم أنت، لكن الشيء المستحيل هو أنني خِفتُ من أخي المستقبلي أن يُقاسِمَني ميراثي؛ لأنه ببساطةٍ ليس أخي. وصِدقًا، أن أنتظر حتى تلد وأُجبرها على إجراء تحليل البصمة الوراثية وإثباتِ عُهرِها أمام الجميع، كان سيكون مُرضيًّا لي ألفَ مَرَّةٍ من قتلها وجَعلِها شهيدةً يا حضرة الضابط.

بدت له عيناها بنظراتها الخبيثة مُخِيفةً، وربما مخبولة، لكنها ليست كاذبة. حَكَّ جبهته بتوجُّس؛ "تلك الفتاة واحدةٌ من اثنتين؛ إما معتوهة كُلِّيًا، وإما...»، لم يُكمِل عقلُه، شَبَّك كفيه مع انحناءةٍ طفيفةٍ للأمام...

– ماتا كلاهما بذات الطريقة، مذبوحين من العنق مصلوبين داخل دائرةٍ شيطانية، واسم أختك مَنقوشٌ على الجُدران بدماء كليهما، وذات الجملة هناك: "الآن تبدأ اللعبة"، حتى إيناس، وجدنا خمسة اتصالاتٍ من هاتفها بِكِ في عصر يوم وفاتها، ورسالتين تم حذفهما من هاتفها، لكن حين تمَكَّنا من استرجاعهما كانتا مُرسَلَتين إليكِ بذات توقيت وفاتها، تتحدثان عن قتل دارين.

زفرت بفتور، ليُتبِعَ وعينه مُثَبَّتةٌ بعينها تبحث عن رَدِّ فِعلٍ بحَدِّ ذاته:

– ألا تجدين الأمر غريبًا بعض الشيء؟

زوت بين حاجبيها بنفاد صبرٍ وعدم فهم، وقد عادت عيناها نحو الزاوية. وقف غاضبًا واتَّجه نحوها:

– أنَّكِ آخر من يحاولون الوصول إليه قبل موتهم؟

– أنا الآن مُتَّهمة بقتل زياد أيضًا؟

– لماذا أنتِ؟

– اسألهما هما وليس أنا.

بادلته اهتياجه وصوته المُحتَدِّ الذي دَبَّ به الانفعال بأشد منه، ثم أشاحت بوجهها للزاوية مُجَدَّدًا تُطبِقُ على ساعدي الكرسي تكاد تهشمهما. جلس بالكرسي المقابل لها

يحُكُّ ذقنه مُتَصَنِّعًا التفكير العميق؛ عاد يفتح قَدَّاحَته ويُغلقها بفتور...

- أنتِ مُحِقَّة، لكن لا يمكنني أن أتحدث إلى الموتى.

التَفَتَت نحوه بوجهٍ مكظوم، تَعلَم ما الذي يرمي إليه. انحنى نحوها وثَبَّتَ عينه بعينها:

- يا ليتني أستطيع، لكن أعتقد أنكِ تستطيعين، أليس كذلك؟

تألَّق وجهها الجامد بمَكرٍ بَثَّ التوتُّر بقلبه، وشعر بغتةً بتيارٍ باردٍ يعبر جسده والغرفة، وهو الذي كان يتصبَّبُ عَرَقًا منذ لحظاتٍ بسبب الحَرِّ الشديد. رمته لين بنظرةٍ باردة، وشبح ابتسامةٍ مُمتَعِضة تشَكَّل على جانب فمها لدارين، التي تقف خلف كتفه تمامًا. أبقت لين على صمتها الذي يستفزه أكثر بضع لحظات، قبل أن تهمس بنبرةٍ باردةٍ أربكته

- احذر مما تتمنى؛ فأحيانًا تكون بعض أمنياتنا سبب هلاكنا.

أخذته رجفةٌ خفيفة سطت على أعماقه، فارتَدَّ إلى اعتداله، يُدَلِّكُ ساعديه بيديه لعلهما تمدانه ببعض الدِفء من هذه البرودة الغريبة. ابتعد عنها وسَحَبَ ملفًا من فوق المكتب يهرُبُ من عينيها، فبها شيءٌ أشعل فتيل توجسه. جاهد ليرتدي ثباته أمامها، وشَدَّ ورقةً من الوسط، حَكَّ بين عينيه وأتبع:

- فتاةٌ هادئة وديعة، انفصل والداكِ وأنتِ صغيرة، تعشقين عزف الموسيقى بجنون، حتى إنكِ من دفعتِ أختَكِ للالتحاق بمعهد الموسيقى. ومنذ أربع سنوات ماتت أختك في حادثة، دخلتِ مصحةً نفسيةً لأنك لم تستطيعي تقبل موتها، كنتما مُتشابهتين في كل شيءٍ من الخارج، رغم أنكما من الداخل كنتما على النقيض؛ أنتِ العاقلة المُتفوقة، وهي المتمردة الغاضبة. خَرَجتِ من المصحة بعد سنتين، لازَمتِ منزلك عِدَّة أشهر، ثم عُدتِ لممارسة الموسيقى، وعادت حياتك إلى هدوئها، حتى بضعة أسابيع خَلَتْ، حين اتَّصَل بكِ زياد ليُخبِرَكِ عن مقتل أختك.

تنهدت ترمي رأسها بين كفيها، تهتف من بينهما بصوتٍ مُتعَب:

- أنا لم أقتل أحدًا.

- ليلة وفاتها تعاطت دارين المخدرات في الحفل أليس كذلك؟

رفعت طرف عينها خلف كتفه بنظرةٍ حزينةٍ ودمعةٍ تحَجَّرت بين جفونها ولم ترد بشيء، فاعتبر صمتها علامة تأكيد، حَكَّ فَوْدَيه بغيظ:

– تعتقدين حَقًّا أنني قد أُصَدِّقُ هُراء أنك ترين الموتى وتتحدثين معهم؟

وقفت دارين خلف كتف أختها تهمس بأذنها بابتسامتها الخبيثة، فسحبت لين ورقةً وقَلمًا من فوق المكتب وكتبت شيئًا، ودفعتها نحوه بنبرة خائرة:

– أنتَ تريد دليلًا؟ سأُقَدِّم لك واحدًا.

أمسك بالورقة، كان رقم هاتف، لم يفهم شيئًا، تَنَهَّدَت بوهن وعيناها مُثبتتان بالزاوية لا يرى بها إلا الخواء.

"ما هذا الهراء!"، حنق عقله وهو يُلقي بالورقة فوق المكتب باستياء، تصرفات هذه الفتاة تكاد تذهب برُشدِه، فأمر بإرجاعها إلى الحجز؛ يحاول الضغط عليها بأية طريقةٍ لعَلَّها تُخبِره شيئًا ذا منفعة، يعلم أنه لا دليل واحد ضدها، غير أن لا دافع لديها لارتكاب جريمتي القتل، حتى إيناس، فالدافع واهٍ، خاصةً وإن صَدَقت بأمر الطفل؛ لم يعد يعرف أهي من قتلت أم لا، وإن كانت قتلت الثانية، فمن قتل الأول؟

لكن ليس لديه من شيءٍ يؤيِّدُ أو ينفي؛ لا شاهد واحد رآها تدخل أو تخرج من البناية التي تسكنها الضحية، لا بصمات، لا أثر، وتأكَّدَ من كاميرات المراقبة بدار الأوبرا من موعد مغادرتها، كذلك أكَّد زملاؤها في الفرقة أقوالها، ولا دليل ضدها في قضية قتل زياد، ولا دافع.

حَكَّ فَوْدَيه بسخط، يفتح قداحته ويُغلقها بصوتها الرَّتيب الذي يساعده على التفكير، حدسه يؤكد له أن قاتل زياد هو قاتل إيناس، لا شَكَّ في هذا. هل القاتل هو من يحاول تشتيته بأن يلقيها عظمةً في طريقه؟ أم إن لديه قاتلين والثاني يحاول تقليد الأول ليشتته ويبعده عن الحقيقة؟ لكن ما هو على يقين منه أن كُلَّ هذا مُرتَبِطٌ بقتل دارين، لكن ما الذي يربط الماضي بالحاضر، وأية لعبةٍ غبيةٍ رمته في تلك الدوامة السخيفة؟

تنَهَّد بنفاد صبر، إنَّ كُلَّ الطُرُق تغلق عليه داخل دائرة التشوُّش وعدم الوصول إلى خيطٍ يساعده. بعد دقيقتين من التفكير العميق زفر بسخط يسبُّها ويسبُّ نفسه وتلك القضية الغبية، سحب الورقة بغيظٍ وأمسك هاتفه واتَّصَل بالرقم.

قب
ل

منتصف نهارٍ شتويٍّ غائمٍ لا تكاد تكون عبرته شمسٌ أو طلت بسمائه سوى لحظاتٍ

معدودة، وتعصف رياحه الباردة بكُلِّ ما في طريقها، تتساءل دون اكتراثٍ لمعرفة الإجابة؛ فهي بالفعل تعرفها مُسبَقًا، لكنها تتلذَّذُ بأن تزيد من حنقها، تلوي شفتيها بامتعاض مُصطَنع:

- لماذا أنتِ غاضبةٌ إلى هذا الحد؟

- أتمزحين معي يا دارين؟ أخبَرتِني أن الحفل بمَطعَمٍ على أطراف مدينة الشيخ زايد، والآن أجد نفسي بالساحل الشمالي!

- أنتِ مُحِقَّة، لكن لو كنتُ أخبرتُكِ ما كُنتِ وافقتي على المجيء معي، فهل تتركين أختك وحدها وتعلمين أن أمي ما كانت لتوافق لولا أنني أخبرتها بمجيئك معي؟

رمتها بنظرةٍ مَشدوهةٍ تكادُ تتفجر اهتياجًا، والآن هذا ما كان ينقصها، أن تعتقد أمها بأنها ذهبت بإرادتها. جَزَّت لين أسنانها بغيظها المكظوم، لم تعد تستطع التحكم بغضبها أكثر، تشعر أن زمامها سيُفلِتُ بين لحظةٍ وأخرى، فمنذ عبرت أختها مدينة الشيخ زايد واعتدلت بالسيارة على الطريق الصحراوي حاولت جاهِدةً بكُلِّ الطُرُق إثناءها، إلا إن دارين لم تستمع، ولم تُقَلِّل من سرعتها حتى عبرت ما يكفي من الطريق وقد انهمر امتعاض لين بين ملامحها المستعرة استياءً، وتلَبَّسَها صمتٌ مُدَوٍّ باقي الطريق رغم كل محاولات الأُخرى لتحثها على الحديث. يسوؤها أنَّ أختها خَطَّطت للإيقاع بها في الفخ، فتعلم أن رفض أختها للأمر لا يقل عن رفض أمها، التي لم تكن لتقبل بسفر إحداهما ولا مبيتها خارج المنزل إلا إذا كانتا معًا.

وصلتا قُربَ المغيب، وما زال الجو في تقلبه والرياح تُصَفِّر في الأرجاء الخالية إلا قليلًا. جلست لين على كرسيٍّ بطرف البهو داخل الفيلا الصغيرة المُطِلَّة على البحر مُباشرةً، لم يُبالِ لها سامح، والذي كان أول الحضور مع زياد؛ فجميعهم يعرفون أنها لا تستلطف أحدًا منهم، ورغم التماثُلِ في الشبه بين كلتيهما، فإنه لم يكن من الصعب على أحدٍ التفريق بينهما حينما تبدآن بالحديث أو التَصَرُّف، فكلتاهما على طرف النقيض من الأخرى، فربما يجمعهما الشكل والجينات والدماء، ولكن يفرقهما كلُّ شيءٍ آخر قد وُجِد في الحياة؛ الطِباع والتفكير، والأسلوب، والشخصية.

وصلت إيناس وهشام مُتتابعين، أما رهف، صاحبة الحفل، كانت آخر الحاضرين، أطفأت شموعها في جوٍّ من البهجة والفرح المرسوم في الوجوه، بينما في الصدور كان هناك دوامات القلق وأعاصير التوتر يضرب كُلٌّ منهم على حِدَة، وكلما دقَّق أحدهم في وجه الآخر وأماط عنه طبقات الافتعال ولِثَامَ التصنع، رأى جليًّا انزعاجًا بين النظرات، اضطِرَابًا ينضح على جُدران الملامح، فقد كان أسبوعًا عاصفًا للجميع.

ففي صباح اليوم السابق اعترف زياد لدارين بعشقه لها، والذي كانت تعرفه وتحاول التَمَلُّصَ منه قدر استطاعتها للعامين السابقين، لكنَّه هذه المرة لم يترك لها مُتنفسًا للهروب، فما استطاعت إلا الرفض المباشر، ودون تفكيرٍ أو تَركِ سبيلٍ للعودة، وربما بطريقةٍ أثارت حفيظته، بعدما ذَكَّرَته بالفارق المادي والاجتماعي بينهما؛ ما أثار عواصف اهتياجه، وقد صرخ استياؤه بين نظراته المُتَحَفِّزة نحوها، والتي وعاها الجميع، خاصةً بعدما علموا بما حدث وتحوَّلَ لمَحَطِّ سخريتهم.

والوضع مشحونٌ بشَكلٍ لافت بين سامح وإيناس، التي لجأ إليها ليطلب منها اقتراض الأموال، ولكنها رفضت وأهانته بشَكلٍ مباشر، فلجأ إلى هشام، الذي لم يقبل وكذلك لم يرفض، ومثله فعلت رهف، بينما تشاجر مع دارين منذ يومين بعدما رفضت بشَكلٍ قاطع أن تُقرِضه؛ فهو لم يُسَدِّد ما سبق واقترضه منها، والذي كان مبلغًا كبيرًا، وقد هَدَّدَته إن لم يرده سوف تُبلِغُ الشرطة، وكان هذا كافيًا لجعله مُستاءً من الجميع.

بينما هشام يرمي دارين بنظراتٍ ممتعضة، فقد كان على خلافٍ مع رهف منذ ثلاثة أيام بسبب تصديقها لما أخبرتها به دارين عن خيانته لها مُجدَّدًا، فيكره غيرتها المُبالغ فيها، والتي يراها دون داعٍ وتخنقه، وتراها حُبًّا ونتيجةً طبيعيةً لهفواته المستمرة، هكذا تُسميها، فلا يمكنها أن تمنع نفسها عن الشك به بسبب تصرفاته، ما أوغر صدره ضد دارين، التي لطالما كانت عقبةً في طريقه للسيطرة على رهف، غير إنه كان يُكِنُّ لها كُرهًا من نوعٍ آخر، كُره عدم قدرته على امتلاكها، كُره عشقه لها، بعدما رفضته ورفضت حُبَّه، والذي لا يستطيع حتى هذه اللحظة التخلص منه؛ فدارين هي الفتاة الوحيدة التي أحَبَّها بصِدق، وهي كذلك الفتاة الوحيدة التي رفضته وألقت به على طول ذراعها دون اكتراث، وحينما لم يستطِع الحصول عليها وقع اختياره على رهف، فكانت الصيد الأنسب، فيعلم بعِشقها له، غير وضعها المادي والاجتماعي، وسهولة تحكمه بها؛ فهي صفقةٌ رابحةٌ في كل الأحوال، والأهمُّ أنها صديقة دارين المقربة، وحينها ستظل دارين داخل دائرة نفوذه.

أما دارين فكانت مُتَحَفِّزةً ضد إيناس بشَكلٍ خاص، وجميعهم بشكلٍ عام؛ فقد وردتها الكثير من الرسائل على مدار الأسبوعين الأخيرين من فاعل خيرٍ يخبرها

أن صديقتها تحاول الإيقاع بوالدها في شَرَكها للزواج منه، ما كانت بالفعل دارين باتت تشكُّ به منذ فترة، وما أثار حفيظتها ضد الجميع عِلْمُهم بما تُخَطِّط له صديقتهم، ولم يتدخَّل أحدٌ ليُوقف هذا، أو حتى لإخبارِها هي، كأنهم اعتبروا الأمر برُمَّته خارج نطاق اهتمامهم، ما اعتبرته هي موافقةً ضِمنيةً منهم على ما تفعله إيناس، ومنذ يومين تواجَهَت الفتاتان في معركةٍ حامية الوطيس، احتدمت بشدة إلى تبادُلِ الوعيد والتهديد الصريح بينهما.

هنا، وفي هذه اللحظة بالذات الجميع لديه شيءٌ يُوغِرُ صدره ضد الآخَر، وضِدَّ دارين تحديدًا، فتحوَّلَت الحفلة إلى بُغضٍ يغلي على نار الحقد، تُضمِره القلوب نحو بعضها بعضًا.

هتفت إيناس بمَرَحٍ مُفاجئٍ ونظرةٍ خبيثة:

- لديَّ لكم لعبة جديدة ستعجبكم جدًا.

تساءل زياد بانفعالٍ ظاهِرٍ يُحاول أن يُواري توتره:

- أية لعبةٍ تلك؟

غمزته بنظرةٍ تلتمعُ خبثًا وعينها تنتقل بينهم جميعًا:

- لعبة رأيتها في إحدى ألعاب الفيديو الأجنبية، لكنها حقًا شيءٌ مُختلف.

- لا أحبُّ ألعاب الفيديو.

- هذه سوف تُحِبُّها؛ فإنك تحب المغامرة، أليس كذلك؟ أعدكم، لن تندموا.

تبادلوا النظرات المتعجبة، ليتساءل هشام:

- وكيف يمكننا لعبها؟

- دعني أخبرك قواعد اللعبة.

- ألن تلعبي يا لين؟

هتفت إيناس بمَكرٍ فرَمَتها الأولى بنظرةٍ مُمتعضةٍ ولم ترد بشيء.

بعد ساعة وصل صاحب الرقم، دلف إلى مكتب الضابط، كان مُضطَرِبًا بعض الشيء. حين عَرَّفَ عن نفسه ابتسم مازن ببلاهة، أخذته المفاجأة للحظة يُحادِثُ نفسه: «إن كانت تريد لعب تلك اللعبة، لماذا أصَرَّت على طَرَدِ نجيب؟» للحق لم يكن يفهم شيئًا، أو بالأحرى ليست لديه القدرة ليستوعب ما الذي تحاول فعله.

أشار لضيفه ليجلس بالكرسي المجاور للمكتب وظهره مُواجِهٌ للباب، ودلف جمال، الذي جلس بالكرسي المقابل له، فازداد اضطرابه، وقبل أن يسأل عن شيء، بادره مازن بهدوءٍ فاتر:

- ما الذي تعرفه عن الآنسة لين مراد العلي؟

- لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

تبادل الضابطان نظراتٍ حيرى؛ إن كان لا يعرفها، فلماذا طلبته وتعتقد أنه دليلٌ بصالحها؟ ليعاود جمال سؤاله عنها وترديد اسمها مؤكِّدًا على كُلِّ حرفٍ فيه، ليحاول الضيفُ استدعاء غيث ذاكرته لعله يتذكر شيئًا يخصُّ الاسم، دون جدوى، ليعتدل مازن بجلسته:

- ألا تعرفها على الإطلاق؟

فأكد بعدم معرفته بالاسم، وازداد انزعاج مازن، وتبادل نظراتٍ مُغتاظةً مع جمال، الذي أربكه عدم الفهم. فرفع سماعة هاتفه وطلب إحضارَها، بعد دقائق معدودة من التوتُّر والقلق، وعدم الارتياح من جانب الضيف، والترقب ووضع كل الاحتمالات من الضابطين فُتِحَ الباب؛ أشار مازن خلف الضيف يتساءل بترقب:

- هل تعرف تلك الفتاة؟

فالتفت نحوها بنصفه العلوي، ليهب واقِفًا وقد فغر عينه بصدمة:

- حياة!

فصَلَبَت عينيها على الدكتور عاصم، وبصوتها المُتهدج الذي تُعافر لإيجاد ثباته:

- أنا حقًّا آسفة لإقحامك بهذا الأمر، لكن لا أحد غيرك يعرف الحقيقة ويمكنه مساعدتي.

فتساءل جمال المشدوه باهتمام:

- ألم تقل إنك لا تعرفها؟

- أنا لا أعرف تلك الـ «لين»، لكنني أعرف حياة، فقد تقابلنا مرةً واحدة سابقًا، فقد أتت إليَّ...

ثم استدرك فصمت، حينها أخلى لها جمال الكرسي المقابل لعاصم فجلست، وجلس هو إلى الأريكة المجاورة لها، وعاود الجميع جلوسه، فأمعنت النظر به:

- أخبرهم كُلَّ شيءٍ عن لقائنا السابق.

فغر عاصم عينيه استغرابًا، ليزداد الرجاء بعينها قبل صوتها:

- أرجوك، أخبرهم كُلَّ شيء؛ منذ دخلتُ إلى مكتبك وحتى خرجتَ تركُضُ خلفي.

فأسند ظهره إلى الكرسي يمسح عن وجهه بانفعالٍ بدأ يركض بين أنفاسه المُتعالية، التفت نحو مازن أمَلًا في السيطرة على تَهَدُّجِه؛ فظهورها من جديد في حياته أربكه وخسف بثباته.

- منذ عامين أتت الآنسة إلى عيادتي، و...

صمت لحظةً يمسح على وجهه، ازدرد ريقه، فحَثَّه جمال المُتلهف:

- و؟

- كانت تحمل لي رسالةً من خطيبتي السابقة.

- عن أيِّ شيءٍ الرسالة؟

- شيء شخصي.

واصل النظر إليها، تدفعه بنظراتها لاستكمال الحديث، لكن سبقه صوت مازن الغاضب ينتفض واقِفًا يخبط المكتب بكفه يوجه انفعاله نحوها:

- ما الذي تحاولين فعله؟ رفضتِ أن يلَوِّحَ مُحاميك بتقريرك النفسي، أو أن أستدعي طبيبك، والآن تأتين لي بطبيبٍ نفسيٍّ لا يعرف عنك شيئًا!

- ألا تريد الحقيقة؟

- أية حقيقة؟ وما علاقة رسالةٍ شخصيةٍ من خطيبته بقَتلِ إيناس وزياد، وقتل دارين من قبلهما؟

- وهل تتهمني الآن بقتل أختي؟

- قتل!

انتفض عاصم في مجلسه بدهشة، ليركض سخطها بصوتها المُهتاج:

- أنا لم أقتل أحدًا.

- كلُّ شيءٍ ضدك.

- إذن فأنا قتلتُ خطيبته كذلك؟

- ماذا؟!

ذهل مازن في موقفه، بينما ازدادت حيرة عاصم، ليتساءل جمال بتشوُّش:

- هل قُتِلَت خطيبتك؟

انتفض بنبرةٍ تزدادُ تعَجُّبًا:

- كَلَّا!

- أخبرهم متى ماتت وكيف؟ قبل أن أزورك بعامين، أليس كذلك؟ وهل كنتُ أعرفك أو أعرفها؟ أو أعرف أيَّ شيءٍ عما كُتِبَ في الرسالة؟

قاطعته حانقة، استطرد عاصم بحيرة:

- أقسم إن هذ الخط لكاميليا، وما تحَدَّثت عنه بالخطاب جزءٌ منه حَدَثَ ليلة وفاتها ولم يعلمه غيري وهي، والآنسة لم تكن معنا لتعرفه. والجزء الآخر حدث قبل أن تأتيني بالخطاب بيومين فقط، وأيضًا شيءٌ خاص؛ لا يمكن للآنسة أن تعرفه.

- هل تريد إخباري أن خطيبتك التي ماتت منذ أربعة أعوام أرسلت لك خطابًا تخبرك فيه عن شيءٍ حدث بعد عامين من موتها؟

تساءل جمال ببلاهة، فمسح عاصم بين عينيه، فمثلهما لا يعرف كيف يكون هذا، لينظر كلاهما نحو لين، ويكمل عاصم بتلجلج:

- هذا كل ما أرغب بمعرفته، كيف لها أن تفعل هذا؟

ليتبادل الضابطان نظراتِ عدم التصديق، انتفضت بسُخطِها المحتدم واقفةً تنظر لمازن بتحدٍّ:

- نعم، هذا الذي تُنكِره عيناك تمامًا ما أعنيه، حَمَلتُ له رسالةً من خطيبته الميتة، لأنني أتحدَّثُ إلى الموتى. لماذا حاول زياد وإيناس الوصول إليَّ قبل موتهما؟ لا أعرف، ولا أكترث، لكنني لم أقتل أحدًا، ولا أكترث أن تُصَدِّقَ أيَّ شيءٍ مما أقول، لكن أن تتوَهَّم أنني قتلت أختي، حينها فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

تعلق الصمت بالشفاه للحظة، وتعلقت عين عاصم المضطربة بلين، بالنهاية لم تكن شبحًا على الأقل. انفلتت أعصابها مع كل نَفَسٍ يخرج منها، فلم تعد تستطيع التحكم بهدوئها وذاك البركان المتقد بداخلها، ثم صرخت فجأةً ونظَرُها مُعَلَّقٌ خلف كتف مازن:

– اصمتي يا غبية! من اللحظة التي عُدتِ بها للظهور في حياتي وأنتِ تُوقِعين بالمشكلات، ما الذي يعنيني أنا في أنَّ والدته ماتت دون أن يراها وهي غاضبةٌ منه لأنه سافر دون موافقتها؟

فغر مازن عينه فزعًا يتراجع للخلف بعيدًا عن النقطة المُسلطة عينيها عليها، وقلبه يكاد يُغادر ضلوعه من هول صدمته مما تفوَّهت به، فكيف لها أن تعلم عن غضب أمه ووفاتها وهي غير راضيةٍ عنه؟ ارتجَّت درفتا النافذة فجأة وارتعش الضوء في المصباح المُعَلَّق في السقف، فارتدَّ جميعُهم خطواتٍ للخلف، لتزداد صرخاتُ لين المتلاحقة:

– فقط دعيني وشأني!

ثم سقطت مغشيًّا عليها، ليتلَقَّفَها عاصم بين يديه وسط حالةٍ من الذهول التي أخرست ثلاثتهم.

رغم أنه الصيف والحر خانق، فإن فتاتها كانت ترتعش بشدة؛ فدَثَّرتها ناهد بالأغطية، ووقفت تنظر إليها لا تكاد تصدق أنه تم الإفراج عنها، تشعر بغصةٍ تعتصر قلبها كلما تذكرت أنها كادت تفقدها، تتأمل جسدها الذي عاوده الهُزال، وجهها الذي انطفأ من جديدٍ وشحب لونه؛ وضع ابنتها الصحي والنفسي بات مُترديًا، تشعر أن الزمن عاد بها أربعة أعوام إلى الوراء، حين كادت تفقد كلتيهما في الحادثة، اعتقدت أن هذه الفترة العصيبة قد ذهبت ولن تعود، والآن عاد الخوف يدق قلاع قلبها الواهية، فترى سوء حالة ابنتها يحطمها، لقد عانت الكثير، وما زالت.

تنهدت بحسرةٍ تمسح دموعها التي أغرقت وجهها حينما سمعت صوت لين الواهن المبتسم:

– أنا بخيرٍ يا أمي، لا تقلقي.

ابتسمت وانحنت تُرَبِّتُ على خدها وتقبلها بحنان، بعد قليلٍ أحضرت لها الطعام في السرير، لكنَّ لين أصَرَّت على تناوله معها على طاولة الطعام لتُثبِتَ أنها بخير حتى وإن لم تكن، فكل ما تريده الآن طمأنة أمها وإشعارها أنها بخير. وضعت وِشاحًا على كتفيها يُدفئها، فلا تعرف ما سر ارتجافها منذ انهارت في مكتب الضابط، أخذت تتلاعب بملعقتها في الطبق حين تبدَّدَ صوتُ أفكارها وسط دقات جرس الباب. انتفضت ناهد في مجلسها، فالوقت أصبح مُتأخرًا ودقات الباب في هذا الوقت هذه الأيام لا تُبَشِّرُ بأي خير.

لثانيةٍ تبادلتا نظراتٍ مُضطَربة، ثم نهضت لفتح الباب وقدمها تتباطأ، كاد قلبُها يقف وهي تُدير قفل الباب، حتى تنَفَّست الصعداء حينما وجدت طليقها من يقف أمامها، رغم أن اليأس والألم يغشيان وجهه، لكنه تظاهر بالتماسك وابتسم لها.

حين رأته لين أمامها توَتَّر كل جُزءٍ فيها أكثر، رجفةٌ خاطفة انتشرت بين أوردتها، انتفضت واقفةً وأسرعت نحو غرفتها، ناداها فلم تتوقف، وعَجَّلت الخطى إلى الداخل؛ فاتخذ قراره بأنَّ عليه المواجهة، فكعادتها لن تعطيه فرصةً للتحدث معها، ولم يعد يمكنه أن يترك الحال بينهما هكذا. ظلت ناهد على مُفاجأتها مما حدث؛ لم تعرف أتتبعه لغرفة ابنتهما أم تبقى، وبالنهاية حسمت أمرها بالانتظار.

دخل غرفتها، انتفضت حين وجدته أمامها، أعطته ظهرها، وبنبرةٍ رغم توترها كانت حادة:

- لا يصِحُّ أن تفتح الباب دون استئذان.

- أعلم أني لو فعلت لن تتركي لي مجالًا لنتحدث.

- من الجيد أنك تعلم أنني لا أريد التحدث.

- يا لين أرجوكِ أنا...

- أنت هنا لتسألني إن كنت قتلت عاهرتك أم لا يا سيد مراد.

- أعلم أنَّكِ لم تفعلي.

- أقسم لك إنني أتمنى لو فعلت، وأندم أنني لم أفعل.

- لين، أرجوكِ...

- أرجوك أنت غادر.

قاطعته بامتعاضٍ تكاد تكسر أناملها من غضبها المكظوم، وارتسم الوجع أضعافًا على وجهه.

- أعرف أنك غاضبةٌ لأنني وضعتك في المصحة، كنت أفعل ذلك لأجلك، كل ما فعلته كان لحمايتك، لأني والدك وأخافُ عليكِ.

استدارت نحوه بوجهٍ مُلتَهِبٍ من الذهول، ونظرةٍ ألجمت الحروف بفمه وقد تحرَّر وحشها:

– غاضبة! أتعتقد أن هذا شعوري نحو ما فعلته بي؟ طفلة غاضبة؟ أنت ألقيتَ بي داخل مصحةٍ نفسيةٍ واتهمتني بالجنون!

– أنتِ كُنتِ تهذين.

– وإن فعلت، لا يحق لك أن تفعل بي هذا، أخبرتك أنني أرى أختي وأتحدث إليها، وأنت ماذا فعلت عِوَضًا عن أن تأخذني بين ذراعيك تُرَبِّتُ عليَّ؟ تُهوِّن على قلبي فراق أختي الوحيدة؟ ألقيتَ بي داخل مصحة، توسَّلتُ إليك أن تُخرِجَني، قَبَّلتُ قدميك، وأنت ماذا فعلت؟ تركتني لهم.

تكاد الدموع تُخفي ملامحه، بينما وحشها الضاري يركض نحوه يريد افتراسه:

– لم تكن ابنتك أتَمَّت شهرين في التراب، والأخرى في مصحةٍ نفسية، وأنت في أحضان عاهرتك.

– أنا...

– أنت تخليت عني لأجل عاهرة.

– أنا آسف.

– آسف؟ حقًّا؟ هل وجعي لسنين يجب أن ينتهي بين ثلاثة حروف؟ حَبسي والتعذيب النفسي والجسدي الذي انتهكني لا بُدَّ أنه تبخر الآن بعد كلمة آسف. تُدَمِّرُ حياتي بأفعالك وتأتي الآن لتقول لي آسف؟ هل ستُعِيدُ لي ثقتي بنفسي أو بك؟ هل ستمحو ألمي؟ هل كلمة آسف كافية لمحو معاناتي جَرَّاء ما فعلته بي؟ هل ستعيد بناء ما هدمته داخلي؟

كاد صراخها يصل حافة السماء، هوت إلى طرف السرير وغَمَرَ المكان صمتٌ مؤلم. ظَلَّت لحظاتٍ على وضعها وهو يتأمَّلُها، اعتقد للحظةٍ أن شبح ابتسامةٍ ساخرةٍ انكسر على طرف فمها، ما أثار دهشته، إن هذه الابتسامة لم تتجَرَّأ على إفساد لوحة معاناتها المتجسدة على وجهها وجسدها الذي ما زال ينتفض من الغضب حتى، وذراعيها المُلتَفَّة حوله تضمُّه لعله يهدأ. تمَنَّى لو أنه من يضمُّها الآن، لكنه لم يجرؤ على التزحزح من موضعه.

تساءل؛ كيف آل الحال بينهما إلى ما هو عليه؟ أم كيف جَرَفه التيار نحو إيناس؟ ومتى؟ طوال الليلة الماضية، ومنذ عرف بخبر مقتلها وهو يحاول التذكر دون جدوى، متى اتَّسَعت هذه الفجوة بينه وبين ابنته إلى هذا الحد؟ أم إنها كانت كذلك من البداية وهو من تَعَمَّد عدم الرؤية؟ اختار الحَلَّ الأسهل لتجاهل وضعه المزري؛ الأب المتصابي

الذي سقط في شَرَكِ صديقة ابنته، أم إنه ببساطةٍ كان يريد السقوط؟ تَنَهَّدَ بانهزام، كيف استطاع فعل هذا بابنته في الوقت المؤلم الذي كانت تمرُّ به؟ حتى إن كان زواجه من إيناس ليهرب من ألمه لفقد إحدى بنتيه، كيف لم يفكر بالجرح الغائر الذي يسببه للأخرى؟ وقفت وتقدَّمت نحو الباب، فتحته وأشارت له بالخروج، تهَدَّلت أكتافه وهو ينظر نحوها بيأس، وحين باتا مُتقابلين أمام الباب:

- أنا أيضًا آسفه، لا أستطيع.

عندما عبر عتبة الباب همست من خلفه:

- لا تَعُد مجددًا... لا أريدك.

بعد أسبوعٍ كامل، داخل المبنى الهادئ وجدرانه الساكنة رغم صخب ما يدور بين أرجائها، وفوق مسرح دار الأوبرا الخالي من سكانه المُزدَحِم بمشاعرها الغارقة في بحر العزف، لا تكاد جدرانه الراسخة تحتمل بركان انفعالها واهتياج روحها المتزايد، مُغمضةً عينيها قابضةً بيَدٍ على القوس وبالأخرى على رقبة الكمان، تنتفض كل ذَرَّةٍ داخلها مع الأوتار تحت أناملها، تتلاحق أنفاسها خلف تهدج نبضاتها مع كل وتَرٍ تضرب عليه بيدٍ غريقٍ يسبح نحو شاطئ نجاته، كلما أطلقت القوس فوق الأوتار تشعر بأن عبئًا ينطلق معه يحرر روحها المُكَبَّلة بتلال الألم.

العرق يُغرقها وتتقَطَّع أنفاسها اللاهثة خلف نبضاتها من فرط اهتياجها، توقفت يدها مع انتهاء اللحن، فتحت عينيها بغتةً على صوت تصفيقٍ يرنُّ داخل المسرح الخالي!

ابتسمت لين بعفوية حين التقت نظراتها بنظرات عاصم، الذي يقف بآخر صف. خطواته تتقدَّم مع انخفاض تصفيقه، وابتسامةٌ رزينة ترتسم على وجهه، حتى بات يقف أمامها وقد وضع كلتا يديه بجيبيه:

- لم أتوقع أن تكوني جيدةً إلى هذا الحد يا آنسة حياة، أم أقول آنسة لين؟

زادت ابتسامتها، أمسكت القوس والكمان بيدٍ وبالأخرى تُرسِلُ خصلات شعرها للخلف، صعد المسرح، وقف مُقابلها:

- أعتقد أنني أستحق توضيحًا بعد كل ما حدث؟

- ربما يمكنك أن تدعوني لنحتسي فنجانًا من القهوة في المقهى المجاور.

وافق بابتسامته المعهودة، وضعت الكمان في حقيبته، ووضعتها فوق كتفها وتقدمته خارجًا.

جلسا في المقهى على طاولتها المفضلة، تفَرَّسها بضع لحظات، تغيَّرت عن المرة السابقة؛ بدت أكثر تماسكًا، شحوبها انجلى، كُلُّ شيءٍ بها مُختلفٌ للأفضل على ما يعتقد، رغم تشَتُّتِ عينيها الذي لم يُفارق مخيلته لعامين، فإنها بدت الآن بخير.

اعتدل بجلسته واستهَلَّ حديثه:

- ظَللتُ للعامين الماضيين أُفَتِّشُ عَنكِ في كل مكان.

صمت هُنيهةً قصيرة، تطلعت عيناه نحو السماء الصافية، والشمس دنت نحو المغيب، ثم أعادهما نحوها، تنهد وأنامله تُلامِسُ حافَة الفنجان أمامه:

- أحيانا كنت أعتقد أنني أتوهم، أننا لم نتقابل وكل هذا من صُنعِ خيالي، لكن حين أتحَسَّسُ الخطاب أعاود الشك في كونك حقيقة، وفي تلك اللحظة التي تمَلَّك اليأس بها مني ومن إمكانية العثور عليك، أو حتى معرفة أكُنتِ حقيقةً أم سرابًا، تأتينني من حيث لم أتخيل أو يخطر ببالي.

ندت عن فمه ابتسامة مُرهَقَة، يعقد ساعديه فوق الطاولة، وبنبرة دهشة:

- مُتهمة بجريمة قتل؟!

- اثنتين على ما أعتقد، وربما ثلاثة إن احتسبنا قتل دارين.

تبَسَّمَت بتَهَكُّمٍ مُوجِع، ومثله عقدت ساعديها فوق الطاولة بنبرةٍ مُنهَكَة:

- مرحبًا بك في عالمي.

تحفزت جلسته وانتصبت أكتافه، وأصبحت معالم وجهه أكثر جدية:

- أنا أستمع.

- من أين تريدني أن أبدأ؟

- من البداية.

ابتسمت، فهذه المرة لا يلعب دور الطبيب النفسي، بل تلَبَّسَ دور المحقق الذي يسعى خلف الحقيقة أيًّا كانت ماهيتها، والحقيقة الوحيدة المؤكدة لها أن الحقيقة بحد ذاتها تختلف حسب زاوية وقوفك، ومدى تأثيرها على قراراتك وحياتك. ارتشفت قليلًا من قهوتها، تنَهَّدَت بنبرةٍ خاليةٍ من أي انفعال:

– لنقل إن الحادثة هي البداية التي أعرفها؛ كانت ليلةً شتوية، وكان عيد ميلاد صديقة دارين المُقَرَّبة، رهف، وأرادوا إقامة شيءٍ خارِجٍ عن المألوف، فاختاروا الساحل الشمالي، فيلا تخصُّ والِدَ هشام، خطيب رهف. في البداية لم تخبرني دارين أننا سوف نسافر؛ قالت إن الحفل على أطراف مدينة القاهرة، كانت تعلم أنني سوف أرفض مُرافَقَتها، حتى وجدت نفسي في الساحل الشمالي.

صمتت، ابتلعت ريقها، رشفت بعض الماء، مسحت بين عينيها:

– في طريق عودتنا كانت هي التي تقود السيارة بسرعةٍ شديدة، وكان المطر غزيرًا والطريق مُنزَلِقًا. حاولتُ إخبارها أن تتوقف أو تهدئ قليلًا من السرعة، لكنها لم تكن تسمعني، وفي لحظةٍ ما لم تستطع السيطرة على أي شيء؛ فانقلبت السيارة، وأظلم كُلُّ شيء، ولم أعِ بعدها إلا في المَشفَى.

تنفست بصعوبة، فركت جبهتها، نظمت أنفاسها، ارتشفت من قهوتها، عادت تسند يديها إلى الطاولة تمسح بين عينيها:

– كُنَّا في غرفة عملياتٍ واحدة، في البداية أنا التي ماتت، توقَّف قلبي اثنتي عشرة دقيقةً كاملة، وأعلنوا وفاتي، وأخبروا والديَّ برحيلي، وكانت هي ما زالت تتشَبَّث بالحياة، ثم في لحظة تغيَّرَ كُلُّ شيء.

التمعت عيناها بدموع حبستها:

– وإلى الأبد.

غمر ملامحه الاندهاش، وأغرقتها ابتسامة مريرة:

– في اللحظة التي توقفت هي عن الصمود، وكفت أنفاسها عن التشبث بالحياة وغادرتها عُدتُ أنا؛ بادلنا الموت، قايضنا روحًا مُقابِلَ أخرى.

نظرت نحوه وغمامةٌ من الألم تُحَلِّقُ فوقَ وجهها التعيس:

– مُقايضات القدر غير عادلة، لكن داخل لعبته ليس لنا حق الاختيار، لو كان لي الحق لاخترت المقايضة الأولى.

ازدردت ريقها، تمالكت انفعالها وتهَدَّجَ نبضها، مسحت دمعةً فارَّةً على خدها:

– بعد أن أَفَقْتُ من غيبوبةٍ دامت واحدًا وعشرين يومًا تغيرت حياتي إلى الأبد، أخبروني برحيل أختي الوحيدة وتوأمي، التي لم تنفصل عني للحظة طوال سنوات عمري، كان الجميع يتحدث عن معجزة عودتي من الموت في نفس لحظة رحيلها.

حاولتُ إخبارهم أنهم يكذبون، وأنها لم ترحل؛ لأنها ببساطة تجلس بجوار سريري وتُمسِكُ بيدي وتبتسم لي بمرح، لكن لم يصدقني أحد، أقسمت لهم كثيرًا إنها هنا، تجلس بجواري، لكن...

– لذلك أودَعوكِ المصحة النفسية؟

هَزَّت رأسها تأكيدًا وكَفُّها تمسح دموعها:

– ابن محامي والدي طبيبٌ نفسي، أخبره أنني أعاني إنكار ما بعد الصدمة، وهلاوس سمعية وبصرية، وأنه لو تركني سوف تسوء حالتي؛ فأودعني المصحة. لعامين تحولت حياتي إلى جحيم، لم أعد أعرف أين الوهم وأين الحقيقة، كل الأشياء اختلطت أمامي، ذلك الذي كان يحدث لي بالداخل، تلك الأدوية والجلسات كانت تحطمني، تقضي عليَّ لكنها لم تغير شيئًا من الذي كنت أراه، لم تجعلهم يرحلون، لم يختفوا.

ارتعاشة سيطرت عليها، ظهرت جليةً في اهتزاز الفنجان الذي أعادته إلى موضعه، لتُغَيِّرَ مجرى الحديث:

– حتى قابلت كاميليا.

اتسعت حدقتاه قليلًا وتخَبَّطَت أنفاسه، لتُسنِدَ ظهرها للخلف:

– في ليلةٍ بعد إحدى جلساتي رأيتها تجلس على حافَة النافذة، تبتسمُ لي بسُخرية وتخبرني أنني أكبر حمقاء، وأنني أُفَضِّلُ التعذيب على الخروج. في البداية اعتقدتُ أنني أهذي من تأثير الجلسة كالعادة، لكنها جاءتني في الليلة التالية، فسألتها كيف أخرج من هذا المكان، فأخبرتني أننا سوف نعقد صفقة؛ أن تخبرني كيف أخرج مقابل شَرطٍ واحد، فوافقتُ دون تفكير.

– تبدو فِعلًا ككاميليا التي أعرفها، كانت لها الحياة صفقة، لُعبةً لا يهم أن تخسر أو تربح، المهم أن تستمتع باللعبة ما دام في استطاعتك أن تلعب، ما دُمتَ تتنفس فعليك أن تُعافر حتى تصل خط النهاية. لكن كيف خرجتِ؟

زوى بين حاجبيه تساؤلًا، لتجيبه بذات النظرة الساخرة:

– أخبرتهم ما يريدون سماعه، أنني لم أعد أرى شيئًا، وأنها أوهام وهلاوس، إنكار ما بعد الصدمة، لم أستطع تقَبُّلَ فقدان أختي فخُيِّلَ لي أنها لم ترحل.

اعتلت ملامحه دهشة فابتسمت بأسى:

– وضعوني تحت الملاحظة عدة أسابيع لاحقة، وكنت أسير على خطة كاميليا حرفيًّا، وبالنهاية أطلقوا سراحي.

ابتسم باستهزاءٍ من نفسه؛ كيف لم يُخَمِّن؟ فذات الخدعة اتبعتها كاميليا معه سابقًا. زادت عيناها التماعًا بالدموع المحبوسة بقعرها، ونبرتها تشي باختناقها بها:

– الحل كان بسيطًا، وكان هناك طوال الوقت، لكننا في أوقات الضعف والانهيار لا نرى أبسط الحقائق وأكثرها وضوحًا، لأننا نكون مُشوشين، رؤيتنا غائمة، هم أرادوا حقيقتهم وأنا أردت حقيقتي، فما كان من أحدٍ غيري تحمل العواقب. كثيرًا ما يتحتَّمُ عليك أن تُعطي الآخرين ما يريدونه، ما يمكنهم تقبله واحتماله وإن كان كاذبًا، لأنهم لن يقبلوا بحقيقتك وإن كانت هي الحقيقة، لا يهم، نحن البشر نحب الكذب ونفضله لأننا لا نتقبل ما يخرج عن المنطق الذي نعرفه.

أرسلت خصلاتها إلى الخلف، تتنفس بتروٍّ لعلها تُسيطر على انفعالها، ابتسمت بتهكم مُتألمة:

– أتَعرفُ ما المضحك في كل هذا؟

ظل على صمته؛ فليس لديه ما يقوله أمام لوحة الألم المتجسدة على وجهها، لتزفر بتعب:

– أننا من وضعنا هذا المنطق، نحن من نقول هذه حقيقة وهذه كذبة، هذا معقول الحدوث وهذا جنون، أليست مُفَارَقة مُضحِكة؟

ابتسم بخيبةٍ هَوَتْ على كتفيه المُتَهَدِّلَتين، مسح على وجهه وشبك أنامله، ابتسم فجأةً يُحاول تغيير الحديث:

– لم تُخبِريني، ما الشرط الذي وافقتِ عليه لتُساعِدَكِ كاميليا؟

– أن آتي إليك وأُسلمك الخطاب.

تنَهَّدَ بأسى، ونسجت الحيرة خيوطها بصفحة وجهه:

– أين التقيتما؟

– مصحة الأمل.

– الآن فهمت، إنها ذات المصحة التي ماتت بها كاميليا.

– تقصد انتحرت.

أَقَرَّ مُتألِّمًا، ازدرد ريقه وظهر تَرَدُّدُه جليًّا بين اضطراب أنفاسه، تبَسَّم داخلها؛ كانت تعرف أن السؤال آتٍ لا محالة، وقد أكد ظنها حين أطلقه:

– هل ما زالت تزورك؟

– نعم.

– في مكتب الضابط؟

– كلا، كانت دارين.

– هل يمكنني...

– كلا، الأمور لا تسير هكذا.

قاطعته باضطراب، مسحت بين عينيها بإنهاكٍ ونبرة عَجْز:

– لا أراهم حين أريد، لا أتصل بهم فيجيبون، يأتون متى أرادوا وكيفما أرادوا وأينما شاءوا، وكذلك يرحلون.

هَزَّ رأسه تفهمًا، سكنتها نظرة ضيقٍ لأجله، وبصوتٍ متهدج:

– آسفة.

ابتسم بمَرَحٍ مُفاجئٍ أشرقت على إثره تقاسيم وجهه:

– لا عليكِ. بالحق، أنتِ لم تحدثيني عن الذي حدث بالحفل يوم الحادثة؟ وما الذي تعنيه جملة "الآن تبدأ اللعبة"؟

اكتسى وجهها بدهشةٍ وعدم فَهم؛ كيف له أن يعرف؟ ليبتسم بتوتر:

– لقد استدعاني الضابط منذ يومين وأخبرني ببعض الأشياء، في محاولةٍ لفهم عقلية القاتل أو الوصول لأي شيءٍ يساعده في القضية، خاصَّةً أنه لا يُصدق أن شبحًا هو من يقتلهم.

لاحت عليها ابتسامةٌ لم يفهم معناها، لكنه لمح ارتجاف يدها، تبَدُّلَ ملامحها المفاجئ، عاد تشتت عينيها، أمسكت هاتفها وانتفضت واقفةً تحاول تَصَنُّعَ ابتسامةٍ ماتت على طرف خدها:

– هل يمكننا المغادرة؟ فلقد تأخر الوقت!

– لا مشكلة.

لم يُعَلِّق بكلمةٍ أخرى، وضع الحساب فوق الطاولة وغادر خلفها يفكر بكل ما قصته عليه، غارقًا بما لم تقصصه. اعتقد بإيجادها أن لغز ظهورها الغريب والمُحير بحياته منذ عامين حُلَّ، تبًّا، لماذا يشعر هذه اللحظة أنه للتو بدأ وتَأَزَّم؟

الجدار الخامس

“لا تَستَهِن أن ترمي حَجَرًا صَغِيرًا في بُحيرةٍ راكِدَة، لربما أحدَثَتْ دوَّامةً وخَرَجْتَ بصيدٍ ثمين”

في الصباح التالي طرق الباب مرتين، وحينما فتحه هشام أصابته دهشةٌ ارتسمت على تقاسيمه الجامدة، إلا إن ضيفه تجاهل ردة فعله وتقدم للداخل دون اكتراث. بعد دقيقةٍ كاملة من صدمته استعاده صوت ضيفه، الذي كان بالفعل بات يقف بمنتصف قاعة الاستقبال ينقل عينيه في المكان ويتساءل:

- تسكن وحدك، أليس كذلك؟

انتبه واستدار للداخل، أغلق الباب، أومأ إيجابًا، بينما ضيفه اتخذ مجلسه إلى أحد الكراسي واستراح في جلسته ووضع ساقًا فوق الأخرى. جلس هشام بالكرسي المجاور له بابتسامةٍ واثقةٍ يحاول تخطي المفاجأة، عبق نظره للحظةٍ بالقَدَّاحة في يد ضيفه، الذي راح يفتحها ويُغلِقُها كعادته، ليتساءل:

- كيف يمكنني أن أخدمك يا حضرة الضابط؟

رفع مازن عينيه نحوه بابتسامةٍ باردة، وقال بعد هُنيهة صمت:

- أردتُ أن نتحَدَّث قليلًا في بعض الأمور عن القضية.

- أيَّة أمورٍ تحديدًا؟ لقد قُلتُ كُلَّ ما أعرفه في التحقيق.

- أيِّ تحقيق؟

- مقتل السيدة إيناس.

- وهل ذكرتُ السيدة إيناس؟

- أنت قُلتَ تريدُ التحدث عن القضية!

أجاب هشام بدهشة، وقف مازن وعينه تجول في المكان، يتلاعب بقداحته بين أصابعه:

- للحق لدينا هنا ثلاث قضايا؛ قضية قتل السيد زياد، والآن السيدة إيناس، لكنَّ لدينا القضية الأهم...

صمت والتفت نحو هشام، الذي أبدى عدم فهم، ليُثَبِّتَ مازن نظره عليه:

- قتل دارين.

باغتته رعشةٌ خفيةٌ واراها بابتسامةٍ مُتَكَلَّفة، أخذ عِدَّة ثوانٍ حتى عثر فيها على نبرته الواثقة:

- لكن دارين لم تُقتَل، لقد كان حادثًا.

ابتسم مازن وعاد إلى جلسته الأولى وتساءل باهتمام:

- اقصص عليَّ كل ما حدث تلك الليلة؟

- لا شيء ذا أهمية، كان عيد مولد خطيبتي رهف، وكالمعتاد؛ أقمنا لها حفلًا مميزًا، رقصنا وتسلينا وتسامرنا، ثم قررت دارين الرحيل فجأة، كان الجو سيئًا ومُمطِرًا، فحاولنا إقناعها بالمبيت، لكنها لم تستمع لأحد ورحلت هي وأختها لين، ثم أخبرونا بعد ساعتين تقريبًا عن الحادث. وحين وصلنا إلى المَشفى كانت قد ماتت، هذا كل شيء.

- بماذا تحديدًا تسَلَّيتُم، أية لعبةٍ لَعِبتُم؟

وصله المغزى من خلف السؤال ونبرة الضابط وهو يضغط كل حَرفٍ بكلمة لعبة، لكنه أظهر أنه لا يذكر وهو يهرب من مرمى نظرات مازن الفاحصة له. عاد ضيفه يفتح القداحة ويُغلقها وقد عُلِّقَت عين هشام بها، لكن صوتها كان ينخر في عقله يُشَتِّته، فحاول تجاهلها، ليستأنف الضيف:

- لماذا تشاجرتما؟

- من؟

- أنت ودارين تشاجرتما ليلة الحفل، أليس كذلك؟

- كلا، لم نتشاجر.

ابتسم باضطراب، لينحني مازن قليلًا نحوه:

- لكنَّ السيد سامح أخبرني غير ذلك.

- وما الذي أخبرك به هذا الأحمق؟

كَزَّ هشام أسنانه بغيظٍ لم يُخفِه، عاد مازن يريح ظهره إلى مسند الكرسي:

- أنَّكُما تعاركتما عِراكًا شديدًا غادرت بعده دارين غاضبة؟

- لم يحدث، تعارَكَت مع إيناس، وليس أنا.

انتفض من مكانه بغَضَبٍ دون تفكير، وتقدَّم خطوتين للأمام، ليقف مازن خلف كتفه:

- ولماذا؟

- لأن إيناس كانت تريد الزواج بوالدها.

- هل كانت حاملًا منك؟

صدمه السؤال كعاصفةٍ خطفته لبضع ثوانٍ ثم ألقته على قارعة الذهول، ليصرخ بغيظ:

- أنت تهذي؛ لم يكن بيني وبين دارين أي شيءٍ من هذا القبيل.

- ومن تحدث عن دارين؟

تجَمَّدَ هشام بأرضه وشعر ببرودةٍ تسري بين عروقه، شحب لونه وتبَدَّدَ تماسكه، ما لاحظه مازن كشَمسٍ في وضح النهار، ليَدُسَّ كَفَّه اليُسرى في جيبه ويعود يتلاعب بقداحته بيده اليُمنى ونبرته تزداد ثقةً:

- أتعرف؟ حين أفرغنا هاتف إيناس كانت هناك الكثير من الرسائل بينكما، لكنني في البداية لم أكترث لهذه النقطة، حتى اتُّهِمَت لين بقتلها بدافع التخلص من الطفل، فأنت بالطبع تعرف أنها كانت حامل، فقد كانت صديقتك المقربة، أليس كذلك؟

- نعم، لا!

تلجلج نفيًا وإيجابًا، تباعدت أنفاسه، شعر ببعض الدوار لكنه تماسك، وبهدوءٍ عاد إلى أقرب كُرسيٍّ، ابتسم مازن بثقة:

- لين أخبرتني أن الطفل ليس أخاها، وحين أعدت ترتيب الأوراق انتبهت للرسائل.

ازدرد هشام ريقه بصعوبة، حارب لإخراج نبرته متماسكة:

- لا أفهم، ما الذي تتحدث عنه؟ كنا أصدقاء مُقَرَّبين، ولا شيء في الرسائل بيننا يقول غير ذلك.

انحنى مازن فوق الكرسي نحوه:

- حين نستردُّ باقي الرسائل التي تَمَّ حذفها سوف نرى بهذا الشأن، غير إن...

اعتدل وأولى مُضِيفَه ظهره وتلَبَّسه صمتٌ طويل، لم يستطع هشام أن يُحجِمَ عن السؤال رغم أنه حاول، فخرج صوته مهزوزًا:

- غير ماذا؟

- هناك تحليل البصمة الوراثية، يمكننا أن نعرف من هو والد الطفل الحقيقي، الأمر ليس صَعبًا.

التفت نحوه مازن وقد ارتسمت ابتسامة انتصاره فوق شفتيه، لمح بهوت مُستضيفه وتلجلج نظراته وأنفاسه، فوقف مُقابله بثباتٍ وعينين تُشِعَّان قوةً وثِقة، يضع كِلتا كفيه بجيبي بنطاله:

- من تعتقد أن لديه الدافع الأقوى لارتكاب جريمة قتل؟ لين ودافع التخلص من طِفلٍ ليس أخاها من الأساس ويَسهُلُ عليها إثبات ذلك؟ أم شخصٌ آخر دافعه إخراسُ إيناس وجعلها تصمت عن فضيحة والد الطفل الحقيقي وتدمير سُمعَته وسمعة عائلته وتدمير زواجه المستقبلي؟

جحظت عينا هشام الزائغة في الفراغ وكادت أنفاسه تكف للأبد، لم يكن يعي شيئًا، ولم يطلب الضيف المزيد؛ فقد حصل على ما أراده وغادر.

أتى مازن بتَكَهُّنٍ ضَعيفٍ وخيطٍ واهٍ، بعدما أثار يقينُ لين وثقتها في أن الطفل ليس أخاها وحديثها عن وجود طَرَفٍ ثالِثٍ عواصف الشَكِّ في نفسه؛ وراجع كافَّة رسائل إيناس واتصالاتها بتَعَمُّق، خاصة التي بينها وبين أصدقائها المرتبطين بدائرة دارين، ووجد أن اتصالاتها وهشام في الفترة الأخيرة ليست فقط كثيرة ولفتراتٍ طويلة، بل ورسائلهما بها نوعٌ من الحدة والتهديد المُتَبادَل بينهما وإن كان مُستَتِرًا، إلا إن عينًا خبيرةً مثل عينه لا يَصعُبُ عليها أن تلتقطه.

لكن ظل يراوده سؤالٌ واحد؛ من أين للين بأن تعرف؟ وهل كانت تعرف أن هشام تحديدًا هو والد الطفل؟ وإن كانت تعرف، لماذا لم تتهمه بقتل إيناس؟

قبل

أما هشام، الذي يبست كُلُّ عَضَلةٍ بجسده، لم ينتبه لرحيل ضيفه إلا على صوت الباب الخارجي يُغلَق، ظَلَّ على سيرته الجامدة لحظاتٍ لم تدم وقد انفجر هياجٌ شَرِسٌ يعوي بصدره؛ راح يخبط مؤخرة رأسه بسخط في مسند الكرسي عدة مراتٍ قبل أن تخرج منه صرخة غَضَبٍ دوت بين الجدران من حوله وهو يُلقي بكُلِّ ما تطاله يده أرضًا يحطمه.

عدة أسابيع، وقُربَ المغيب، يقف هشام في المطبخ يُعِدُّ فنجانًا من القهوة، حينما

رَنَّ هاتفه فالتقطه من طرف الطاولة؛ رأى اسم المتصل فزفر باستياء، يعلم أن هذا لن ينتهي على خير. واصل الهاتف رنينه للمرة الثانية على التوالي، فأجاب وهو يضع ركوته فوق النار، ليأتيه صوتٌ غاضِبٌ من الجهة الأخرى لتأخُّره في الرد، مسح بين عينيه بنفاد صبر، ثم أجاب دون مبالاة:

- هل يمكنك أن تهدأ قليلًا وتَكُفَّ عن ارتجافك؟

عاد الآخر لصُراخه الذي كاد يصُمُّ هشام، الذي صرخ في وجهه بحدة:

- تمالك نفسك يا غبي! لا أحد يعرف عنا أيَّ شيء، لكنَّ ارتعادك هذا هو الذي سوف يُلقينا في التهلكة.

صمت لحظات، عَمَّ الهدوء قبل أن يهتف من بين أسنانه:

- فقط اخرس يا سامح، والتزم مكانك وسوف آتي إليك في المساء، فقط احرص أن تكون وحيدًا وألَّا يعرف أحدٌ عن قدومي.

لم ينتظر حرفًا آخر، ألقى بالهاتف إلى الطاولة مُجَدَّدًا وهو يخبط فوقها بكلتا كفيه بغيظٍ غَمَره؛ هذا الأخرق سوف يتسبب في كارثة. انتبه على صوت قهوته وقد فارت وأغرقت الموقد، فأسرع بإطفاء الغاز وهو يسبُّه. رمى ما بالركوة وأعاد صنع واحدةٍ أخرى ووضعها فوق النار، حينما سمع باب شقته يُغلَق؛ انتبه، اتَّخَذَ خطوتين سريعتين نحو الباب، ليلمحها تقف بمنتصف البهو، التقت نظراتهما للحظة فصرخ عقله بحنق: «كأنَّ هذا ما ينقصني الآن!».

عاد إلى الداخل يُكمِلُ فنجانه، ألقت حقيبتها بإهمالٍ فوق كُرسيٍّ بالاستقبال وتقَدَّمت حتى وصلت باب المطبخ، ارتكنت إلى قائمه بظهرها، تتلاعب بالمفتاح في يدها، هتف بسخط يكزُّ أسنانه:

- ما الذي أتى بِكِ إلى هنا؟

- اشتقت إليك يا حبيبي.

زادت زفراته وهو يُطفئ النار ويصُبُّ قهوته في الفنجان، زادت ابتسامة إيناس، فتعلم أن معركتها معه ليست سهلة، لكنها لن تخسرها هذه المرة كما خسرتها في الماضي. اتجه خارِجًا، تعَمَّدَ عدم النظر إليها وهو يعبر بجانبها، لم تكترث له، وتبعته حتى البهو، جلس إلى الأريكة، فوقفت مقابله:

- سوف أطلب الطلاق من مراد هذا الأسبوع حين يعود من السفر.

لم يرفع نحوها طَرفًا، فعقدت ساعديها وأتبعت بتصميم:

- متى سوف تُخبر رهف؟

- بماذا؟

ارتشف من فنجانه، وسحب سيجارةً واعتدل للخلف ووضع ساقًا فوق الأخرى وأشعلها، لترفع حاجبها باستنكار:

- بأنك سوف تتركها وتتزوجني!

اعتلته ابتسامة هازئة وزفر دخان سيجارته، وبنبرة استخفاف:

- هل أنتِ مريضة أو شيءٌ من هذا القبيل؟

احتقن وجهها بالغيظ، لكن سُرعانَ ما ابتسمت بمَكر:

- إن كُنتَ تعتبر الحَملَ مَرَضًا فأنا كذلك، وهو أجمل مَرَضٍ أن أكون حاملًا بابنك يا حبيبي.

كَزَّ هشام أسنانه سُخطًا، لكنه لم يرد، لتضع يُمناها على بطنها تُمَسّدُها:

- إن لم تُخبِرها أنت سوف أخبرها أنا.

- هل فَقَدتِ عقلك؟

- أنت لم ترَ بعد إن فقدتُ عقلي ماذا سوف أفعل.

- أنتِ تُهددينني؟

انتفض واقفًا ملامحه كنبرته محتدة، لترد بذات الحدة:

- أنا فقط أحذرك، فحَذَاري من امرأةٍ فقدت صبرها في الحب، سوف تُحرِقُ الكون بمن فيه وتجعلك وقوده.

تقَدَّمت منه خطوةً ونظرةُ تحَدٍّ تغمر عينيها وصوتها:

- أتعتقد أن هذه المرة مثل الماضية، كلا يا سيد هشام، سوف أخبرهم كل شيء، وليس عن الآن فقط، بل وعن الماضي؛ كل ما كان بيننا.

صمتت لحظة، زادت خطوةً ازدادت معها نظرة عينها اهتياجًا ونبرتها وعيدًا:

- وسوف أخبرهم عما حدث في الحفل، ودارين.

تجَمَّدت تعابير وجهه وقد أخذته المفاجأة، قبل أن يزوي بين حاجبيه ويتساءل مقطبًا:

- ما الذي تهذين به؟

- أتعتقد أنني لا أعرف ما حدث ليلتها؟

زادت خطوةً أخرى وعقدت ساعديها بنظرةٍ خبيثة:

- أو عن الأموال التي دفعتها للأحمق ولماذا؟

- أنتِ فقَدتِ عقلك!

- أعرف جيدًا ما الذي تخشى أن يكون قاله زياد للين قبل موته.

رفعت أناملها على شفتها تشهق بتَصَنُّعٍ وما عاد يفصلهما سوى خطوةٍ:

- أقصد قبل قتله.

تهَدَّجت أنفاسه، زاغت عيناه التي راحتا تتأجَّجان احمرارًا للحظة، قبل أن يرُدَّ بثِقَةٍ مُصطَنَعة:

- كل هذا هراء.

- إذن لا مشكلة أن نستدعي الضابط ونُخبِره كل شيءٍ ونرى.

أخرجت هاتفها من جيب بنطالها، فأطبق على ساعدها باهتياجٍ محمومٍ كنظراته:

- أقسم إنك إن تفوَّهتِ بحرفٍ آخر من حماقتك وجنونك فلسوف أقتلك.

- بيدك وحدك أن أصمت، أو أتكلم.

تجاهلت نظراته المسعورة وقبضته المُحكَمة على ساعدها، وظلت نظرتها تلتمع بخُبثٍ لاستفزازه أكثر فأكثر، احتبس فيضانُ غضبه ودفعها دون أن ينطق بكلمة، أدارت ظهرها والتقطت حقيبتها تتمايل في مشيتها بدلال، ودون أن تلتفت أشارت له وداعًا وابتسامة نصرها تعلو شفتيها.

حينما أُغلِقَ الباب ضرب الطاولة بقدمه بحَنَقٍ لم يعد يستطيع كَبحه، يشعر أن عقله يكاد يُغادره، يسبُّها ويسبهم جميعًا واليوم الذي التقاهم به، لا يصدق أن كل أحلامه هوت دُفعةً واحدة، اعتقد أن ما حدث بالماضي دُفِنَ بالماضي، لا يُصَدِّقُ أنه عاد ليُلاحقه، وبعد كل ما تكَبَّده سوف يخسر ما سعى من أجله سنوات، ارتمى إلى الأريكة بلُهاث غضبه يكاد أن يُجَنّ. حاصرته نوبة هذيان، وضع رأسه بين كفيه يهز جسده للأمام والخلف يُتَمتِمُ أسماءهم واحِدًا تلو الآخَر، ثم توقَّف عند اسمها فجأةً وتلَبَّسَته ابتسامةٌ غامضة وشيطانه يعثُّ بعقله: «أنتِ مُحِقةٌ تمامًا؛ بيدي وحدي أن تصمتي، وإلى الأبد!».

يقف مازن أمام نافذته واضِعًا كلتا كفيه بجيبيه، ينظر خارجًا عينه تتوسَّع النظر بالفراغ، لا يرى شيئًا سوى أفكاره وقد تحَرَّرت من قُضبان عقله وتراصَّت أمام ناظريه في مشاهد سينمائيةٍ مُتفَرِّقة، يستطيع من خلالها رؤية كُلِّ فكرةٍ ككائنٍ حي، يستطيع أن يراه، يسمعه، وربما حتى يخاطبه. ابتسم من طرف فمه بنشوةٍ وعينه تجول بين قطع أحجيته التي -وللمرة الأولى- يشعر بأنها أخذت تصطَفُّ قطعةً بجوار الأخرى، بدأت تتضح معالمها بشَكلٍ أو بآخر، أمسك بطرف الخيط الذي سوف يغزله جزءًا جزءًا حتى يحصل على صورةٍ واضِحةٍ من الحقيقة.

أسقطته من عَليائه خبطاتٌ متكررة خلفه، فالتفت ليجد جمال يقف أمام مكتبه ويطرق بقبضته فوق المكتب بدهشةٍ وتساؤل:

- فيمَ أنت غارِقُ التفكير إلى هذا الحد؟

- هل أنت هنا منذ فترة؟

تساءل مازن وهو يجلس إلى مكتبه، بينما ابتسم جمال وهو يجلس أمامه:

- منذ الكثير، يبدو أنه أمرٌ مهمٌّ الذي تفكر فيه بكل هذا التركيز؟

أشعل مازن سيجارته، نفث دخانها وتساءل باهتمام:

- هل من جديد؟

- جميعهم تحت المراقبة؛ سامح، رهف، هشام، لين، الجميع.

- و... ؟

- سامح يبدو خائفًا حَدَّ الجنون، يكاد يتلَفَّتُ حوله كلما خطى خطوة، هذا الفتى سوف يسقط في أية لحظةٍ ميتًا بسبب خوفه فقط، زار طبيبه عِدَّة مرات، وزار هشام مرة، ورهف عدة مرات، ولا يترك شقته إلا في أضيق الحدود، ورهف لا تختلف حالًا عنه.

- بمعنى؟

- تزور طبيبًا نفسيًّا دون أن يعلم أحد، ويبدو أنها تتردد عليه منذ فترة.

- هذا جيدٌ جدًا، استدعِه لنُحَقِّقَ معه، لكن احرص على أن يتِمَّ هذا بشَكلٍ سري؛ لا أريد أن يشعر أحد.

أكَّدَ جمال أنه سيفعل وهو يُشعل سيجارته، بينما مازن ارتكن إلى مسند الكرسي يتساءل:

- هشام؟

- لا يفعل الكثير؛ منذ زيارتك له يكاد يكون لا يغادر منزله، ويتخَبَّطُ من فرط قلقه، حتى خطيبته، لم يلتقِها سوى مرة واحدة، بينما زارها سامح ثلاث مراتٍ تقريبًا، أتساءل لماذا لم نقبض عليه حتى الآن؟

- لأنه ليس لدينا دليلٌ ماديٌّ قويٌّ ضده، بضع رسائل مُلَغَّزة تحتمل ألف معنى، سوف يُخرِجه منها طالِبٌ في كلية الحقوق، غير إن خوفه وتخَبُّطه هذا قد يفيدنا أكثر وهو بالخارج، ربما يرتكب خطأً كبيرًا يكون دليلًا دامِغًا ضده.

- والطفل، أليس دليلًا ضده؟

- في حال استطعنا إثبات ذلك، وكِلانَا يعرف؛ كي نُجبِره لعمل تحليل البصمة الوراثية لا بُدَّ من دليلٍ قويٍّ ضده، أو اتِّهامٍ صريحٍ له من قِبَلِ السيد مراد، أو حتى لين، وهذا لم يحدث.

صمت مازن، أشعل سيجارته التالية، زفر دخانها ثم تساءل:

- لين؟

- لين...

أعادها جمال بحيرةٍ يحكُّ مؤخرة رأسه، يزفر دخان سيجارته:

- حقيقةً تلك الفتاة تُمَثِّلُ لُغزًا كبيرًا لي، أشعر أحيانًا...

صمت لحظات، أخذ نفسًا آخر من سيجارته فاعتدل مازن في جلسته وتلَبَّسَ وجهه اهتمامٌ مُفاجئ، ليُكمِلَ الآخَر مُتَرَدِّدًا:

- كأنها تعرف أننا نراقبها!

ضيَّق مازن بين عينيه يطلب المزيد من التوضيح، ليحُكَّ الآخر ذقنه:

- لا أعرف ماذا أقول تحديدًا، كُلُّ شيءٍ تقوم به واضحٌ ومباشر؛ لا ترتكب خطأً واحدًا، ولا حتى مُخالفة سير، تتعامل مع كُلِّ شيءٍ بشَكلٍ طبيعي، كأنَّ شيئًا لم يكن. تمارس روتين حياتها بشَكلٍ يدعو للاستغراب، نحن نتحدث هنا عن جريمتي قَتلٍ هي مُشتَبَهٌ رئيسيٌّ في إحداهما، ومع ذلك يتلَبَّسُها كُلُّ هذا الهدوء والاتزان!

عاد مازن إلى جلسته الأولى:

- أخبرني ما الذي تقوم به؟

– الذهاب إلى دار الأوبرا، تُقابل عاصم يوميًّا تقريبًا، وذهبت عدة مراتٍ إلى إصلاح هاتفها.

– هاتفها؟

– نعم اصطدمت بالطبيب في إحدى المرات ووقع من يدها، باليوم التالي ذهبت لإصلاحه، وقد تركته لدى المحل بضعة أيام، ذهبت مرتين لأخذه دون جدوى، وفي الثالثة حصلت عليه، غير ذلك لا شيء، سوى أنها لا تفارق صديقتها التي تُدعى مريم.

شرد مازن لحظةً قبل أن يتساءل جمال باهتمام:

– هل أخبرك الطبيب بأيِّ شيءٍ قد عَلِمه منها؟ عن الحفلة أو الحادثة؟

– لا شيء غير ما نعرفه.

– هل تثق أنه إن علم شيئًا سيخبرنا؟

– ما الذي تقصده؟

– إن اعتبرها مريضته ربما يرفض أن يُفشي لنا ما تخبره به.

– أشكُّ بذلك، نحن من طلبنا منه أن يلتقي بها ويُخبرنا ما تخفيه، غير إنه طبيب؛ ويعرف خطورة الوضع الحالي جيدًا.

صمتا قليلًا، تنهد جمال عدة مَرَّاتٍ مُتتالية، ليخبط مازن فوق المكتب بنفاد صَبرٍ ويهتف بغيظ:

– آتِ ما عندك؟

– هل تعتقد... أقصد... هل يمكن... ؟

– ماذا؟

هتف بحدة، ليمسح جمال جبينه المُتَعَرِّق:

– أقصد هل تصدق أن تكون تلك الفتاة حقًا تتحدث إلى الموتى؟

– أتصدق أنت؟

أصابته المفاجأة، فلم يتوقع أن يسأله، فازدرد جمال ريقه بتلجلج:

– أنا! لا، ... أقصد... إنه...

– لا يهم، فقط انتبه ألَّا يغيب أيٌّ منهما عن عينك، وأحضر لي كُلَّ ما يتعلق بالاتصالات بين إيناس وهشام، ولا تنسَ طبيب رهف.

أنهى مازن الحديث، مُشيرًا له بالمُغادرة، فغادر جمال يحث الخطى وهو يؤكِّدُ على تنفيذ كل ما طُلِبَ منه، وفي قلبه يشكر ربه ويحمده أن مازن غيَّرَ مجرى الحديث، فليس لديه إجابة، فهو كالباقين؛ حائر، لم يكن ليصدق تلك الخرافات، أو حتى يخطر الأمر بباله، لولا أنه الوحيد الذي يعرف بشأن والدة مازن وظروف وفاتها، فمن أين لها أن تعرف؟

بينما ظل مازن على جلسته وقد أعاده سؤال جمال إلى ما حاول الهروب منه، هل حقًا يصدق؟ فهذا سؤالٌ لا يمكنه الإجابة عليه، أو بالأحرى لن يستطيع، لأن الإجابة الوحيدة التي بدأت تختمر بصدره لا يصلح أن تغادر مكانها بين أروقة عقله.

بعد يومين، تعَلَّقَت نظرات رهف بشقٍّ صغير بين درفتي النافذة ترى منه السماء البعيدة، التي اتَّشَحت بلونٍ برتقاليٍّ في وقت المغيب، يزحف الظلام برويةٍ ليسيطر على لوحتها المهيبة، ورغم بعدها بدت أقرب من أنفاسها المتباعدة اضطرابًا، ولوهلة التَجَّت نظراتها ببحر عينيها التائهتين، لا ترى إلا سحابةً تشَكَّلت على هيئة دُبٍّ عملاق، قبل أن يأخذ شكلها في التغير، والتي تُعافِرُ لتظهر جليةً من الشق الضيق. فلما زاد إمعان عقلها تجَسَّدت وجهًا تعرفه، واستحوذت على روحها عينان تحفظهما، التمعتا وسطه بالأحمر الدموي، أمسك كَفَّاها باستماتةٍ بساعد الكرسي، تكافح للتخَلُّص من سطوتهما عليها، تشعر كأنها محبوسةٌ داخلهما مثلما حُبِسَت أنفاسها داخل صدرها، تعرف أنهما عادتا من الماضي لتنتقما، وبأي ثمن.

انتفضت رهف بفزع وسُمِعَ صوت أنفاسها المضطربة بارتياعها داخل الغرفة، ما أثار انتباه مازن، الذي قد ناداها بنبرةٍ مرتفعة قليلًا عَلَّها تسمعه بعدما كَرَّر نداءها عدة مراتٍ دون مجيب، اعتقد أنها شردت للحظة، لكن هيئتها المزرية والعرق المتصبب على وجهها الشاحب يخبرانه أنها كمن رأى شبحًا. أصابته رعشة خفية لمجرد الخاطر، الذي أزاحه عن عقله وهو يزيح كرسيه للخلف ينتفض واقفًا، ما بال هؤلاء الفتيات جميعهن يعانين الجنون بطريقةٍ أو بأخرى! أخذت ضيفته هنيهةً تُكافِحُ لاستعادة بعضٍ من تماسُكِها المتضعضع، فرماها نظرة شفقةٍ لم تلحظها.

صحيحٌ أن طبيبها لم يخبره بشيء ذي أهميةٍ عن قضايا القتل، أو وصل إلى أية معلومةٍ قد تفيده، لكن أخبره أنها ليست في أفضل أيامها، وأنها تُعاني الهلاوس السمعية والبصرية، وتتخيل رؤية الأشباح؛ فاعتقد أن تخلخل حالتها النفسية قد يفيده

في سهولة الضغط عليها لتتحدث، لكنه لم يعتقد أن تكون حالتها متدهورةً إلى هذا الحد الذي يراه، لكن ما فاجأه حقًا أن طبيبها كان طبيب لين في المصحة النفسية كذلك، وابن السيد نجيب، المحامي، والذي أكَّدَ له هلاوس لين عن رؤية أختها، وأنه من ساعدها على الشفاء، كذلك يساعد رهف الآن، ابتسم بسخرية؛ "أحقًّا هذا مفهومه عن الشفاء؟ إن كلتيهما على شفا الانهيار"؛ تنهد:

- هل أنتِ بخير يا آنسة رهف؟

تساءل باهتمامٍ حقيقي، قبضت كلتا كفيها ببعضهما بإحكامٍ تستمدُّ منهما بعضًا من ثباتها أمامه، ليتخطى الأمر برمته ويجلس بالكرسي المقابل لها، يضع ساقًا فوق الأخرى. أشعل سيجارته، ثم طفق يفتح قَدَّاحته ويغلقها كعادته بضع مرات، قبل أن يتساءل:

- من منهم كان لديه الدافع الأكبر لقتل دارين تلك الليلة؟

داهمها السؤال فرفعت عينيها المذعورتين نحوه وأنفاسها المتهدجة تلاحق انفعالَها المحفور على وجهها. هرولت نظراتها في كُلِّ مكانٍ حتى استَقَرَّت بالزاوية، لترى وجه دارين المتجسد في السحاب من جديد يلتمع بعيونٍ دموية، وربما لجُزءٍ من الثانية لمحت ابتسامةً ساخرةً تنبثق من طرف فمها، قبل أن تُغلِقَ عينيها بقوةٍ تعتصرهما كيلا ترى المزيد، كأن إغلاق أعيننا عن النظر إلى الشيء كافٍ كي نتوقف عن رؤيته.

تُرَدِّدُ داخلها بإصرارٍ أن لا شيء من هذا حقيقي، هل أخذت دواءها قبل أن تأتي أم لم تفعل؟ ورغم أنها توقن أنها حتى لو أخذته فهو لا يمنع هلاوسها من اجتياح روحها وسحقها، فإنها راحت تُشَتِّتُ عقلها في التذكر بجِدِّية، ليس لأنها تريد ذلك حقًا، لكن بعد أربع سنواتٍ من المعاناة مع أشباح خيالاتها المتجسدة في كل رُكنٍ وزاوية تعَلَّمَت أن في لحظات الذعر يكون الهروب بالتشتيت هو أفضل وسيلةٍ للحفاظ على ما تبقى من ثبات عقولنا المُرتَاعة. استندت بساعدها إلى المكتب وأسندت جبهتها إليه تَعُدُّ كم مرةً أخذت الدواء اليوم، وكيف وأين وضعته؛ سمعها تُهمهم بشيءٍ لم يتبيَّنه، ليعود ويحثها على الحديث:

- هل كانت تتعاطى دارين المخدرات؟

- مستحيل، لم تفعل يومًا، إيناس كانت تفعل.

- منذ متى وأنتما صديقتان؟

- منذ الطفولة.

خرج صوتها سريعًا لكن مُختَنِقًا مَهزومًا، لعلها وجدت بأسئلته طوق نجاةٍ لسَحبِها عن تلك الزاوية التي سوف يندلع منها الجحيم إن هي نظرت نحوها أو حتى فتحت عينها. لينحني قليلًا للأمام وما زال يتلاعَبُ بقَدَّاحته ويرى علامات انهيارها أمامه تزداد مع تمايُلٍ طفيفٍ لجسدها للأمام والخلف، فاستطرد:

- أعلم أنكما كنتما مُقَرَّبَتين جدًا، لذلك أخبريني، كيف كانت العلاقة بينها وبين إيناس؟

- لم تكونا يومًا على وفاق، فمنذ تعارفتا كانت هناك دومًا مُشاحَناتٌ بينهما، لكن في الفترة الأخيرة وصل الأمر إلى خلافاتٍ حقيقيةٍ ومشاجرات.

- لماذا؟

- عَلِمَتْ أن إيناس تتودَّدُ إلى والدها وتريد الزواج منه، وهذا جعلها تستشيطُ غَضَبًا.

- هل تشاجرَتَا يوم الحفل؟

أمالت رأسها مُوافِقةً، ليعتدل بجلسته مُتَحَفِّزًا ومُنتَظِرًا أن تُكمِل، وبعد لحظة صَمتٍ شعرا كلاهما كأنها عام، ابتلعت ريقها وما زالت جبهتها تستقر فوق كفها وعيناها مُغمضتان بإحكام:

- بدأ كُلُّ شيءٍ مع تلك اللعبة الغبية.

فاغر العينين والفم باغتته صَدمةٌ ارتسمت على وجهه، ليمسك رسغها التي تستند إليه يجذبه إليه بجِدَّةٍ ويجذبُ معه عينيها وانتباهها الخائر، ويضغطه بصرامةٍ كنبرته الحازمة ونظراته الحادة:

- أية لعبة؟ أتعنين تلك الجملة: "الآن تبدأ اللعبة"؟

لم تشعر بضغطة كفه الخشن على رسغها، فخِدرٌ يسري في أوردتها، تنميلٌ يزحف على أطرافها، ضَيَّقت عينيها الغائمتين تحاول استبيان معالم وجهه التي أخذت تهتزُّ أمامها، تهَدَّلت أكتافها، وشعرت بآخر ما تبقى من تماسك شتات روحها المُبَعثَرة يتفكَّك، ويتفكك معه وعيها.

أصواتٌ كثيرة مُتداخلة ترن داخل عقلها المُتَرَنِّح، الرؤية تغيم أكثر، ووجهه المحدق إليها يتراقص أمامها، يتشابك مع وجوهٍ عِدَّة، تعلو الأصوات وتخفت، تذوب الملامح وتتحوَّلُ إلى خيوطٍ من دُخانٍ أسود، تقتربُ أصواتٌ وتَبْعُدُ أخرى، سُبابٌ وعويل، يتشَكَّلُ وجهٌ جديد، ضحكاتٌ وصرخات، وجهٌ مطموس الملامح يبتلع الجميع، يزحف نحوها ويزحف من حولهما الظلام، وألفُ دُفٍّ يضرب داخل رأسها، ليتوقَّفَ كُلُّ شيءٍ

بغتة. للحظةٍ يكتسح الصمت المشهد، قبل أن يترنَّم بفحيحٍ ناعِمٍ يدوي صداه من كل الأركان، اعتصرتها رعشةٌ خفية، يهمس كالأفعى: "الآن تبدأ اللعبة".

الآن تبدأ اللعبة.

- ما الذي تقولينه يا إيناس؟

هتف سامح بتعَجُّبٍ وابتسامةٍ هازئة وهو يتجَرَّع من كوب العصير الخاص به، ودُهِشَ الجَمعُ المُتَحَلِّق أرضًا بوسط غرفة المعيشة قريبًا من المدفأة من كلامها بنظراتٍ ساخرة، بينما كانت لين تجلس فوق الأريكة على مَقرُبَةٍ منهم، فلم تكن لتشاركهم أي شيءٍ بأي حال، حتى العصير أخذته مُكرَهة، فلم تشرب منه إلا القليل، بينما تجَرَّعَت دارين كأسها كامِلًا. مع كل لحظة كان يزيد تعجب لين وعدم فهمها لما يحدث، وما أثار ريبتها واستنفر وساوسها تصرفات أختها منذ لحظة دخولهما، تحفزها وملامحها الغاضبة، والتي لا تدخر جهدًا لتظهرها للجميع، هناك شيءٌ غامض يحدث، تشعر أن أختها كبُركَانٍ على وشك الانفجار بأية لحظة؛ ما أثار قلقها ومخاوفها. انتشلها من أفكارها صوت إيناس المبتسمة بقلة اكتراثٍ ترمي السائل بنظرةٍ خاطفة غير مُبالية:

- الأمر بسيط، حين تريد أن تأخذ دورًا في اللعبة عليك بقول الكلمات السحرية: «الآن تبدأ اللعبة»، حينها تكون أنت من يتحكم في اللعبة، وتُخبِر سِرًّا عن أحد الموجودين، لكن سرًّا بحق، أمرًا خطيرًا، ربما شيئًا يستحقُّ الموت من أجل ألَّا يعرفه أحد، وحين يقول أحدٌ آخر ذات الكلمات السحرية يتحَكَّم مباشرةً في اللعبة، وهكذا دواليك، ولا تتوقف اللعبة إلا إذا انتهت بالكلمات السحرية: «الآن انتهت اللعبة».

- وما وجه الفائدة من لعبةٍ حمقاء كهذه؟

تساءلت رهف بتَقَزُّز، لتَرُدَّ بذات الابتسامة اللامبالية:

- الملل أمرٌ مُزعِج يا عزيزتي، فدعونا نأخذ المرح لمستوًى آخر، ألن يكون مثيرًا لكِ أن تعرفي سِرًّا خطيرًا عن حبيبك المتعلقة بذراعه؟

- هل فَقَدتِ صوابك؟

انتفض هشام بحِدَّةٍ مُتَمَلِّكةٍ من صوته وتعابير وجهه المُحتَقِن بالضيق، والذي كان جالِسًا قريبًا من المدفأة على يساره، وعن يمينه تجلس مُتَرَبِّعةً خطيبته، والتي كانت بالفعل مُمسِكةً بساعده، لترميه إيناس الجالسة مُقابله تمامًا بنظرةٍ ازدادَ خُبثُها قبل أن تستَقِرَّ عند رهف:

- بالتأكيد لديه شيءٌ يخاف أن تعرفيه؟

- ما الذي تقصدينه؟

تساءلت رهف بابتسامةٍ بلهاء وهي تنظر نحو خطيبها وتضغط ساعده برفق، والذي زادت نظراته غيظًا، ليَرُدَّ من بين أسنانه:

- إنها فقط مُنتَشية من تلك القذارة التي تتعاطاها.

لتضحك إيناس بغنجٍ صاخِب، قَضَّت حصون هشام من الداخل، يعلم أن تلك الغبية سوف تُفسِدُ كُلَّ شيء، ازدادت نظراتها اتِّقادًا تغمز لرهف:

- لو كُنتُ مكانك لتأكَّدتُ الآن أنه يُخفي شيئًا.

أرسلت نظراتٍ ناريةً نحو هشام، تلبس الجميع الصمت ونظرات الحيرة والقلق تتنقل بينهم، فلا يبدو أن تلك الليلة ستمر بخير.

- الآن تبدأ اللعبة.

التفت الجمع المُندَهِش فاغِري العيون على صوتِ دارين، الجالسة بين رهف وسامح للخلف قليلًا، ساندةً ظهرها إلى ساقي أختها من خلفها مُباشرةً، ضامَّةً قدميها إلى صدرها ومُحكِمَةً كلا ساعديها حولَهما، قالتها بنبرةٍ صارِمةٍ وعينُها المُثَبَّتة على إيناس تتَّقِدُ شَرارًا.

تبادل الجميع نظرات التعجب والخشية؛ الآن باتت الحرب على بُعدِ خطوة، فبالأيام العادية وحين يعمُّ المرح المكان، كِلتاهُما لا تَكُفَّان عن المُشاحَنات، بينما الآن، وفي هذا الجو من التوتر المشحون ونظرات الكُره النارية المُتَبَادلة بين كلتيهما خاصة، فالحرب دَقَّت طبولها لا مفر.

هَمَّت لين الجالسة خلف أختها على الأريكة أن تمسك كتفها بلمسةٍ حانية وتتهيأ لقول شيء، والتي أوقفتها دارين بضَغطِ كفها المستقر على كتفها بحَزمٍ دون أن تلتفت، وهتفت دون أن تحيد نظراتها عن إيناس:

- أتُريدين سِرًّا قد تُقتَلين لأجله؟ سوف أُخبِرُكِ واحِدًا.

عَمَّ الصمتُ لحظاتٍ قبل أن تهمس دارين بنبرةٍ حانِقة:

- الآنسة إيناس خائنة، عاهرة تنام بسرير رَجُلِ امرأةٍ أُخرى.

بُهِتَت الوجوه التي رمت إيناس بنظرات ازدراء واشمِئزَاز، لتزداد ابتسامتها غِلًّا وحِقدًا كنظراتها وهي ترى عيونهم تتطَلَّع إليها باحتقار. كَزَّت أسنانها بنبرتها

الناقمة:

- أحقًّا جميعكم تَدَّعون الفضيلة الآن؟ كُلٌّ منكم عاهِرٌ بطريقته، وربما أسوأ من عُهرِي، على الأقل أنا لا أخدع نفسي مثلكم وأُمَثِّلُ دور العفة.

كست عينيها حُمرَةُ السخط على الجميع، تُشيحُ بيديها الغاضبتين كصوتها الذي انفجر بضحكة بُغض:

- الآن تبدأ اللعبة... السيد سامح طيب القلب، الصديق الوفي، هو من سرق الأموال من شقة هشام الأسبوع الماضي.

ضربت صاعقة وجوه الجميع، بينما انتفض سامح الجالس على يسارها كمن لسعته حيَّة قابِضًا على ساعدها باهتياج:

- كاذبة! كلا، لم يحدث، إنها تكذب.

ينقل نظراته؛ بينها بوجهها المُتَّقِد بنظرةٍ شيطانية، وبين هشام فاغر الفم من الصدمة، ليصرخ بارتباك:

- أقسم لك إنها تكذب، تلك العاهرة الملعونة تحاول الإيقاع بيننا.

ازداد ارتباكه، أخذ لحظاتٍ قبل أن يشير بصوتٍ مهزوزٍ واضطراب أنفاسه متسارع ويفتش عن بخاخته:

- أنا صديقك، مستحيل أن أفعل شيئًا كهذا، وإن كان أحدٌ يخونك فزياد من فعل، لقد حاول تقبيل رهف في الملهى والتحرش بها الأسبوع الماضي.

شهقت رهف بارتياعٍ من المفاجأة، بينما تصَنَّمت نظرات هشام المَشدوهة عليها، لتهتف بروع:

- أقسم لك، ليس الأمر هكذا.

- كلا، لم أفعل، لقد كُنتُ مَخمورًا واعتقدتها دارين، أقسم لك لم أكن بوعيي.

هتف زياد المُتَصَبب عَرَقًا من الفزع، والجالس على يمين إيناس ومُقابِلًا لهشام تمامًا، بينما تجَمَّدت نظرات دارين عليه، والتي التفتت نحوه بوجهٍ مصعوقٍ وتلجلجت كلماتها من الصدمة:

- هل كُنتَ تريد فعل ذلك بي؟

لم يجد رَدًّا، يبس في أرضه، لم ينتبه إلا على صوت صفعة هشام لرهف، التي جَمَّدَتها المفاجأة، بينما جلجلت ضحكات إيناس التي هتفت:

- انظر من يضربها لأجل الشرف؛ السيد هشام، الذي عبرت نصف الفتيات سريره، الذي خطبها لأنه لم يستَطِع الحصول على صديقتها.

ازدادت العيون جحوظًا، انتفضت لين صارخة:

- هل فقدتم عقولكم؟ توقفوا عن هذا الجنون.

نهض الجميع وقوفًا، دارين تحتضن رهف التي تدفن رأسها بصدرها وتُغرِقها الدموع، والألم، لا تستطيع أن تكبح شهقات ألمها. تحَفَّزَ هشام الهائج بالغضب يوشك الانقضاض على زياد لا يمنعه عنه سوى سامح، الذي يحاول جاهِدًا تقييده، حين هتفت إيناس بكُره احتقن بكُلِّ ذرةٍ بها:

- والآن دورك يا دارين، أتعتقدين أنني قد أتركك، كلا، أنا فقط تركتك للنهاية، لأنه إن كانت هنا عاهرة فهي أنتِ!

توقف كُلُّ شيءٍ فجأة، وعَمَّ الصمت مع صوتِ لطمةٍ عنيفة هدرت على خَدِّ إيناس ألقتها على الأريكة من قوتها، حتى إنَّ الدماء نَزَّت من طرف فمها وأنفها من شدتها. تعَلَّقت العيون المذهولة بيد لين، التي ما زالت مُعلَّقةً في الهواء بعد أن لطمتها بكل ما امتلكته من كُرهٍ لها، وصدرها المنفعل يعلو ويهبط بسُرعةٍ تُوحي بأنه يكاد يتوقف من فرط الاهتياج:

- إياكِ أن تَجرُئي وتهيني أختي، وإلا أقسم إنني سوف أقتلك وأقتل أيَّ أحدٍ قد يفعل.

لم تُحَرِّك إيناس، التي أخذتها المفاجأة، طَرفًا ظَلَّت في موضعها فوق الأريكة تنظر لمنظر الدماء على يديها في حالةٍ من الذهول وعدم الاستيعاب.

دارت النظرات المتحفزة التي تتلظَّى نارًا في صَمتٍ خانِقٍ يُحكِمُ قبضته على الحناجر يُحَجِّرُ الكلام، بينما صرخت الصدور كُرهًا وتوغَّرت بمشاعر اختلطت؛ بين خوفٍ وقلقٍ وضغينةٍ وبُغض، واشتعل في العقول جحيمٌ يعثُّ فيه ألف شيطانٍ يُطالِب بالثأر والانتقام.

باتَ تغيُّر أحوال الطقس ملحوظًا، كانت ليلةً ضارِبةً في السواد، نسماتٌ خفيفة مُتَقَطِّعة تهفو في الأنحاء، نافذة غرفتها مواربة. صوتٌ تخَلَّلَ نومها، داعب عقلها، لتفتح عينيها. لحظةٌ استكان بها الليل والهواء والكون كله، اعتقدت أنها تحلم، لكن قبل أن يستقر خاطرها عاد الصوت وعادت الموسيقى، تنبهت حواسها، ترَبَّعت في منتصف سريرها تنفض عنها النوم، ما تزال الموسيقى تتسَلَّل إلى أذنها، أرهفت السمع؛ إنها لين تعزف، ألقت ناهد نظرةً على هاتفها، الساعة الثالثة صباحًا.

من الجيد أن لين عادت للعزف مجددًا، لكن بالتأكيد ليس في الثالثة صباحًا، اعتدلت ونزلت عن السرير، ارتدت خُفَّيها ووضعت شالًا خفيفًا فوق كتفيها وفتحت باب الغُرفة، بذات اللحظة التي توقَّف بها العَزف. وقفت في منتصف البهو، كُلُّ شيءٍ ساكن، باب غُرفة لين المظلمة موارب، كذلك باب غرفة المكتب، لكن ضوءها يعبر إلى الخارج، وبغتةً عاد العزف؛ فارتجف داخلها وانتفضت خطوةً للخلف تُطبِقُ على شالها بين يديها. تقَدَّمت خُطاها نحو الباب والصوتُ يملأ أذنها؛ إنها معزوفة الحصاد التي عزفتها سابقًا، والتي أَحَبَّتها هي وانبهرت بها.

دفعت الباب قليلًا برفق، فوجدتها تقف نفس وقفتها السابقة في منتصف الغرفة، ظهرها مواجهٌ للباب تُمسِكُ الكمان بيدٍ والأخرى تسبح في بحر النغمات. عزفها في كل مرةٍ يكون أكثر جاذبية، ما بال تلك المعزوفة كلما عزفتها زاد جمالها وتغلغلت في روحها هي أكثر! ورغم أنها أتت لتُوَبِّخها، لكنها ظَلَّت واقفةً على عتبة الباب تُحكِمُ شالها حولها مشدوهة الروح مسلوبة اللُبِّ تغوصُ بين الألحان، حتى انتهت لين من العزف، كادت تُصَفِّق، لكنها خشيت أن تُفاجئها فتفزع، فأحجمت. تبَسَّمت بغبطةٍ وعدلت عن فكرة توبيخها، واستدارت مُغادِرة...

تجَمَّدت في موضعها وانتصبت كُلُّ شعرةٍ فيها، تيارٌ من الزمهرير ضرب أوصالها، شحب وجهها وذهلت عيناها وهي ترى لين تخرج من غرفتها، تقف مقابلها بعيونٍ ناعِسة... تبادلتا نظراتٍ مُتباينة، لين تفرك عينيها تحاول نفض النوم عن عقلها، كانت عَطشى فاستيقظت، تنظر نحو أمها ببلاهة، أما نظرات أمها فكانت فزعة، وجهها شاحِبٌ كالأموات. التفتت ناهد رغمًا عنها تنظر داخل الغرفة لتَجِدَ من تقف مقابلها تلتفت نحوها بروية وتبتسم من طرف فمها ترميها بنظرةٍ ماكرة، ارتعشت كل ذرة بها، وضعت يدها على فمها تكتم شهقة ذُعرٍ جَمَّدَتها.

تلك اللحظة انتبهت لين، فركضت نحو أمها، كانت الحجرة خاليةً والكمان فوق الكرسي الهَزَّاز الذي يتأرجح للأمام وللخلف. تزداد دموع أمها الفَزِعة وشهقاتها وارتعاشها، التقفتها لين داخل حضنها تُهَدهِدُها وتُرَبِّتُ على ظهرها بحنو. لم تستطع ناهد أن تجمع حرفين معًا لتحاول قول شيء، فما كان من لين إلا أن زادت في احتضانها وهي تهمس لها:

- كلُّ شيءٍ سيكون بخير يا أمي.

أعادتها إلى سريرها ودَثَّرَتها بغطائها الخفيف، وظَلَّت إلى جوارها حتى هدأت وتغَلَّب عليها النوم من صدمتها. تنظر إلى أمها النائمة وما زالت ترتجف ارتجافًا مُتَقَطِّعًا.

أخذت نَفَسًا، خرجت وأغلقت الباب خلفها. اتَّجَهت نحو غُرفة المكتب، فتحتها، لم تفتح الضوء، وقفت بمُنتَصَف الغُرفة، وبصوتٍ رغم تهَدُّجِه حاولت ضبط صرامته:

- ما الذي تريدينه؟

لم يأتِها رد؛ فأعادتها بجِدَّةٍ وأيضًا دون رد، حتى صرخت بغَضَب، فجاءها صوتٌ مُدَوٍّ من خلفها بغتةً كأنه عاصفةٌ تُطيح بكُلِّ ما يقف في طريقها:

- كُلَّ ما أخذتِه مني!

في اللحظة التالية انغلق الباب بقوة، انتفضت لين فَزِعة، التفتت رغمًا عنها نحو الباب فرأت عاصِفةً من الظلال السوداء تهتاج في الغرفة، وقبل أن تُحَرِّك ساكِنًا أطبقت الظلال يدًا على رقبتها تخنقها وتدفعها للخلف حتى اصطدمت بالجدار بعنف. تُصارِعُ بكُلِّ ما تمتلك للتخلص من قبضتها، تُكافِحُ لإبعادها عنها دون جدوى، تُعافِرُ لتتنَفَّسَ دون أمل؛ تغيَّر لون وجها للأحمر القاني، احتشدت الدموع تخنق عينيها، تشعر أنفاسها تتباعد، الرؤية تغيم، وقبل أن ينقطع الأكسجين عنها شعرت بجسدها يُلقى في الاتجاه الآخر ليصطدم ظهرها بالجدار المُقابل بقوةٍ آلمتها تأوَّهَت لها وجعًا وهي تسقط أرضًا على وجهها، فشُجَّت جبهتها، أطبقت كفيها على السجادة من تحتها تعتصرها من الألم، حاولت التحرك فلم تستطع، فقط عيناها تريان تجَمُّعَ الضباب الأسود الهائج كغيمةٍ ملأت الزاوية البعيدة من الغرفة، صوتُ حفيفٍ قادِمٌ من بعيد، وقع خطواتٍ يتخَفَّى في الضباب يقترب، سقط رأسها وأظلم كل شيء.

الجدار السادس

“الماضي يُطارِدُ الجميع دُونَ رحمة، مُذنِبينَ كانوا أو طاهرين”

فُتِحَ باب المكتب بعد طرقاتٍ خاطِفة ودخل جمال بخُطًى سريعة، الذي بدت علامات الانفعال واللهفة على وجهه، لكنه تمَهَّلَ حين وجد عاصم يجلس أمام مكتب مازن، فهدأت أنفاسه بعد نظرةٍ بينه وبين هذا الأخير، ودون كلمة جلس إلى طرف الأريكة.

ليستأنف مازن حديثه ويشير لضيفه:

- أكمل يا سيد عاصم.

- أخبَرَتني أنها لم تكن تعلم شيئًا عن أمر زواج أبيها، وأنها تفاجأت بالأمر حينما تشاجرت أختها وإيناس في الحفل، أما عَمَّا حدث بينهم، فقالت إن الأمر كان فوضويًا؛ جميعهم كانوا يحتَدُّون بالصُراخ في وجه بعضهم بعضًا، مُوَجِّهين التهديدات والوعيد، وقد خرجت أختها حانِقةً تسبُّ الجميع، وخرجت هي مهرولةً خلفها وغادرتا، ثم انقلبت السيارة بعد ذلك.

تنهد مازن بارتياح؛ لقد أكَّدَت كُلَّ ما قالته رهف، ليتساءل:

- كيف ترى حال رهف؟ فأنت قد زرتها، أليس كذلك؟

- نعم عندما طَلَبتَ مني سيادتك، وللأسف الفتاة على شفا انهيارٍ حاد.

صمت قليلًا يحكُّ جبهته بتَرَدُّد، ليحثه مازن على استكمال حديثه، فتنهد:

- لا أعرف، لكن تلك الفتاة مُحَطَّمة كُلِّيًا، لستُ واثِقًا كيف لم يلحظ أحدٌ من عائلتها سوء وضعها؟ وكيف وصلت إلى هذه المرحلة؟ الأمر مُقلِقٌ ومُزعِجٌ حَقًّا.

همهم الضابط موافقًا، لحظات ووَدَّعه ضيفه وغادر. ارتكن مازن إلى مسند كرسيه وعيناه شاردتان خارجًا، عقله يجمع كل الخيوط معًا، الصورة أصبحت شبه مُكتَمِلة بعد اعترافات رهف عن تلك الليلة المشؤومة وكل ما حدث بها، صحيحٌ أنها انهارت وتم نقلها إلى المَشفى، الذي أكَّدَ إصابتها بانهيارٍ عصبي، لكنه في النهاية حصل على ما أراده، والذي أكَّدَته لين لعاصم، لكن يظلُّ هناك هاجسٌ خفيٌّ يُعيثُ ارتيابًا في صدره، ويجاهد بكل قوته تجاهله.

انتقل جمال فجأةً إلى ذات الكرسي الذي كان يجلس عليه عاصم منذ لحظة، يرى التفكير يلتهم ملامح صديقه ونظراته، والذي كان بالفعل قد انتبه له بعد دقيقة، ليرى ابتسامةً عريضةً تملأ شدقي صاحبه، فبادله إيَّاها وهو يزفر هواجسه. أمسك الأوراق الموضوعة أمامه، وبدأ بجدية:

– أكَّدَت رهف في اعترافاتها أن دارين لم تتعاطَ المُخَدِّر في حياتها قط، وأن إيناس هي مَن كانت تتعاطى من بينهم.

– إذن إيناس هي القاتل، فلديها سلاح الجريمة بالفعل.

– بالضبط، غير إن لديها الدافع؛ لم تكن دارين لتتركها تتزوَّج والدها، وكل ما حدث بينهما تلك الليلة كان كافيًا لجعلها تقتلها.

– دَسَّت جُرعةً كبيرةً من المخدرات في كوب دارين لتتخَلَّص منها.

أمال مازن رأسه تأكيدًا، استقام واقِفًا، ليستطرد جمال وهو يشعل سيجارته:

– هشام قتل إيناس بسبب مسألة الحمل، هذا أمرٌ مَحسوم، لكن تظل لدينا مُعضِلة من قتل زياد؟ ولماذا؟

– بالطبع إيناس.

أجاب مازن بقطعيةٍ وهو يجلس بالكرسي المقابل له، ليُكمِلَ رفيقه بحيرةٍ مُتسائلًا:

– أتقصد أن زياد عَلِمَ بشَكلٍ ما أن إيناس من وضعت المخدرات لها؟

– هَدَّدَها أو ابتَزَّها، لا يهم، رسائله للين كانت واضحة؛ "أنا أعرف حقيقة ما حدث تلك الليلة"، ولذلك تحديدًا قتلته إيناس، كي لا يفضح أمرها.

– الأمر كان بسيطًا؛ جميعهم يعرف أمر هوسه بتحضير الأرواح.

– خَطَّطَت للجريمة ونَفَّذَتها، ألصقت التهمة بالأرواح لتشتيتنا.

اعتدل مازن في جلسته وابتسامةٌ نصره تملأ شدقيه، فرك جمال مُؤخِّرَة رأسه بنظرةٍ مُبهمة؛ زوى مازن بين حاجبيه بعدم فَهمٍ لردِّ فِعله:

– ماذا؟

– لماذا كتبت على الجدار دارين ووَجَّهت العيون نحو قضية قتلها؟

حَكَّ مازن لحيته بملامح مفكرة:

– بسبب رسائله للين، بالتأكيد هي تعرف هُراء أن شبح دارين يطارده، فأرادت تأكيد الفكرة لإبعاد الشبهات عنها.

– ربما، لكن لماذا الآن؟ لقد مَرَّت على الحادثة أربع سنوات، لماذا الآن ابتَزَّها؟

– ربما كان يفعل طوال الوقت، والآن قَرَّرَت أن تضع حَدًّا للأمر.

استغرق جمال في التفكير، ثم أتبع بحيرةٍ ما جاء مُتعَجِّلًا من أجله:

- إذن إيناس هي من تلاعبت بمكابح السيارة، لتضمن موتها بكُلِّ الطُرُق.

التقفت مازن دهشة عارمة أسكتته وحفرت طريقها على وجهه، أخذته الصدمة لحظاتٍ قبل أن يهتف بعجب:

- أية سيارة؟

- سيارة دارين.

- أتقصد... ؟

أومأ جمال موافَقَةً، ومال بجذعه العلوي للأمام وعيناه تُشِعَّان ببريق الظافر:

- نعم، السيارة التي كانت تقودها ليلة الحادث.

- أكمل.

هتف الآخَر بانفعالٍ وحَماسٍ يركض بين أنفاسه، ليُتبِع جمال:

- لقد بحَثتُ في شأنها، وبالفعل عَلِمتُ من السيد مراد أن السيارة تم نقلها إلى أحد وِرَش التصليح على الطريق وقت الحادث، وأخبرني صاحب الورشة أنه تَمَّ التلاعب في مكابح السيارة.

تحوَّلَ وجه مازن إلى اللون الأحمر من شدة اهتياجه، ليتساءل باستعجال:

- هل أنت متأكِّدٌ مما تقوله؟

- طَبعًا.

- لكن كيف تَذَكَّر حادثةً منذ أربع سنوات؟ يمرُّ عليه الكثير من السيارات والحوادث!

- لكن لا تنقلب أمام ورشته سيارة يوميًّا.

- ماذا؟

- لقد انقلبت السيارة على بُعدِ أمتارٍ من ورشته، وهو أحد الذين نقلوا الفتاتين إلى المَشفى؛ لذلك يتذكر كُلَّ شيءٍ يخص هذه الحادثة بالذات.

- كيف لم يُخبِر الشرطة وقتها؟

- لم يكن هناك تحقيقٌ بشأن السيارة، ولم يستدعِه أحد، لكنه أخبر من ذهب لأخذ السيارة بعد الحادث بأنه لم يُصلح بها شيئًا، لأنه يُوقن أنه تَمَّ التلاعب بمكابح

السيارة، والحادثة لا بُدَّ أن تكون مُدَبَّرة، فأخبره الرجل أنه سوف يُخبِرُ الشرطة وأتى بعَرَبةٍ لنقل السيارة وأعطاه المال ورحل.

ارتسمت علامات الحيرة على وجه مازن، وخرج صوته مُتَحَشرِجًا من الاضطراب وعدم الاستيعاب:

- لماذا يُخفي السيد مراد عن الشرطة أمرًا كهذا؟

- هذا إن كان السيد مراد يعلم عن الأمر.

- ألم تَقُل إن صاحب الورشة أخبره؟

نهشت علامات التعجب نظراته وصوته المتقطع من الذهول، ليرد جمال بابتسامةٍ غامضةٍ كنظراته:

- لم أقل إن السيد مراد من تَسَلَّم السيارة.

- إيناس من استلمتها؟

أشار جمال نَفيًا بابتسامةٍ غامضة، فضيَّق مازن بين حاجبيه بحيرة:

- من الذي فعل؟

قُربَ منتصف الليل استيقظ كُلُّ مَنْ يقطن بالبناية على دَويِّ طرقاتٍ عنيفةٍ بالدور الثالث على أحد أبواب الشقق يكاد يصُمُّ الآذان، وسمعه من بأول الحي وآخره، لكنه لم يُسمَع مِمَّن يسكنون الشقة التي يُطرَقُ على بابها بكل هذا العنف؛ لا يأتيهم رَدٌّ من الداخل، ولا حتى همسة تُوحي أنَّ سُكانها يسكنون ذات الكوكب. تبادل المُحتَشِدون النظرات المُبهمة، قبل أن تستَقِرَّ أعينهم على جمال، الذي أومأ لرجاله المتحفزين بكسر باب الشقة.

كُسِرَ الباب، وبأقل من ثوانٍ كانوا ينتشرون داخل الشقة الساكنة، كُلُّ شيءٍ يبدو هادئًا مُنَظَّمًا في مكانه، إلا من كرسيٍّ واحدٍ ساقِطٍ على الأرض. الصمت يُحَلِّق في المكان، قبل أن يَشُقَّه هتافُ أحد الجنود من داخل المطبخ؛ ليهرول جمال إلى الداخل فيجد جسد سامح جالسًا أرضًا يرتكن إلى أحد الجُدران المُلَطَّخة بالدم، قدماه مُمَدَّدتان أمامه ترسم الدماء المتجمدة طريقًا بينهما، ويداه مُتَدَلِّيتان إلى جَنْبيه دون حراك مُلَطَّخَتين بالدماء، ورأسه المَشجوج من الخلف مائلٌ على كَتِفه اليُمنى. اقترب جمال، تَفَحَّص نبضه، لكنه كان قد فارق الحياة بالفعل. لَمَحَ شيئًا يلمع في راحة يده اليُمنى المُتكَوِّرة،

أخرج منديلًا، فتح الكَفَّ والتقط زِرًّا ذهبيًّا يبدو أنه انتُزِعَ من سُترة شَخصٍ ما، أو بالأحرى قاتِلٍ ما.

لم يكن يعي تمامًا ما الذي يحدث حوله، لا يكاد هشام يصدق ما يحدث له؛ بالتأكيد هذا مُجَرَّدُ حلمٍ سخيف، بل هو كابوسٌ مُريع، ربما لو أغمض عينيه وعَدَّ حتى العشرة سيختفي كأنَّ شيئًا لم يكن؛ وضع رأسه بين كفيه وأغمضهما بالفعل وراح يعدُّ للعشرة، ثم فتحهما، لا شيء تغَيَّر، ما زال هنا؛ أوصدهما بإحكامٍ وزاد العَدَّ حتى العشرين، بل الثلاثين، وفتح... تبًّا! ذات المكان، يدسُّ رأسه أكثر بين كفيه ويُطبِقُ أنامله بعُنفٍ على خصلات شعره، يكاد ينخلع من شدة إطباقه عليه، لكنه بالحقيقة يُحاول خلع أفكاره عن رأسه، كي لا يُجَن، لا يصدق أن الشرطة اقتحمت منزله وفَتَّشَته بالكامل وقبضت عليه، لم يضعوه في الزنزانة، هو فقط حبيسُ هذه الغرفة اللعينة وحيدًا مع هواجسه ومخاوفه، ومليون احتمالٍ يقوده نحو الجنون.

انتشله من عواصف اضطرابه صوت باب الغرفة يُغلَق بقوة؛ انتفض في مجلسه مَذعورًا ليجد مازن يقف أمامه، تأمَّلَه للحظةٍ قبل أن يُلقي ملفًّا فوق مكتبه ويجلس بالكرسي المقابل له. تَفَرَّسه بنظراته الواثقة وأنفاسه الهادئة، ساكِنًا برصانته للدقائق مدروسة، يعرف جيدًا بخبرة سنواته الطويلة في العمل على مثل هذه القضايا كيف يتلاعب بفريسته ويحطم قواها دون حَرف، ويجعلها قابَ قوسين أو أدنى من السقوط، فلم يتركه وحيدًا منذ لحظة ألقى القبض عليه صدفة، هذا تحديدًا ما أراده، وهذا الاضطراب عليه يؤكِّدُ أنه وصل للحظة التي لن يصمد بعدها.

ازدرد هشام ريقه بصعوبة، حتى شعر للحظةٍ به أشواكًا تجرحه كلما ابتلعه، كسر حاجز الصمت الذي لم يعد يحتمله:

- هل لي أن أعرف لماذا أنا هنا؟ ولماذا تحتجزونني منذ يومين أو أكثر في هذه الغرفة؟

تلَبَّسَ وجه مازن ملامِحَ جديةً وصارمةً وهو يُخرِجُ من جيب سترته كيسًا بلاستيكيًّا شفافًا صغير الحجم، ألقى به فوق الطاولة بينهما، حين تأمَّل هشام ما بداخله، والتَمَع زِرُّ السُترةِ ببريقٍ خافِتٍ لَطَّخَته الدماء أغلق عينه بخيبةِ أملٍ وأعاد رأسه بين كفيه، وعَلِمَ أنَّ كُلَّ شيءٍ قد انتهى، انحنى مازن للأمام وشابك كفيه، وبنظرةٍ ذات مغزى:

- قبل أن تُفَكِّرَ في قول أيِّ شيء، فقد صَوَّرَتك إحدى كاميرات المراقبة في الشارع بأحد المَحال القريبة من البناية وأنت تُغادِرُ مهرولًا بذات توقيت الجريمة.

عاد هشام بظهره للخلف وغاص في الكرسي الوثير، أرخى رأسه وأراحها على المسند خلفه، وأخيرًا توقَّفت طاحونة الخوف والقلق والاحتمالات التي ظَلَّت تسحق أفكارَه وأعصابه للفترة الماضية؛ فشعر بثقلٍ كبيرٍ يسقط من فوق كتفيه، وغمره هدوءٌ تجَلَّى واضِحًا على سكون ملامحه لم يكن مُتَناسِقًا مع الوضع الحرج الذي هو فيه، حاول أن يبتسم ابتسامةً هادئة، لكنها وُلِدَت كئيبةً وماتت على طرف فمه في غضون ثوانٍ.

وضع كفيه على وجهه بذات اللحظة التي دخل بها جمال، وغاص داخل ذاته فلم ينتَبِه، وضع الأخير كيسًا ورقيًّا كان في يده فوق الكُرسيِّ ووقف في زاوية الغرفة دون أن ينبث ببنت شفة، عاقِدًا ساعديه فوق صدره. تبادل مع صديقه النظرات دون كلمة.

ابتلع هشام ريقه هذه المرة بكُلِّ أريحيةٍ دون أن يشعر بشيءٍ يجرح حلقه، فتَبَسَّم ابتسامةً خاطفة لهذا الشعور، وما زال مُستَقِرًّا بوضعه مُثَبِّتًا ناظريه أمامه في الفراغ والهدوء يتملكه:

– لا يهم إن كُنتَ ستصدق ما سأقوله أو لا، لكنني حَقًّا لم أقصد فعل هذا؛ لقد تشاجرنا، وفي لحظةٍ دفعته للخلف، وفي التالية وجدته يسقط أمامي مُضرجًا بدمائه، تحَسَّستُ نبضه، لكنه لم يكن هناك، ولم أعرف ماذا يجب عليَّ أن أفعل؛ هرَبتُ دون تفكيرٍ في أيِّ شيءٍ سوى الخروجِ من هناك بأقصى سرعة.

أشعل مازن سيجارةً وأعطها له وهو يُكمِل:

– لماذا تشاجرتما؟

وأشعل سيجارةً أخرى لنفسه، بينما سحب هشام نَفَسًا طويلًا من سيجارته، قبل أن ينظر نحوه بصمت، رفع مازن حاجبه ورماه بنظرةٍ ثابتة:

– هل كان يُهَدِّدك؟ يبتَزُّك لأجل جريمةٍ أخرى ارتَكَبتها؟

ارتعش بؤبؤ عينيه للحظة، وارتعش معه شيءٌ بداخله، قبل أن يزفر دخان سيجارته وما زال على صمته، ليُتبِعَ مازن وهو يُدَقِّقُ النظر بملامحه:

– كقطع مَكابِح سيارة دارين مَثَلًا.

يشعر بحبل الصمت يلتفُّ حول عنقه يخنقه، ليستطرد الآخر:

– كانت تعلم عن علاقتك بإيناس في ذلك الوقت، أنت من كانت تعنيه بحديثها عن العاهرة في سرير رَجُلٍ لامرأةٍ أخرى، أليس كذلك؟

أغلق عينيه بيأس، تَبًّا للماضي! أن لا شيء يُخفيه ويُخفي كُلَّ أخطائه من حياتنا؟ لماذا لا يُمحى من تاريخنا مثلما تُمحى ذكرياته من عقولنا؟ أو على الأقل يندَثِر معها؟ يعود دومًا ليهدم كُلَّ ما حاربنا لنَصِلَ إليه، ويهدم وجودنا وحاضرنا ومستقبلنا. دَسَّ يده في شعره يُطبِقُ عليه بإحكامٍ لعَلَّه يُطبِقُ معه على عقله الذي بدأ يُغادره، رَدَّ بصوتٍ مُتَقَطِّع:

- في وقتٍ سابق اتَّفقتُ معه على إتلاف مكابح السيارة، كنت أمور غَضبًا منها، عَرفتُ أنها علمت بشأن علاقتي بإيناس، وأنها سوف تهدم المعبد فوق رؤوس الجميع؛ وذلك انتقامًا من إيناس قبل أن يكون انتقامًا مني، لأجل موضوع الزواج من والدها، وتأكَّدَ لي حدسي حين بدأت تلك اللعبة الغبية، لكنَّني بعد ذلك طلبتُ إليه ألَّا يفعل.

- لكِنَّه فعل، أليس كذلك؟

بدأ الاهتياج يشُقُّ طريقه إلى صدره:

- لقد أخبرته ألَّا يفعل، واعتقدت أن الأمر انتهى عند هذا الحد، وحينما وقعت الحادثة، لَعِبَ الشك بصدري أنه قد فعل، حتى اليوم الذي ذهب فيه لإحضار سيارتها؛ جاء وأخبرني أن صاحب الورشة أخبره أن أحدهم تلاعب بمكابح السيارة، لم يُصَدِّق أنَّ لا شأن لي بالأمر، واتَّهَمني أنني كَذَبتُ عليه كيلا أدفع له الأموال التي اتَّفَقنا عليها، وكذلك اتهمته أنا بأنه من فعل ذلك، لأجل إيصالات الأمانة التي هَدَّدَته دارين أنها سوف تَسجُنه بها إن لم يدفعها؛ فإن كان لديَّ الدافع، فكذلك لديه دافِعٌ أكبر، ولم أُعِره اهتمامًا بعدها، حتى ذلك اليوم.

صمت يستَرِدُّ أنفاسه وقد تصاعد حنقه المكظوم إلى ملامحه وتخَلَّل نبرته، ليتساءل جمال باهتمام:

- أي يوم؟

- حين أتى زياد وهَدَّدني بأنه سيفضح أمرَ كِلَينا.

- زياد كان يعلم بأمر المكابح؟

تساءل مازن بدهشة، ليمسح هشام على وجهه بضيقٍ مؤكِّدًا:

- لقد سَمِعَنا ونحن نتفق على الأمر في البداية، وبعد وقوع الحادثة أتى وهَدَّدَني، حاولت إخباره أننا تراجعنا عن الاتفاق، أو على الأقل فَعَلتُ أنا، لكنه لم يصدق، والأسوأ، كان لديه تسجيلٌ صوتيٌّ لاتفاقنا ليلتها على هاتفه، فلم يكن أمامي إلا أن أدفع له الأموال ليتوقَّف عن تهديده لي، وحينما جاء وطلب أموالًا مجددًا رفضت، وأخبرته أنه

إن أبلغ الشُرطة فسوف أخبرهم أنه شاركنا في ارتكاب الجريمة، وخاصَّةً أنني دفعت له الأموال عن طريق تحويلٍ للبنك، وهو ما يُثبِتُ تورُّطه معنا، فتراجع عن تهديداته.

تبادل كلا الضابطين النظرات بصمت، ليتساءل جمال باهتمام:

- وماذا عن المخدرات؟ هل كنت تعرف بشأنها؟

شُدِهَ وهو يلتفت نحوه ويتساءل بعدم فهم:

- أيِّ مخدرات؟

- التي وضعتها إيناس في كأس دارين؟

هتف مازن بتساؤلٍ أكثر منه تقريرًا. فغر فاه ذهولًا وعيناه المُشَتَّتان اللتان تركضان في كُلِّ اتجاه كأفكاره تحاولان فهم ما يسمعه؛ هل القدر يسخر منه إلى هذا الحد؟ هل المرأة التي كانت تهدده منذ عدة أسابيع بفضح أمره وأنه قاتِل هي أيضًا قاتلة؟ أتلك العاهرة كانت تبتَزُّه وهي من يجب إعدامها؟ فغمغم لنفسه بصوتٍ تائه: "هل فَكَّرَت بقتلها بذات الوقت الذي فَكَّرتُ أنا أيضًا فيه؟ تبًا يا دارين، كُنتِ لتموتي بكُلِّ الأحوال!"، سحبه من جُبِّ هواجسه سؤال مازن المُرتاب:

- هل كانت دارين تتعاطى المخدرات؟

- لم يحدث مُطلَقًا، إيناس من كانت تتعاطى.

- تقرير المَشفى أكَّد أنه كانت هناك جرعة مخدرات زائدة في دماء الضحية.

أعادته كلمة الضحية إلى الواقع كأنها للتو قُتِلَت، اغتاله شعورٌ غريبٌ بالألم، ربما لم يتمكن منه حينها. فكرة أن موتها في تلك الليلة كان أمرًا حتميًّا أشعل فتيل حزنه ليعتَصِره من الداخل، خَبَط مازن كلتا فخذيه وهَمَّ واقِفًا:

- إذن أنت قَتلتَ سامح خطأً لأنه هددك، وقتلت إيناس كونها حاملًا منك، وقتلت دارين، وإيناس قَتَلَت زياد، وقَتَلَت دارين، كلاكما شارك في قتلها، حتى وإن كان دون عِلمِ الآخر.

- ماذا؟

انتفض مُعتَدِلًا وعلامات الصدمة تملأ وجهه:

- لم أقتل أحدًا، وقتلي لسامح كان خطأً؛ لم أقصد إيذاءه.

- لقد أرسلنا بالفعل للمعمل الجنائي بصمتك الوراثية، وخَمِّن ماذا!

أصبح مازن خلف مكتبه، أمسك الملف الذي ألقاه فوقه حين دخل، رفعه للأعلى:

- الطِفلُ لك، لم يعد من سبيلٍ لتُنْكِر. أتعلم ماذا وجدنا أيضًا في منزلك؟

أشار لجمال، الذي سحب من الكيس الورقي الذي كان بيده مُفَكِّرةً صغيرةً سوداء اللون داخل كيسٍ بِلاستيكي، ألقى بها فوق المكتب، تفصد العرق على جبين هشام وهتف باضطرابٍ ونَبرةٍ مُهتَزَّة:

- ليست لي، لا أعرف عنها شيئًا.

- أعلم أنها ليست لك، لأنها لإيناس.

تهَدَّلت أكتافه وانزوى قلبه بين ضلوعه، زاد تعَرُّقه وارتعاشه، ليُكمِلَ جمال:

- كانت مُخَبَّأةً ومُثَبَّتةً بإحكام أسفل خزانة ملابسك، وبها اعترافٌ كامِلٌ من إيناس بأنك والد الطفل، وأنَّك من قتل دارين بالتلاعُبِ بمكابح السيارة، وأنك ستحاول التَخَلُّصَ منها هي والطفل.

سقط على الكرسي من خلفه وعينه تائهةٌ في الفراغ لا يَقدِرُ على كلمة، ليُتبِعَ مازن وهو يسحب ناظريه المُشَوَّشين نحوه بصوته المُنفَعِل، ويسحب معه بعضًا من انتباهه الشارد نحوه:

- وخَمِّن ماذا؛ لقد وجدنا كذلك سلاح الجريمة مُخَبَّأً معها، السكينة التي نُحِرَت بها، وطَبعًا ليست مفاجأة أن عليها بصماتك.

كُلُّ شيءٍ يهرب منه، حتى الحروف، وهرب معها آخر ما تبقى من تماسكه، فلا يرى الآن إلا ضَبابًا يُخيِّمُ على سماء أفكاره المُلَبَّدة بالإخفاقات، كُلُّ شيءٍ يسحبه نحو الهاوية، هل انتهى كل شيءٍ في طرفة عين؟ هل سحقته تلك الغبية حيَّةً وميتة؟ أحَقًّا وصل إلى هنا وتلك نهايته الحتمية؟

لم يَعِ ما قاله الضابطان بعد ذلك، هما قالا الكثير، لكن لم تكن الكلمات تصله؛ تتساقط جميعها على عتبات عقله، تتبخر في الفراغ قبل أن تعبر نوافذ عقله، كُلُّ شيءٍ به تهشم، وتهشم معه ما تبقى من فُتاتِ صموده، لا سبيل ولا مَفَر، لقد تحَدَّدَ مصيره منذ أربع سنوات، بذات اللحظة التي اتَّخذ بها قرار القتل، ولا يهُمُّ ارتكاب الجريمة من عدمه. اكتشف الآن أن تلك لم تكن يومًا المُعضِلة، حتى إن الله -عز وجَلَّ شأنه- يعاملنا على قَدرِ نوايانا قبل قيامِنا بأفعالنا.

إذن اتخاذ القرار بحَدِّ ذاته يُمَثِّل الحَدَّ الفاصل؛ أن تأخذ قرارًا يعني أنك تعي تبعاته، توافق عليه بكامِلِ إرادتك ومُطلَقِ حريتك، حتى وإن أوهمت نفسك أنك مُجبَرٌ على فعله،

هي مُجَرَّدُ حُجَّةٍ ضعيفة، خدعةٍ واهيةٍ لطَمسِ الحقيقة الوحيدة التي توقنها بداخلك والتحايل عليها أنك قد عبرت حدك الفاصل واخترت طريقك، صحيحًا كان أم خاطِئًا، وما سوف يُوصِلُكَ لهلاكك عاجِلًا أو آجِلًا، إثمٌ واحدٌ كفيلٌ لسَحبِك داخل جُبٍّ من الخطايا.

مضى شهران أو أكثر، ضرب الخريف قلاعه وأقام خيامه في كل مكان، وحَطَّ ضيفًا مُتغير الأحوال، طِفلًا عَصِيَّ المزاج، وببعض الليالي المنفردة راحت البرودة تُعلِنُ عن وجودها بقسوة، كتلك الليلة الظلماء التي استوت بها السماء قاحلةً من نَجمٍ واحدٍ يضيئها، والقَمَرُ متوارٍ يستحي أن يُرَى دون حاشيته البهية، وضرب برياحه المُتَقَلِّبة؛ تارَةً بعُنفٍ وتارَةً بخِفَّة، وضرب درفة النافذة بقوةٍ فجفلت والدة رهف، التي تقف بجانب سرير ابنتها المستلقية فوقه لا تعي شيئًا.

امرأة بيضاء البشرة تَخَطَّت الخمسين ربيعًا بجَسَدٍ ممشوق، ما زال يتمتع بجاذبيته وأناقته، بشَعرٍ أسود مَعقوفٍ للخلف تتخَلَّله شُعيراتٌ بيضاء، يملأ عينيها السوداوين الحزن والدموع ألمًا على حال ابنتها التي أصابتها أزمةٌ نفسية صباح هذا اليوم. تقف أمام جسدها المُستلقي داخل السرير، لا تعرف أتغضب من ابنتها أم تُشفق عليها، أتغضب منها لهذا العشق المجنون الذي تُكِنُّه لهشام الذي خانها؟ لا تعرف كيف وصلت في حبه إلى هذه الدرجة التي جعلتها فعلت كل هذا لمساعدته، وَكَّلت له أشهر المحامين، ودافعت عنه في التحقيقات، حتى إنها أقسمت إنها رأت شبح دارين، وأنه هو الذي يقتل الجميع، حتى ظنوها مجنونة، حتى بعد أن أصبح أمر إيناس، الذي أكَّدَه تحليل البصمة الوراثية وأن الطفل له أمرًا فَصلًا، كَذَّبتهم ولم تصدق ما كان بينهما، أم تُشفِقُ على حالها هذا؟ على مرضها بحبه مَرَضًا قد لا تُشفى منه؟ فالآن فقط، وبعد رؤية حال ابنتها المُتَرَدِّية في حُبِّه، آمنت أن ببعض الأحيان يكون الحُبُّ مرضًا عُضالًا، داءً خبيثًا لا دواء له.

تنهدت بأسًى خَيَّمَ على صدرها وهي تتذَكَّر ما حدث لها ظهر اليوم داخل قاعة المحكمة بعد سماعها حُكمَ الإعدام عليه، داهمتها حالة صَدمةٍ وفقدت الوعي؛ نقلوها للمَشفى، أقَرَّ الأطباء بحالة انهيارٍ عصبيٍّ حاد، فاقت تلك التي أتت بها يوم التحقيق معها، وأصَرُّوا على احتجازها عدة أيامٍ لتبقى تحت الملاحظة، ورغم معارضة والدها الشديدة، فليس من يقبل أن يُقال على ابنته إن لديها عطبًا نفسيًّا أو عقليًّا، فكلاهما لديه واحد؛ ابنته مجنونة، لكن والدتها، المُرغَمَة مثله، والتي تؤمن بما يؤمن به، أقنعته مُكرَهةً أن تظلَّ ابنتهما بالمَشفى للتأكُّدِ من سلامتها على الأقل الليلة فقط، فرضخ

مُتأفِّفًا. اطمأنَّت على فتاتها، تأكَّدت من إغلاق النافذة كيلا يصيبها البرد، وأنها غارقة في نومٍ عميق، تنهدت بحزنها وقَبَّلَت رأسها، دَثَّرَتها وغادرت الغرفة.

بذات اللحظة التي أغلقت الباب فتحت رهف جفنيها المتثاقلين لأقل من ثانية، ثم أغلقتهما رغمًا عنها، ثم عادت وجاهدت لفتحهما، تشعر بثقلٍ كبيرٍ يقبع فوقهما، خدرٌ هائلٌ يستحوذ عليها، يجتاح كل طَرَفٍ بها، تصارِعُ لرَفع جفنيها، يحاول عقلُها انتزاع وعيها المهرول إلى الفراغ. قَلَّبَت الطرف بأرجاء الغرفة، عينها لا تأنس المكان، بالتأكيد ليست غرفتها، استرعى انتباهها السرير المائل المستلقية عليه، والأجهزة الطبية من حولها، إنها بمَشفى؛ ليخطفها سؤالٌ بديهيٌّ عن الذي حدث وكيف وصلت إلى هنا، تجَمَّدَت أفكارها فجأةً وعاد جفناها لإغلاقهما، لكنها تلك المرة من استسلمت لهما وهطلت الدموع الساكنة تُغرِقُ وجهها؛ لقد استعادت ذكريات كل ما حدث ظهر اليوم في المحكمة.

هشام، الذي كان يقف خلف القُضبان صامِتًا تمامًا، حتى حين سُمِعَ دَويُّ حُكمِ الإعدام في المحكمة، وانفلتت صرخات أمه وأخته، وسقط والده في مكانه من هول الصدمة، وتجَمَّد أخوه في مجلسه. عَمَّتْ الفوضى القاعة، إلا هو، لم يهتز له طرف، حَطَّ الصمت كالموت عليه وتمَلَّكه سكونٌ عجيب، راودها خاطِرٌ غريب: "ربما يستقبل قدره بهدوءٍ وتَقَبُّلٍ لأنه يعرف أن مصيره قد حُسِم، هل هدوؤه هذا يعني أنه حقًا...؟"

وقبل أن تترك العنان لمليون احتمال يتسارع داخلها، غشاها شعورٌ تألفه، نَهشها بضراوةٍ فاحمَرَّ وجهها ورَجَّتها رجفةٌ عنيفةٌ من الداخل، "تبًا، إنهم هنا!"، هدر الخوف من الأعماق يهزها هَزًّا، صوتُ أنفاسها في علوٍّ من فرط اهتياج صدرها الذي راح يعلو ويهبط سريعًا، أطبقت أطرافها على الشراشف أسفلها بكُلِّ ما استطاعت أن تستدعي من قوى خائرة، وكالعادة، خانتها عيناها وفُتِحَتا فجأة؛ لترى الضباب الأسود يحوم فوقها، يملأ سقف الغرفة، أرادت الصراخ، فحُبِسَ صوتها بحلقها، شُلَّ جسدها بالكامل، لا يتحَرَّك بها سوى بؤبؤ عينيها المفزوعتين، عَشَّشَ الذعر بين ضلوعها يكاد يلتهمها، ونظراتها التي ما زالت تتآمر ضدها تتبع الضباب الأسود الذي راح يتشَكَّلُ بأشكالٍ قبيحةٍ مخيفة، تتوهَّجُ أعينها المشتعلة بنيرانٍ من الجحيم، حتى استَقَرَّ كُتلةً واحدةً في الزاوية مقابلها.

حاولت التحرك، لكنها ما زالت مُكَبَّلةً داخل خوفها، تشعر به ينخر كل عَظمَةٍ فيها، أغلقت عينيها عَلَّها لا ترى المزيد، فقد اختبرت هذا الشعور القاتل مليون مرةٍ حتى مَزَّقها، فليقتلوها الآن. سالت دموع روعها تخنق شهقاتها المرتعبة، آه لو يعلمون أن الخوف يؤذينا أكثر من الألم! يحطمنا من الداخل، يهشمنا إلى ألف قطعةٍ مُشوَّهةٍ لا

يمكن إصلاحها، تبًّا لهم، إنهم بالفعل يعلمون، وإلا ما كانوا ليتلَذَّذوا بذُعرِنا في كل مرة. تلعن حَظَّها العاثر، لماذا استفاقت؟ لماذا تلاشى مفعول المخدر الذي حقنوها به الآن؟

مَرَّت لحظات وعيناها ما زالتا مغلقتان وكَفَّاها ما زالتا قابضتين على الشراشف، استشعرت نسمةً خفيفةً قريبًا منها، غطيطًا ساخِنًا، تسمع هزيزه من شِدَّة الصمت الجاثم على المكان، ثَقُلَتْ أنفاسها المضطربة، تَشَبَّثَت يداها بالشراشف أكثر، تجَمَّد عقلها، إنها أقرب مما اعتَقَدَت؛ تكاد تلمس خدها، بل كامل وجهها. «لا تفعليها، لا تكوني غبية»، عصف عقلها صارِخًا ليرفُضَ ما تفكر فيه، لكنها كانت أغبى، وفتحت عينيها فجأةً. ضربتها رجفةٌ من الأعماق حتى سُمِعَ صداها بين جنبات عَقلها المُتَجَمِّد من هول مرأى المُتَجَسِّدة فوقها مباشرةً لا يفصلهما شيء، لا شيء؛ وجه دارين يكاد يكون مُلاصِقًا لها، بعينيها الحمراوين ووجهها الأسود الملتوي كرأس الحية، تشعر بأنفاسها الساخنة كالجحيم تلفَحُ كامل وجهها الذي شحب، وانحبست الدماء بعروقها المتجمدة، والأخرى تهمس لها بفحيحٍ خافِتٍ أوقف نبضها: "لا تعتقدي أن اللعبة قد انتهت؛ إنها للتو بدأت!".

ثم شعرت بغتةً بجسد الحية الملتوي يلتف حولها يعتصرها، تئنُّ بصوتٍ مخنوقٍ من الألم وهي تسمع صوتَ عظامها يتكَسَّر، تشعر الاختناق ورقبتها تُدَقُّ فقرةً تلو فقرة، تخمش لحمها بضراوة، كادت الروح تغادرها من شدة الألم، وغامت الرؤية حتى أظلمت تمامًا، ولم تشعر في الثانية التالية إلا وأيادٍ عديدة تتخَطَّفها، تُقيِّدها، وصرخاتها المذعورةُ تَهدر في المكان توقِظُ القاصي والداني. حين ارتَدَّت لعينيها الرؤية وجدت حولها طاقمًا من الممرضات والأطباء يحاولون الإمساك بها، يصرخون أنها تحاول إيذاء نفسها وهي تجاهد للإفلات من بين أيديهم، يحقنونها بشيءٍ في كلتا ذراعيها المُثَبَّتتين، اللتين حين لمحتهما لنصف ثانيةٍ خاطِفة وجدتهما تمتلئان بالخدوش العميقة وتَنزِفان بغزارةٍ كساقيها، ولمحت الدماء تُلَطِّخُ صدرها.

عادت تشعر بثقلٍ يسري في أطرافها، المخدر يسحبها إلى غياهب الظلام، تريد أن تخبرهم ألَّا يجعلوها تعود للنوم ثانيةً، سوف تقتنصها الأشباح، أرادت الصراخ أنهم يقدمونها وجبةً جاهزةً ليلتهموها، ألَّا يلقوها للنوم، سيتلَقَّفها الجحيم، لكن صرخاتها تبَخَّرَت بين ضلوعها، اختَلَّ وعيها بالكامل، ترَنَّحت رأسها، واستسلمت أطرافها، وآخر ما وعته أمها المُرتاعة تقف بالزاوية يتجلَّى الذُعرُ على ملامحها، ومِن خَلفها تقف دارين تغمز لها بطرف عينها بخُبثٍ وابتسامةٍ شيطانية. صَرَخت: "ليسَ أمي، لن أحتَمِلَ فقدها! يا دارين لا تفعلي ذلك أرجوكِ، أتوسَّلُ إليكِ!"، لكنَّ الصرخة دَوَت داخلها دون أن تغادر شفتيها، حاولت الصراخ على أمها تُحَذِّرها وهي ترى الضباب يلتفُّ كحيَّةٍ

يبتلعها، لكن المخدر قد أتى عليها كُلِّيًا. تراخى جفناها، تساقط وعيها، وسقط معه رأسها على الوسادة وأظلم كُلُّ شيء.

الجدار الأخير

“إجابات الحاضر تَقبَعُ بين مَتاهة
المَاضِي، لكن ليس الجميع يمكنهم إيجادها،
وليس كُلُّ مَن يتجوَّلُ
بينها يَستَطِيعُ العودة، البَعضُ
لا يَعُودُ من المَاضِي أبدًا”

تجلس لين بقاعة الاستقبال الكبيرة، لم يكن المكان مُكتَظًّا بالناس، ثَبَّتَت نظرها على الكرسي الفارغ أمامها، تنَفَّسَت بعُمقٍ وحاولت الهروب من العيون المُحَدِّقة فيها ولا يراها غيرها، راحت تُقَلِّبُ نظراتها في السماء البعيدة، مُلبدة بالغيوم المُتناثرة في صفحتها الزرقاء؛ فقد أرخى الشتاء سُدُوله على كل الدروب. رأت قطرات المطر الخفيفة تتساقط، شعرت أن السماء تبكي، تُشارِكها وجعها؛ فاليوم ذِكرى وفاة أختها.

تنهدت وأصابعها المتوترة تفرك بعضها بعضًا، كلما فكرت فيما حدث في الشهور الماضية لا تُصدق أن كل هذه الأحداث وقعت فيهم، أرسلت شعرها الطويل إلى خلف كتفها وأرسلت معه أفكارها إلى يومِ الحُكمِ في القضية، حين سَمِعَت حكم الإعدام على هشام بأذنيها، خَيَّمَ عليها هدوءٌ غريب، لم تشعر به منذ أربع سنواتٍ مضت، سلامٌ نفسيٌّ حَلَّ عليها وهي تراه يجلس بموضعه ويضع رأسه بين كفيه دون أن ينبث ببنت شفة، لم تعتقد أن هذا الشعور الغريب بالراحة كان ليغمرها هكذا.

والآن ترى كل هذا شريطًا سينمائيًّا يمر سريعًا أمامها، وكأنه لم تَمضِ ثمانية أسابيع كاملة منذ النطق بالحكم. هدأ كل شيءٍ نسبيًّا، توقفت الصُحُفُ عن نشر المزيد حول القضية، التي بدأت منذ أربع سنوات في ليلةٍ عاصِفةٍ في حفل حميميٍّ جمع ستة أصدقاء مُقَرَّبين ليحتفلوا بعيد مولد أحدهم، واستُهِلَّت بقتل أحدهم، وانتهت الآن بقتل ثلاثَةٍ آخرين وإحالة أوراق الخامس إلى مُفتي الديار، والأخيرة تم تحويلها إلى مَصَحَّةٍ للأمراض العقلية، هكذا انتهى كُلُّ شيءٍ بشَكلٍ عاصِفٍ كما بدأ.

لم تأتِ الأخبار على ذِكرها إلا لُمامًا؛ فقد حرص مازن على إبعادها عن الأضواء، فلم يشأ أن تُفسِدَ شائعة تواصلها مع الأرواح قضيته المُحكَمة، خاصةً مع الأدلة الدامغة التي قدمها في حل القضايا، وصمت هشام كان دليلًا آخر، ومع ذلك أغلب تفاصيل القضية تَمَّ تداولها في البداية بشَكلٍ أقرب إلى الحقيقة، ثم راحت تُطَعَّمُ بالشائعات والأكاذيب، وتُنسَجُ حولها الحكايات والخيالات، خاصَّةً فيما يتعَلَّق بالشبح المُنتَقِم، لكن أسرع مما أُضرِمت النار في الهشيم خَمدَ الرماد حينما طَفت على السطح قضيةٌ جديدة طرأت على الساحة؛ سقوط عددٍ من الضحايا بسبب إطلاق نارٍ عشوائي أثناء احتفالاتٍ صاخبةٍ بأحد الأفراح.

تنفس الجميع الصعداء وراحت الحياة تعود إلى سابق عهدها، انشغل الضابطان بقضيةٍ جديدةٍ، بعد أن حَصَلا على ترقية، لكن ما أثار استغراب لين هو إبقاء مازن خَطَّ تواصُلٍ بينهما بعد انتهاء التحقيقات، ولن تنسى ذلك اليوم الذي وجدته فيه أمامها داخل دار الأوبرا؛ جَلَسَا معًا بالمقهى، وسألها عن أمر علمها بشأن والدته، وحكى لها عن ندمه الشديد على وفاتها وهي بعيدةٌ عنه. لكن صدمتها الحقيقية بدأت

حين قال لها إنه لو كان هناك سبيلٌ ليُخبرها أسفه وندمه، وأنه يطلب مغفرتها، فإن هذا يعني له الكثير؛ هل كان يُصَدِّقها منذ البداية؟ بل وجاء يطلب إليها أن تفعل ذلك لأجله!

لم تكن تعرف أنه كان ليفعل أيَّ شيءٍ ليتخَلَّص من إثم الماضي الجاثم فوق صدره، يتمنى لو يمحو كُلَّ شيءٍ ويفوز بابتسامة أمه لثانيةٍ واحدة. إحساس الندم يجعلنا نفعل أيَّ شيءٍ لنُكَفِّرَ عَمَّا اقترفته أيدينا، يأكلنا من الداخل، يهشمنا لقطع مُبَعثَرة. وفي تلك الليلة، حينما خَلَدَ للنوم، حَقَّقَ له الله ما تمنى، حلم بها وهي تبتسم له وتضُمُّه بين ذراعيها الحانيتين، فاستيقظ كأنه وُلِدَ من جديد، ومن يومئذٍ باتا هو ولين شبه صديقين، يلتقيان كُلَّما سنحت الفرصة.

حاول السيد مراد التَقَرُّبَ من طليقته، التي لم تردده خائب الرجاء، فقد سامحه قلبها وإن لم يغفر له كُلِّيًا، لكنها لم تستَطِع التخلي عنه في محنته بعد الصدمات التي مَرَّ بها في الفترة الأخيرة، خاصَّةً بعد عِلمه أن الطفل لم يكن له، كاد الأمر يقُضُّ بنيانه لولا أن تلَقَّفه حضن ناهد، التي ظَلَّت تهيم به حُبًّا. كذلك حاول التَقَرُّبَ من لين، التي لم تفتح له أبوابها كأمها، لكنها كذلك لم تُغلِقها بالكامل، فقد فَرِحَت لفَرَحِ أمها.

لكنها استغربت كيف استطاعت أن تُسامحه بعد كل ما فعل، حينها أجابتها بابتسامة: "حين نُحِبُّ أحدًا حُبًّا حقيقيًّا بكُلِّ كياننا ويتغلل بروحنا، لا يكون بوسعنا سوى أن نُسَامِحه، أن نُحاوِلَ أن نغفر له أخطاءه. الحُبُّ يجعلنا نتغاضى عن كُلِّ شيء، لا نرى إلا الأشياء الجيدة، وتلك السيئة نغضُّ الطرف عنها؛ ليس خِداعًا لأنفسنا، فنحن خيرُ مَنْ يعلم أنها موجودة، وربما نكون أكثر من يُعاني منها، ولكن أملًا في تغييرها، طَمَعًا في ألَّا تُفسِدَ علينا جمال الصورة الأكبر؛ أنَّنا مع مَنْ نُحِب، ويقينًا بأن الله قادِرٌ على أن يُغير كُلَّ شيءٍ للأفضل في لحظة، فجميعنا بَشَر، وجميعنا لديه خطاياه، والله وحده من يغفر للجميع، وحده يُصلِحُ كُلَّ ما فسد".

لم يكن بوسعها إلا أن تحترم قرار والدتها، غير إنها أشفقت على حال والدها، وإن لم تُعلِن ذلك بشَكلٍ واضح، لكن قلبها أعلنه من خلال نظراتها التي بدأت تلين وتترَفَّق به كلما جمعهما مكان، وللحق، وبداخلها كان هناك اغتباطٌ غريب، وفرحةٌ خفيةٌ تغمُرها وهي تراه يُكافح باستماتةٍ لكَسبِ حبها وثقتها من جديد، يفعل كُلَّ شيء ليقتَرِبَ منها، فاختبرت شعورًا لم تعرفه سابِقًا؛ وهي تحت جناح أبيها يكتنفها إحساسٌ جارِفٌ بالأمان يُحَصِّنُ قلاعها ويقوي روحها الهَشَّة، فلا تخشى شيئًا ولا تفكر في شيء.

أما بالنسبة لوالدها، ما زال لديه أَمَلٌ يجاهد لتحقيقه بأن تغفر له ابنته، فهي قضيته التي لن يقبل أن تكون خاسرة، ولو دفعته خطوةً للخلف سيتقَدُّم ألفًا للأمام؛

فابنته كنزه الحقيقي، إرثه العزيز الذي لن يتركه يضيع ولو كان الثمن حياته.

أما هي، لين، فقد عادت إلى روتينها اليومي؛ بين العزف والمقهى وريم، التي تقولُ عنها دومًا بابتسامةٍ بشوشةٍ واثقة: "لديَّ صديقةٌ رائعة تُعادِلُ مائة أُختٍ لم تَلِدهنَّ أمي، لا تتخلى عني في أحلك أيامي وأكثرها قتامة، تحتضني وتُرَبِّتُ على كتفي وتخبرني أن كُلَّ شيءٍ سيكون بخير، وأن كل هذا سوف ينقضي بأمر الله، هذا الوجع والألم سوف يتبَخَّر كأنَّه لم يكن؛ فرحمةُ الله أكبر منه أضعافًا مُضاعَفة".

تبسمت من طرفها لتَذَكُّرها، التفت إلى جانبها، رمت رفيقها بابتسامةٍ مُتَلَجلِجةٍ حين التقت أعينهما، الشيء الوحيد الذي تغيَّر بحياتها دكتور عاصم، الذي أصبح في فترةٍ قصيرةٍ مُقَرَّبًا منها، قُربًا تستطيبه، تتلَهَّفُ له، لكنه يُخيفها، يخطف أنفاسها، فهي شَخصٌ مُعَقَّد، مُعَقَّدٌ بكُلِّ تفصيلةٍ في حياته، شخصٌ يتشارك حياته مع الأموات، ترى أنها امرأة لا تصلح للحب؛ فقد عطب قلبها وتفتَّت منذ زمن. أخبرها أنه يصدقها ويصدق ما تقوله، وكيف لا وأول لقاءٍ بينهما كانت تحمل له رسالةً من امرأةٍ ميتة؟ وعدها أن يظل إلى جوارها، ألَّا يتخلى عنها، وعدها أن يكون سندها وصوتها وداعمها، أغمضت عينها وتمَنَّت لو صدق، فلن تحتمل روحها خذلانًا جديدًا.

رماها بابتسامته الهادئة الرزينة، التي تسحب روحها من الأعماق حتى توصلها عنان السماء وتتركها فوق السحاب، وتركها هناك بين بحور عينيه الصافيتين، تتذكر أول مرةٍ كانت تنتظر بعيادته منذ عامين، كانت تجلس ذات الجلسة وترتدي ذات الثياب، لكن حينها كانت خائفة، وحيدة، مهزومة، تكره نفسها، ضالة، ضائعة، مُشَتَّتة، تريد الموت ولا تفكر بغيره، أما اليوم، وبعد ما مَرَّتْ به وكل ما حدث لها، خاصَّةً في الأشهر الأخيرة، فإنها أصبحت أقوى، ثابتةً صلبةً، تعرف طريقها وما الذي تريده، ربما ما زالت تكره نفسها، لكنها على الأقل أصبحت تعرف كيف ترودها، تتقبلها وتتعامل معها، وربما يأتي يومٌ وتحبها من جديد.

مسحت بين عينيها، أغمضتهما، ارتكزت بساعديها إلى ركبتيها وأسندت إليهما رأسها، فَكَّرت لقد حان الوقت، هنا والآن، سوف تتخلص من آخر ثقلٍ واقِعٍ على كاهلها. ورغم ثباتها فإنها شعرت رجفةً سَطَتْ على أوصالها لمجرد التفكير بذلك، والذي هو سبب جلوسها الآن وبتلك اللحظة في هذا المكان، أكثر مكان كرهته بحياتها، تمَنَّتْ الموت بداخله ألف مرة وحاولت عشرات المرات أن تناله، وحينما نجت منه لم تفكر لثانيةٍ أنها قد تعود إليه ولو دفعوا لها وزن الأرض ذهبًا. تَبَسَّمت بسُخريةٍ أليمة؛ فهي هنا من جديد وبكامل إرادتها.

انتبهت من شرودها على يد عاصم تنبهها بأن المرضة تناديها، اعتدلت واقفة، وضعت هاتفها داخِلَ حقيبتها وتركتها فوق الطاولة. هَمَّ ليتبعها، أوقفته بإشارةٍ من يدها وإيماءةٍ من رأسها تهمِسُ بابتسامةٍ هادئة:

- عَليَّ فِعلُ ذلك وحدي.

ضغط كتفها برفقٍ ونظرةٍ مُشَجِّعة، ثم عاد إلى جلسته وتقَدَّمت هي خلف المرضة وهي تضع كلتا كفيها بجيبي كنزتها، تسير بين ردهات المصحة العقلية التي كانت نزيلتها لمدة عامين سابقًا.

تقدمت بين الردهات وقد اختطفتها رجفةُ ألَمٍ داهمت بطنها وقد أحَسَّت بتَشَنُّجٍ فيها، تَشَنُّجٍ طالما أصابها بعد كل جلسة علاج في الدور العلوي وهي تُجَرُّ من المرضين بين ذات الردهات، تتخَبَّط بين جنباتها وهي شبه غائبة عن الوعي؛ ليس بسبب مُخَدِّرٍ ما، بل بسبب الألم الذي كان يُفقِدها الإحساس، حينها كان يهرول عقلها إلى قلعة هروبه الخاصة؛ أوهامها.

آمنت أن الأوهام هي حصن عقلنا الآمن الذي يحتمي داخله كلما تعرضنا لضَغطٍ نفسيٍّ وعقليٍّ فوق احتمالنا؛ يتشرنق داخله ليحصن نفسه ضد هجمات الألم، يخلق وهم أننا لسنا وسط الجحيم، بل في مكانٍ آخر، مكانٍ له طابع الحنين واللهفة المسيطرة، ليستطيع جذبنا داخله، كذكريات الطفولة، لحظات السعادة، حُلُمٍ نهفو لتحقيقه؛ كي نستطيع الصمود ضد الألم. ربما لا نفوز، لكننا كذلك لم نُهزَم بعد، فلا نستغرب أنفسنا حين نمُرُّ بوقتٍ عصيبٍ ونجد عقولنا تُفَكِّرُ بشيءٍ بعيدٍ كُلَّ البُعدِ عن محنتنا التي نمر بها، فتلك هِبةٌ من الله للعقل ليحتمي من فوضى السقوط والجنون الحتمي إن واجهنا هذا الكَمُّ من الألم.

تذكرت كل شيءٍ حتى تواترت أنفاسها بانفعالٍ بين صعودٍ وهبوطٍ بينما تتقدم بخُطًى بطيئة، زوت حاجبيها، يبدو على ملامحها وصبٌ مكتوم، فمع كل خطوةٍ يضرب بين أعماقها إعصار ذكرياتٍ مُوجِعة، عاد كُلُّ أسى الماضي وعذاباته تعتصرها؛ تتذكر كل شيءٍ كأنه يحدث الآن، حتى الألم، تشعر به الآن يزحف داخل أوصالها. سبقتها المرضة ووقفت تطرق باب الغرفة المقصودة، دلفت لدقيقةٍ تجَمَّدَت فيها لين بموضعها، يبس كل وريدٍ وتوقَّفَ الدم عن الجريان، إنها ذات الغرفة التي كانت نزيلةً فيها من قبل، الآن لا تكاد قدماها تحملانها، ظَلَّت لثانيةٍ على تَصَنُّمها لا تعي شيئًا، قبل أن تُفيق من الصدمة على صوت خطوات المرضة تمر من جانبها مُغادرةً وتتركها جامدةً بمنتصف الردهة أمام الباب وأسوأ كوابيسها.

ظهرت على كاميرا المراقبة القابعة فوق ذات الباب أنه مرت دقيقتان وهي على ذات الحالة كتمثالٍ من شَمعٍ باهت اللون من شِدَّة شحوبه، ولها مرت أربعة أعوام؛ عدد ما خسف بها من ذكرياتٍ مؤلمة من الليلة المشؤومة حتى اللحظة المتجمدة بها الآن. سمعت صوتًا من خلف كتفها يهمس في أذنها بحَفيفٍ تعرفه: "هيا، لماذا توقَّفتِ؟ أليست تلك اللحظة التي انتظرتها أربَعَ سنوات؟ خطوتان كُلُّ ما يفصلك عن إسدال الستار على الماضي برُمَّته". أغمضت عينها، عَدَّت حتى العشرة، تنَفَّست، تجاسرت على خوفها واجتياح ذكرياتها، أحكمت ألمها، فتحت عينها، شَرنَقَت نفسها خلف ابتسامةٍ باهتةٍ تُحَصِّنُ عقلها جيدًا وتقدمت حتى وصلت الباب، أدارت المقبض ودخلت.

تقدمت داخل الغرفة بعدما أغلقت الباب، كانت ما تزال على نفس الحال التي تركتها عليها، نفس لون الحائط الأزرق الباهت، ورغم حبها للون السماء فإن هذا اللون هنا وداخل تلك الغرفة كان كئيبًا يخنقها. السرير الخشبي الأبيض، والنافذة الحديدية، أريكةٌ وثيرةٌ وكُرسيٌّ من ذات الطراز بينهما طاولةٌ صغيرة، فوقها أوراق بيضاء وألوان شمعية، كاميرا المراقبة في إحدى زوايا الغرفة العلوية مواجهة للباب مُباشَرةً لبث الصوت والصورة.

قَلَّبَت الطرف بالمكان بتأمُّل، كُلُّ شيءٍ على حاله كأنها كانت هنا البارحة، إلا شيئًا واحدًا اختلف؛ تلك الجالسة على حافة السرير، لم تعد هي، بل صارت أخرى، وتلك الأخرى هي من طلبت حضورها وأصَرَّت على ذلك، وكان وسيطها عاصم، فلَبَّت الطلب وجاءت.

ظلت لين على وقفتها؛ عينها عُلِّقت بكاميرا المراقبة التي توقفت نقطتها الحمراء عن الوميض، انتبهت لها مُضيفتها، التفتت نحوها بعيونٍ مُشَتَّتةٍ تائهة. أخذت لحظاتٍ قبل أن تنهض من مكانها، فَطِنَت لين في نفس الثانية أنها عادت من جلسة عِلاجٍ منذ قليل؛ هي تعرف تلك الحالة التي تبدو عليها، كم من الأيام عاشتها! ولا بُدَّ أنهم قد حقنوها بالمسكنات ليمكنها الحديث معها، كانوا يفعلون ذلك معها. نظرت إلى ساعتها، وضعتها على المؤقت العكسي؛ ستٌّ وعشرون دقيقة، هذا هو الوقت الذي يأخذه المخدر قبل أن يُحكِمَ كامل سيطرته عليها.

وقفت رهف متمايلةً في مقابلها تتأمَّلها، تمَاسَك عقلها وأجبر وعيها على الحضور بعدما أخبرتها المرضة أن الضيفة التي طلبت حضورها قد وصلت، أخذت بضع لحظاتٍ تستدعي نُدَف ذاكرتها الشحيحة لتتذَكَّر من هي ضيفتها، وهل هي من طلبت رؤيتها؟ فَغَرَت فاهها بشهقةٍ حين تذكرتها وتذكرت أنها فعلت، بل وألَحَّت بحضور

لين إليها، كتمت شهقتها التي تحوَّلَت لفَرَحٍ حقيقي؛ فلين الوحيدة التي سوف تُصَدِّقها، فمثلها تراهم. تمتمت بنظرة ارتياح: "لين"، ثم هتفت بثُقلٍ في لسانها كوعيها:

- لين، أنا... أنتِ... لين...

صمتت، لتتقدم لين خطوةً بابتسامةٍ ودِّية:

- أعرفُ كُلَّ ما تريدين قوله.

- حقًا!

هتفت بدهشة فرحة، اقتربت لين من الطاولة:

- كلُّ عامٍ وأنتِ بخير، أليس اليوم عيد مولدك؟

زوت رهف بين حاجبيها بابتسامة، إنه حقًا اليوم، فَكَّرت؛ لقد تذكرته لين لأنه كذلك ذكرى وفاة دارين، فعبس وجهها، مسحت لين بين عينيها تتقدم خطوة:

- ما رأيك بلعبة تأخذ المرح لمستوًى جديد؟

دمعت عيناها، تَشعُرُ بخدرٍ بسيطٍ يزحف على أطرافها، تقترب من الأريكة:

- كانت لعبةً غبيةً حَوَّلت حياة الجميع إلى جحيم.

- دعينا نلعب للمرة الأخيرة، فأنا لم آخذ دوري ليلتها، ولا أنتِ، أتذكرين؟

سحبت لين ورقةً من فوق الطاولة قَسَمتها نصفين؛ أعطتها نِصفًا وأحدَ أقلام التلوين، وأخذت الآخر وقلمًا، وأتبعت:

- لكن دعينا نلعبها بطريقةٍ مُختلفة، كُلٌّ منا سوف يكتب سِرَّه في ورقةٍ ويقلبها ويدفعها تجاه الآخر.

طَفَتْ حَبَّاتُ العرق على وجه رهف، ورغم أنها لم تكن تريد ذلك، لكنَّ شيئًا بداخلها دَفَعها لتفعل. دون تردد كتبت أربع كلمات، وكتبت لين كلمتين.

قلبت كلتاهما ورقتها على الوجه الآخر ووضعتها فوق الطاولة، وأزاحتها باتِّجاه الأخرى، سحبت كلتاهما الورقة نحوها دون أن تقلبها، ثم كتبت لين أسماءهم جميعًا في أوراقٍ مُتَفَرِّدة، وراحت تخلط الأوراق فوق الطاولة تُقَرِّب بعضها وتُبعِدُ الآخر...

- إيناس من قتلت زياد، وهشام من قتل إيناس، وقتل سامح أيضًا، إيناس من وضعت المخدرات لدارين، وهشام من تلاعب بمكابح السيارة، الأدلة أكَّدَت ذلك.

حين انتهت كانت شَكَّلت دائرةً بأسمائهم وترتيب الجرائم، وكانت دموع رهف تنسَلُّ في صَمتٍ على خديها، بينما تكتم نشيجها بكفها وعينها تتبع الأوراق فوق الطاولة وترى وجوههم واحدًا واحدًا تتجَسَّدُ أمامها، ليزداد نحيبها الصامت. استعادتها نبرة لين الهادئة:

– حسنًا، دعيني أنا وأنتِ نُعيد ترتيب كُلِّ شيءٍ بشكلٍ صحيح، فكِلتانا كانت هناك وتعرف حقيقة ما حدث تلك الليلة.

دَمَجَت الأوراق فوق الطاولة من جديد...

– هذا ما قاله الضابط والأدلة، لَكِنَّ الحقيقة التي تعلمها كلتانا أن هشام قتل سامح بالخطأ، وزياد من قتل دارين وتلاعب بمكابح السيارة بعدما سَمِعَ هشام وسامح يتَّفِقان على الأمر وسَجَّله، سَرَّه الأمر، وحين تراجَعا فَعَلها بنفسه وهو يعرف أنه إذا اكتُشِفَ الأمر لن يُعرَف عنه شيء، وسيُلقي كُلٌّ منهما التهمة على الآخر، ولن يستطيع أيٌّ منهما إثبات براءته، لأن كليهما لا يعرف أن هناك طرفًا ثالِثًا.

فغرت رهف عينيها الزائغتين من الصدمة، عادت لين وحَرَّكت الأوراق...

– إيناس لم تضع المخدرات لدارين، وهذا ينقلنا لأنه لا دافع يجعلها تقتل زياد، وشَخصٌ آخر هو من وضع المخدرات وقتل زياد، وقتل إيناس أيضًا، وكِلتانا تعرف أن هشام لم يفعل.

يبست رهف في مكانها، اقتربت منها لين، أطبقت يدها حول رقبتها، قَرَّبَتها إليها وهمست في أذنها بنبرةٍ جَمَّدَت الدماء بعروقها:

– لأنَّكِ مَنْ فعل، أنتِ من قتل ثلاثتهم.

كادت رهف أن تختنق بشهقة الصدمة، أخرستها المفاجأة، عاد كُلُّ شيءٍ يتجَسَّد أمامها كأنه حدث توًّا، كَفَّاها ترتعشان، رفعتهما نحو ناظريها من خلف لين التي تحتضنها، ترى الدماء تغرقهما، تهتزُّ الصورة في عينيها، تعودان نظيفتين، لتهتَزَّ مجددًا وتُلَطَّخَ بالدماء من جديد. أراحَتهما على ظهر لين وضَمَّتها إلى صَدرها، همست لين ونبرتها مخنوقةٌ بالألم:

– أعرف أنكِ كُنتِ تؤمنين أنه ما دامت دارين على قيد الحياة فهو لن يُحِبَّ غيرها، حتى إيناس كانت له عاهرة لا أكثر، أعرف كُلَّ ما تفوَّه به من حماقاتٍ عن حبه لها وهو مخمورٌ في آخر خلافٍ بينكما قبل عيد مولدك بيومين، أعرف أنكِ من دَسَّ المخدرات في الكوب بيدك، ومَن أعطاه لها كي تتجَرَّعه، لم يكن رَبطُ الخيوط أمرًا

صَعبًا؛ إيناس لم تقترب من الأكواب تلك الليلة، هي كانت حمقاء وغبية، لكنها لم تكن لتفكر بهذا الذكاء، وأنا لم أكن أثق بها، لكنني وثقت بكِ.

ضيقت رهف عينيها الزائغتين بدهشةٍ خَيَّمت على ملامحها وصدى الصوت يتردَّدُ بين جنبات عقلها المترنح، كُلُّ شيءٍ يُعاد الآن أمام ناظريها. مَدَّت كُلٌّ منهما يدها وسحبت ورقة السر، وما زالتا مُتعانِقَتين، رفعتها لين أولًا تنظر إلى المكتوب بها...

- أنا من قتلت دارين.

ضَمَّتها أكثر بابتسامةٍ أليمةٍ ما زالت تُجاهِدُ لحبس دمعها، وقبضت على الورقة بقوةٍ كَوَّرَتها تريد تمزيقها رغم أنها تعرف مُسبَقًا ما كُتِبَ بها. تستمع لأنفاس رهف تزداد خَفقانًا ونشيجها يزداد اضطرابًا، التي يرتد صدى الجملة داخل عقلها من بعيد: «وثقتُ بِكِ»، رفعت رهف ورقتها أمام عينها، قوَّست حاجبيها، تفَجَّرت الصدمة على ملامحها المُنهكة، شَلَّتها، أخرستها، تترَنَّح من أثر المفاجأة.

تركتها لين واتخذت خطوةً للخلف، استندت رهف لطرف الأريكة تحاول إيجاد الحروف، التي في النهاية لم تخرج منها، تتفحَّص لين، التي رمتها بابتسامةٍ هادئةٍ لمحتها تلك اللحظة شيطانيةً ومُخيفة. وضعت يدها على فمها تكتم شهقةً دوت بين روحها، تفغر فمها وعينيها ذهولًا، تعود لتقرأ...

- أنا دارين.

سقطت على الأريكة من خلفها، لم تَعُد قدماها تحملانها، عقلها يترَنَّح على خيطٍ ضعيفٍ بين وعيٍ وأفول، والكلمات بالكاد تخرج منها بهَمسٍ مُضطَرِبٍ لا يكاد يُسمع:

- مستحيل! لا يمكن أن تكوني هي!

- كنتُ دومًا أتساءل: متى ستأتي اللحظة التي تعرفينني فيها؟

رَدَّت بصوتٍ خافِتٍ وهي على بُعد خطوةٍ منها وقد استعادت ثباتها وانحنت نحو الساقطة على الأريكة وفي غياهب صدمتها لا تُصَدِّق أنَّ صديقتها التي قتلتها عادت لتقف أمامها، أغمضت عينها بأسى، هذا بالتأكيد شبحها عاد ليتلاعب بها؛ عَدَّت حتى العشرة وفتحتهما، لكنها ظَلَّت هناك لم ترحل، ابتسمت دارين وقد وصلها ما تُفَكِّرُ به، أومأت نفيًا أنها واقعٌ وليس شبحًا. استندت إلى حافَة الطاولة من خَلفها، وبات وجهاهما مُتقاربين حَدَّ أن تستشعر كُلٌّ منهما أنفاس الأخرى، توغل النظر بعين رهف المجاهدة للتشبث بوعيها:

– حين زُرتِني في المَشفى بعد الحادث، اعتقدت أنك الوحيدة التي سوف تعرف الحقيقة، صديقة عمري لن تتوه عني، أتذكرين حين كنتِ تقولين إنكِ تعرفينني من نظرة عيني ولن تُخطئيني ولا لمرةٍ واحدة؟

ازدادت أمارات المُباغَتة على وجه رهف، رفعت ذراعها تمُدُّ أناملها نحو وجه دارين تريد أن تلمسه، لكن ذراعها سقط قبل أن يصل وجهها، وصوتها الواهن:

– لين هي من ماتت في الحادثة، وأنتِ... أنتِ هي...

أكَّدَت دارين بإيماءة، وعقدت ساعديها فوق صدرها:

– بما أننا ما زلنا داخل اللعبة، دعيني أُخبِركِ سِرًّا؛ كانت لين مُحِقَّةً بشأنك، فكانت تشعر حيالك بشعورٍ سيئ، أنكِ حين تنظرين لي ترى بعينيك نظرةً لا تروق لها، نظرة حِقدٍ وكُره، لكنني لم أكن أصدقها؛ كنت أتشاجر معها لأجلك، كانت ثِقَتِي بِكِ عمياء، تتخطى ثقتي بنفسي وبها هي، أختي.

احتَدَّت نظراتها ونبرتها التي ما زالت على همسها:

– أنتِ حاوَلتِ قَتلي؛ وضَعتِ المخدرات في كأسي، كي تقتليني ويتهموا إيناس أنها مَن فعلت بسبب خِلافِنا فيما يخُصُّ زواجها من أبي، وتكونين تخَلَّصتِ من كلتينا بضربةٍ واحدة، لكن لحظك العاثر، أبي تَسَتَّر على الأمر برُمَّته لاعتقاده أنني كُنتُ أتعاطى المخدرات حقًا؛ فلا يريد بلبلةً لأجل سمعته، وتجاوزتِ أنتِ الأمر، اعتقادًا منكِ أن بزواجها من أبي قد انزاحت من طريقك.

– لكن كيف؟ لقد أعطيتك الكأس بيدي؟

– حين دخلت الحمام تركتُ كأسي بجوار لين، فتبدلت الكأسان بالخطأ، وما جعل تأثير المخدرات يأخذ وقتًا حتى يأتي بمفعوله أنها لم تتجَرَّع الكأس كاملةً. حين غادرنا كُنتُ أحترق غَضَبًا؛ فرفضت أن تتركني أقود، وعلى الطريق بدأ المفعول في الظهور...

تساقط الدمع من عينها، واختنق صوتها وهي تُردِف:

– بدأت تتلوَّى من الألم، حاولتُ إيقاف السيارة، لكن لم تكن هناك مكابح، والطقس لم يُمهِلنا، وفي لحظاتٍ انقلبت السيارة، وفقدت أختي بسببكم، ومعها فقدتُ كُلَّ شيء، جميعكم تآمر ضدي.

تعتعت رهف باضطرابٍ ونظراتٍ مُشتَّتة:

- لا يمكن... لقد رأيتُ شبحها!

- أَحَقًّا اعتقدتِ أن الموتى يَقتلون؟ ربما يعودون، لكن يقتلون؟ هذا غباء.

ابتلعت رهف ريقها واضطرابها، تُغمض عينيها المثقلة الجفنين:

- أنتِ مَن فعل كل هذا.

أحاقت بوجه دارين ابتسامةٌ مُستَنكِرة وهي تمسح دموعَها بنظرةٍ شامتة:

- رهف، يا صديقتي العزيزة، لا تكذبي على نفسك، كِلتانا تَعرِفُ من الذي فعل.

اقتربت أكثر منها تَهمِسُ في أذنها:

- أنا لم أفعل شيئًا سوى أنني أشعلتُ الفتيل.

مَدَّت يدها بجيبها وأخرجت منه هاتفًا، فتحت شاشته ووضعته أمامها وأناملها تعبث به، تُريها بضعة أشياء فوق شاشته. كادت عينا رهف تُغادِرانها وهي ترى أمامها شُقَق زياد وهشام وسامح، انحنت دارين فوق أذنها أكثر:

- الأمر لم يحتَج سوى هذا الهاتف وبضعِ كاميرات مُراقَبة مُتَّصِلة بالإنترنت، صحيحٌ أنَّ صاحب محل الهواتف أخذ مني مبلغًا كبيرًا، اعتقد أنَّني أريد أن أُراقب زوجي لأضبطه مُتَلَبِّسًا، لكن الأمر كان يستحق. ووضعُ الكاميرات في منازلهم لم يكن صعبًا البَتَّة؛ فلا أحد منكم تخَلَّى عن عاداته القديمة، زياد يترك المفتاح بذات المكان، وسامح يترك مفتاحه للبَوَّاب ليأتي بأحدٍ لتنظيف شقته، وهشام، خطيبك المُخلِص، ما زال يترك مفتاح شقته لأية عاهرةٍ يصحبها معه، بعضٌ آخر من المال وحُلَّت المسألة.

غمزت بعينها، بينما رهف عينها محبوسَةٌ داخل الهاتف ينقل لها مشاهد مُتَعَدِّدة من داخل الشقق، وعقلها لا يكاد يستوعب كل هذا دُفعةً واحدة، لتُتبِع دارين:

- تبقَّى لديَّ اختراق هواتفكم وحواسيبكم الشخصية، وصِدقًا، الأمر كان أسهل من الدخول إلى الشقق؛ رابِطٌ واحِدٌ لكُلِّ واحِدٍ منكم، وبعدها يكون هاتفه تحت سيطرتي، ولأنني خيرُ من يعرفكم ويعرف كيف تُفَكِّرون، فكُنتُ أعرف أيَّ إغراءٍ لا يمكنكم مقاومته، فمثلًا؛ هشام: يكفيه مَقطعٌ لفتاةٍ عارية كي يبتَلِع الطُعم، زياد: مَقطَعٌ مُصوَّر عن السحر وتحضير الأرواح، إيناس: مَقطَعٌ لهشام مَعَكِ في حفل عيد مولدك كافٍ لتضغط دخول، أما سامح، فالأبله لن يقاوم أن يربح نقودًا مجانية من الإنترنت.

زادت ابتسامتها وهي تضع يدها على كتف رهف المرتعشة، أنعمت النظر بعينها المُختَنِقة بالدموع والذُعر:

– أما أنتِ يا صديقتي الغالية، فإعلانٌ عن طبيبٍ نَفسيٍّ من الطراز الأول كان كافيًّا لجذب انتباهك.

صمتت للحظةٍ ثم هتفت بغتةً بمرح:

– والآن تبدأ اللعبة، لنأخذ المرح الحقيقيَّ لمستوًى آخر، بضع رسائل تهديد تُرسَلُ من كُلِّ واحِدٍ فيكم للآخر، بأنه يعرف حقيقة ما حدث تلك الليلة، جميعُها تُرسَلُ من حساباتكم على شبكات التواصل الاجتماعي، ولم يأخذ الأمر وقتًا طويلًا حتى التقطتُم جميعًا الطُعم؛ لا يسقط في فَخِّ العقاب إلا مُرتَكِبو الآثام، ماذا أقول؟ جميعكم سقطتم.

قالتها ووضعت فيديو مُصوَّرًا لرهف في شَقَّة زياد وهي تقتله.

– كل ما فعلته أنا أن أرسلتُ لك رسائل التهديد من هاتفه، للحق زياد لم يكن لديه أية مَعرِفة عن وضعك المخدرات لي بالعصير، وبالطبع أنا مَن كان يَرُدُّ برسائل تهديدٍ أخرى من هاتفك.

ارتسم الاندهاش جليًّا على وجه رهف وصوتها الواهن المتقطع:

– أنتِ جَعَلتِني أقتله.

– وما ذنبي أنا؟ أنتِ من ذهبت إلى بيته ونَحَرَت عُنُقه ورَتَّبت مسرح الجريمة بتلك الطريقة الشيطانية. صحيحٌ أنَّ أصدقاءنا المُشتَرَكين الذين يزورونك كل ليلةٍ أوعَزوا لكِ بهذا، لكِنَّك من قَتَلَه، ومَن قتل إيناس، أنتِ مَن سَحَبَ النصل وليس أنا.

هتفت دارين بنظرة براءةٍ مُصطَنعة، فارتعش جسد رهف، لتُتبِعَ دارين:

– لسوء حظك أنه حين ذهبتِ لإيناس وتشاجَرتُما كان جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بها، والذي أتَحَكَّمُ أنا به على الجهة الأخرى وأُشاهد كُلَّ شيءٍ عن طريقه، موجودًا بنفس المكان، وحين كُنتُ أشاهِدُ عِراكَكما لم أعتقد للحظةٍ أنَّك ستقتلينها حَقًّا، وللحق أنتِ أبهَرتِني حين نَحَرتِ عُنُقَها ورَتَّبتِ مَسرَحَ الجريمةِ بذات الطريقة، ولا تَنسي أنَّني من أرسل لك هذا المقطع المُصوَّر لها مع هشام بالسرير، وأنا من أرسل لَكِ مَقطَعَ الخلاف بينهما على الطفل، فلا تُنكِري أنَّني ظَلَلتُ صديقةً مُخلِصةً لكِ حتى النهاية.

تباعدت أنفاس رهف تكاد تفقد عقلها، بالتأكيد كل هذا حلم، كابوسٌ مروع لا بد أن يقضي. كيف وقعت في الشَرَكِ بهذا الغباء؟ كيف صَدَّقت أنَّ زياد رآها وهي تسرق الحبوب من حقيبة إيناس وتدُسُّها في كوب العصير؟ تَبًّا لغبائها، كانت وحيدةً في المطبخ، فكيف له أن يراها مثلما كُتِبَ في رسائله؟ أغمضت عينها بخيبةٍ وهي تُمسِكُ رأسها بكلتا يديها من الألم، داهمها سؤالٌ مُحيِّرٌ تقَطَّعت أنفاسها به:

- الطِبُّ الشرعيُّ أكَّدَ أن المذكرات بخط إيناس!

صَفَّقَت دارين وهي تغمز بطرف عينها:

- بالطبع خطها، أتعتقدين أنني زورتها؟ الحقيرة من كتبتها، كانت تتوقع الخيانة لأنها كانت تثق أنه من أفسد مكابح السيارة، وأنه قتل المرأة الوحيدة التي أحَبَّها؛ فماذا سيفعل بها وهي عاهرته، فأرادت الحِرصَ على توريطِه إن غَدَرَ بِها.

- سلاحُ الجريمة؟

فردت دارين ذراعيها بحركةٍ مَسرَحيةٍ وابتسامة ظَفَرٍ مُستَنكِرة:

- لم يكن من الصعب الحصول عليه، فأنا هي دارين، صديقتك التي تعلم أين تخبئين أشياءك السرية؛ ما زِلتِ تُثبِّتينها بإحكامٍ أسفل صندوق سيارتك، وهناك حيث وجدته.

هوت يد رهف على صدرها الذي هوت عليه خيبةٌ مؤلمة، هتفت بصوتٍ مُضطَرِب:

- لماذا لَفَّقتِ لهشام كُلَّ الجرائم؟ لماذا لم تُخبِري الشرطة أنني القاتل الحقيقي وتنتقمي مني أنا؟

- لسببين؛ الثاني: أنتِ لا تعرفين ما هو شعور أن تُحاسَبي على جريمةٍ لم ترتكبيها، كيف يكون شعورك إن ظَلَلتِ أيَّامًا وشهورًا وسنين تشعرين بالقهر والذُلِّ والحسرة لأنَّك تُعاقَبين على جريمةٍ لا ذَنبَ لكِ فيها، ألم تفعلي ذلك معي؟ حاسَبتِني على كونِه يُحِبُّني ويريدني، قتَلتِني وأنا التي كانت تَثِقُ بِكِ أكثر من نفسها، كذلك فعل هو، قَرَّر وخَطَّط لقَتلي لأنني رفضتُ أن أخون صديقتي معه، لأن قلبي لا يستطيع أن يحبه، كلاكما حَطَّمَني لأجل إثمٍ لم أرتكبه، وكلاكما يجب أن يدفع الثمن.

- الأول؟

- أن تُشاهِديه وهو يضيعُ مِنكِ ولا تستطيعي فِعلَ شيء، هذا كافٍ لتَقتُلي نفسك، اسأليني أنا.

- ألم تخافي أن أُخبر الشرطة أنني القاتل وأُبرئه؟

- أعلم أنكِ مهووسةٌ بحبه، وأنكِ تفعلين أيَّ شيءٍ لأجله، لكنني كذلك أعرف أن الخوف بداخلك يسيطر عليكِ ويتحكم بكِ أكثر من الحب، وحتى وإن واتتك الشجاعةُ وفَعَلتِ، من سيصدق مجنونًا يهذي؟

- أتيتِ الآن لقتلي؟

– قتلك لم يكن يومًا ضمن الخطة، بالعكس، أنتِ هو الشخص الوحيد الذي كان مُقَدَّرًا له أن يحيا حتى يرى النهاية، الموت يضع حَدًّا لآلامنا، نهايةً للعذاب، الموت راحة، وهذا شيءٌ لم أعرفه منذُ قَتَلتِ أختي؛ لذلك لن يكون مُقَدَّرًا لكِ أيضًا.

تبسمت دارين بسخريةٍ موجعة، هطلت الدموع من عين رهف وقد تملك اليأس من نبرتها:

– ماذا ستفعلين بي؟

تنهدت تمسح دموع الخيبة التي انسَلَّت على خدها:

– سأفعل بكِ الذي فَعَلتِه بي، ألقيتِ بِيَ في الجحيم فجِئتُ بكِ إليه، أخذتِ مني لين، فأخذتُ منكِ هشام وكُلَّ ما تكترثين له، دَمَّرتِ حياتي فدَمَّرتُ حياتك، أصبحنا الآن متعادلتين.

– ألم يراودك الشكُّ للحظةٍ أن التي خَطَّطت لقتل صديقتها الوحيدة بهذا الذكاء لن تسقط في الفخ؟

تنهدت دارين والدموع تنسلُّ على خَدِّها:

– لم تكوني يومًا بالخصم الصعب لي، أعرف كيف تفكرين، بمجرد خروجي من المَشفى أخبرتُ الجميع عن براعة دكتور سالم، مُعالِجي الهُمام؛ كنتُ أعرف أنكِ تتلَمَّسين أخباري، كلين طَبعًا، خَوفًا من أن أكون عرفتُ شيئًا، أو أن أتفوه عما حدث بالحفلة. دَفَعتُ به في طريقك، كنتُ أعلم أنَّك لن تُقاومي الإغراء كثيرًا، وكنت أعرف تمامًا أيَّ نوعٍ من الأطباء هو، ونوع الأدوية التي سوف يستخدمها في إجراء تجاربه عليك، أقصد في علاجك، تلك التي تساعد في تحفيز الهلاوس، تجعلك ترين أسوأ مخاوفك تتجسد أمامك. كيف تعتقدين أنه أبقاني عامين في المَشفى؟ لكن الفرق بيننا أنني لم أكن آخذ الدواء، لأنني كُنتُ أعلم أن ما أراه حقيقة، وليس ذَنبَ قَتلِ صديقتي الوحيدة الجاثم فوق كاهلي، وذنبك هو ما أوقعك في الفخ وليس أنا.

ابتسمت دارين من بين دموعها وهي تفرد ذراعيها على امتدادهما:

– والآن أنتِ هنا، داخل ذات المشفى، وبذات الغرفة التي كانت لي، ولن أخبرك كم سيهتم بك الدكتور سالم؛ فأنتِ فأرُ تجاربٍ مِثاليٌّ لرسالة الدكتوراه الخاصة به.

– ألا تخافين أن أخبرهم الحقيقة؟ أخبرهم أنك دارين؟

ضَحِكَت حتى دمعت عيناها وتَرَنَّح جسدها، فأخذت كف رهف بين كفيها بابتسامةٍ مُشفِقة:

– رهف، يا صديقتي، انظري أين تجلسين! أنتِ داخل مشفى للأمراض النفسية والعقلية، أنتِ أمام الجميع مجنونة؛ فمن سيصدق مُختَلَّةً عقلية؟ اسأليني أنا، لو صَرَختِ لعُقودٍ قادمة لن يلتَفِتَ إليكِ أحد.

تلاشت بقايا ابتسامتها وتلَبَّسَتها نظرةٌ جادَّة:

– ودعينا نَكُن منطقيين؛ أيُّ إثباتٍ تمتلكينه على أنني لَستُ لين؟ حتى والداي لا يستطيعان التفرقة بيننا، وأنتِ، صديقةُ عمري لم تستطيعي. وللحَقِّ أتمنى أن تفعلي؛ حينها سيكونُ جنونك أمرًا قاطِعًا، وصِدقًا سيصبح وضعك هنا أسوأ، فلا أنصحك بذلك.

رفعت رهف طرف عينها نحو كاميرا المراقبة من خلفها، لتفهم دارين ما ترمي إليه، زادت ابتسامتها وهي تُشير نحو الكاميرا:

– دَقِّقي النظر جيدًا، ستجدين أن تلك النقطة الحمراء التي تُومِض بها مُطفأة منذ خَطَت قدمي داخل الغرفة، وهذا يعني أنها لا تعمل.

ثم فَرَكت سبابتها وإبهامها ببعضهما بعضًا، إشارةً للأموال التي دفعتها لتعطيل الكاميرا بغرفتها طول مدة الزيارة، ليتعالى نحيبُ رهف المُتَرَنِّحة الوعي وشهقاتها تسبق كلامها:

– اقتليني يا دارين أرجوكِ.

زوت دارين بين حاجبيها بنظرة لَوم:

– وتريدين أن أُفَوِّتَ على نفسي فرصة الانتقام من كل ما فَعَلتِه بي؟ أنا لستُ ملاكًا، أنا بشر، فلا تطلبي المستحيل.

هَمَّت واقفة، جمعت كُلَّ الأوراق التي كتبت عليها، وسَحَبت ورقة اعترافها من يد رهف المستسلمة، وضعتهم والهاتف بجيبها، نظرت بساعتها التي دَقَّت مُعلِنةً انتهاء الوقت، اتَّجَهت مُغادِرة، فاستوقفتها الأخرى بنبرةٍ مُضطَرِبة:

– لكنني أرى شبحك، أقصد شَبَحها، سامح رآه، وعَلِمتُ أنَّ والدتك فعلت، أنتِ أيضًا رأيتِه؛ لذلك وضعوكِ هنا سابقًا، مستحيلٌ أن يكون كُلُّ هذا وهمًا.

لم تلتفت دارين، وقفت ويدها على المقبض، بعد لحظةٍ التفتت نحو الزاوية المقابلة وأطالت النظر، عدلت رهف رأسها المائلة نحو الزاوية، تحاول فتح عينيها. تشعر بتيارٍ بارِدٍ يسري حولها في المكان، الضوء بالمصباح يتواتر، تمَلَّك رهف ذهولٌ واعترتها رعدة

وهي ترى غيمة الضباب الأسود تتشَكَّل في الزاوية، يتبدَّدُ رويدًا، لتظهر لها لين ترميها بابتسامةٍ غريبة، ويخرج صوتهما كالصدى القادم من بعيد: "الآن انتهت اللعبة".

لحظة ورأت الغيمة السوداء تعود من جديد تلتف حول دارين، وسمعت صوت خطواتٍ يتخفى في الضباب، يبتعد، تثاقل جفناها ووعيها، للحظة رأتهما تتبخران من المكان، وصوت الحفيف والرياح يملآن أذنيها.

عادت رأسها على مسند الأريكة ووعيها الهارب يتساءل: هل كانتا هنا؟ هل ما حدث حقيقة؟ سرى الخدر في كُلِّ شِبرٍ فيها، سقطت رأسها على كتفها ويداها بجوارها، وهَرَب آخر خيطٍ من وعيها خلف الضباب لا يعرف أهذا حلمٌ أم واقع.

بعد منتصف الليل، تجلس دارين أرضًا بغرفة المكتب التي لم تُضئ نورَها، فقط بضع ثُلَّاتٍ متفرقة من الضوء الواهن القادم من البهو تتساقط على الكرسي الهزاز أمامها، بالكاد تصل قدميها. تضع الكمان بحضنها، دموعها تنسابُ على خَدَّيها بصَمت، نشيجها المكتوم يملأ صدرها، عيناها مُثَبَّتتان أرضًا، ارتسمت ابتسامةٌ واهنة على شفتيها حين أتاها صوتها الهادئ من طرف الأريكة بجوارها:

- هل تشعرين أنك أفضل بعد حدوث ما خَطَّطتِ له؟

رفعت رأسها لتلتقي عينها بفتاةٍ ممشوقة الجسد، شقراء البشرة والشعر، بعيونٍ سوداء واسعة، ووجهًا يملؤه الجمال، تجلس بالكرسي المقابل لها عاقِدةً ساعديها على صدرها وبعينها نظرةُ أسى، فابتسمت بألَمٍ لا تعرف ما الذي تشعر به ودموعها ما زالت تتدفق. حَلَّق الصمت للحظة، قبل أن تبتسم بوجع، ترخي كتفيها بوهن:

- لا أعرف يا كاميليا إن كُنتُ أفضل أم لا.

- لقد ساعدتُك لأني اعتقدتُ أن هذا سيجعلك أفضل.

- لم أكن بخيرٍ على أي حال.

- كان يمكن أن تُسامحي؟

تساءلت كاميليا بنبرةٍ مُشفِقَةٍ عليها، فصمتت دارين، مسحت الدموع بطرف كُمِّها، اختنق صوتها واختلطت نبرتها بنشيجها المتقطع:

- أتعتقدين أنني لم أحاول؟ لكنني لم أستَطِع الأمر كان أكبر من احتمالي.

أرسلت طرف عينها نحو الزاوية المُظلِمةِ البعيدة حيثُ نقطةٌ بعينِها:

- ربما لو كُنتِ هي لاستطعت المسامحة، كانت دومًا تستطيع.

صمتت، عادت نظراتها أرضًا، ابتلعت نشيجها قبل أن يخرج صوتها مهزومًا:

- هل تستطيعين مُسامَحتي؟

- هل ستُخبِرين أمَّنا الحقيقة؟

جاءها السؤال من لين، القابعة في ظلام الزاوية. حَلَّ الصمت ضيفًا، وارتبكت العيون المُتألمة، فانسحبت كاميليا سريعًا من المشهد تاركةً كلتيهما معًا، فهي تَعلم أن وجودَها الآن ليس مُلائمًا. رفعت دارين ذراعها اليمنى تُسندها على ركبتها وتُسنِدُ رأسها إليها، بنبرةٍ مُضطربة:

- ماذا تريدين مني إخبارها؟

رفعت ذراعها الأخرى وتركت رأسها تهوي بين كفيها وصوتها يُعاود اختناقه بدموعها المكتومة:

- أنني قتلتُ ابنتها، أنني من تسبَّب بقتل أختي الوحيدة؟

رفعت عينها مُجَدَّدًا وبقايا ضوءٍ مُحتضر ترمي ظلالها على جانب وجهها:

- كيف أنظر بعينها وأخبرها أنني دارين وأن لين ابنتها المحبوبة هي من قتلوها اعتقادًا منهم أنها أنا؟

أجهشت في البكاء بحُرقةٍ ملأت صدرها.

- حين استيقظتُ من الغيبوبة اعتقدت أمي أنَّني أنتِ، أخبرتهم أن دارين هي من رحلت وأن لين هي مَن بقيت، لم أستطع النظر بعينها وإخبارها أنها مُخطئة، وأنني قتلتكِ، لم أجرؤ على فعلها، كِلتانا تعرف كم كانت تُحِبُّكِ؛ ابنتها المطيعة، كم كانت تُعَلِّق كُلَّ آمالها عليكِ، آسفه، لم أستَطِع ولن أستطيع إخبارها.

ازداد نشيجها وتقطع صوتها:

- أنا آسفة يا لين، آسفة يا أختي على كل ما فعلت، أنا من أصررت على ذهابك إلى الحفل، كل ما كنت أريده أن تكوني بجواري، كنت أريدك أن تقفي بجانبي وأخبرك أنكِ كُنتِ محقة، لا أحد منهم يستحق، أنا مَن أرادوا قتلها، أنا مَن كان يجب أن تموت تلك الليلة، أرجوكِ سامحيني.

انهارت أرضًا يزداد بكاؤها وترتعش من الألم، أنفاسُها تُؤلمها من حُرقة صدرها الموجوع، حين شعرت بغيمة الضباب تحاوطها، تلُفُّها، تحتضنها، خدرٌ دافئٌ سرى

بعروقها، أخمد لوعتها، تراءى لها الضبابُ أبيضَ على عكس ما كانت تراه سابقًا أسودَ قاتِمٌ سوادُه، أصبحت غيمةً ناصِعةً بياضَها، تحتضنها حتى راحت في سُباتٍ عميق.

بعد أسبوعين، وفي صباحٍ مُشمِسٍ على غير العادة في الأيام المطيرة الأخيرة، تسللت أشعة الشمس الذهبية من أسفل النافذة وشقوق درفتيها الخشبيتين، تُداعب عينيها الناعستين، حتى استيقظت دارين أخيرًا وقد ملأ الضوء الغرفة وبَثَّ بها دِفئًا وإشراقةً مُبهجة، لم تكن اعتدلت بعد حين التقت عيناها الناعستان كلتيهما تجلس على السرير المقابل لها تبدو على وجهيهما الجِدِّية. فركت عن عينيها النوم وهي تَعتَدِل قليلًا وترتكن بظهرها إلى مسند السرير الخلفي وتتساءل بحيرةٍ وصوتٍ ما زالت أثار النوم عالقةً به:

- ماذا؟

- أنتِ تحبينه؟

ارتسمت على وجه دارين نظرةٌ بلهاء، فهي لم تفهم السؤال جيدًا، أو ربما ما زالت نائمة؛ لتعاود كاميليا العاقدة ذراعيها فوق صدرها بنظرةٍ تزداد جديتها:

- أنتِ تُحِبِّين عاصم، هيا، اعترفي.

نظرت دارين نحو أختها الجالسة خلف كتف كاميليا، والتي هَزَّت كتفيها بابتسامةٍ خافتةٍ دون أن تنطق، لتهرب دارين بعينيها وهي تنفض عنها الغطاء:

- ارتاحي يا كاميليا؛ فهو لا يرى غيرك.

- لكنها ميتة.

هتفت لين بعفوية لتلتَفِتَ نحوها كاميليا بنظرةٍ مُغتاظة، فأشارت لين بيديها ونظرةٌ بلهاء ترتسم بعينها:

- عَمَليًّا أنتِ ميتة.

زوت كاميليا بين حاجبيها وهي تنتفض واقفةً وتوجه كلامها إلى لين، المتربعة فوق السرير:

- أنا لستُ ميتة، حسنًا، وإن كنت كذلك بشَكلٍ ما فما زِلتُ أعيش بقلبه.

- إذًا ما الضرر أن تحبه دارين ويكونا معًا؟ هي تستحق ذلك بعد كل ما عانته.

- تلك خيانةٌ لي.

- أية خيانةٍ وأنتِ ميتة؟ فليخبرها أحدهم أنها ماتت.

وقفت لين مُقابلها تُعيد مرارًا بمَرَحٍ تَهَكُّمي: "أنتِ ميتة يا حمقاء!"؛ زاد غيظ كاميليا وراحتا تتراشقان بالكلمات، قبل أن تهتف دارين بانزعاجٍ وهي تشير بيديها بقطعيةٍ وصرامة:

- توقَّفا كلتاكما عن هذا، الآن!

التفتتا نحوها وصمتتا، تقدمت خطوةً تسحب منشفتها، حين أوقفها صوتُ كاميليا:

- إن كُنتِ حقًا تحبينه...

- إن الأمر مُعَقَّدٌ بما فيه الكفاية يا كاميليا، فلا تزيديه أرجوكِ.

هتفت دارين وهي تلتفت نحوهما، لتدخل لين سريعًا:

- بسبب أنه يكبرك في السن؟

- كلا، أنا هي التي أمورها معقدة؛ كلتاكما، وهذا الوضع برُمَّته، كيف يمكن له أن يتحَمَّل أن يكون مع امرأةٍ يعيش معها أموات؟

رفعت لين وكاميليا حاجبيهما بنظرات استنكارٍ مُحتَجَّة، لتشير دارين:

- لا أقصد أية إهانة، لكن... الأمر أنه...

تنَهَّدت باستسلام، أغمضت عينيها ومسحت بينهما وهي تتجه نحو الباب...

- أتعرفان؟ انسيا الأمر.

- عاصم حقًا يهتم لأجلك؛ يمكنني أن أرى ذلك وأشعر به.

هتفت كاميليا بابتسامةٍ حزينة، لتزفر دارين بأسى، ابتسمت لين وهي تقف بين كلتيهما:

- دعوا هذا الأمر للزمن، هو كفيلٌ بحَلِّه، ودعونا نُرَكِّز على الليلة.

غمزت لأختها بابتسامةٍ بشوشة:

- عليكِ أن تكوني رائعة، وجِدًا، لقد عَمِلنا كثيرًا وبجد لأجل الوصول إلى تلك الليلة المميزة.

- سوف تفعلينها يا فتاة، لقد فعلنا الأصعب معًا، نحن نثق بكِ.

أتبعت كاميليا بابتسامةٍ مُشَجِّعةٍ ونبرةٍ مَرِحة، ابتسمت دارين، وكُتلةٌ من مشاعر الارتباك والاضطراب تملؤها، لكنَّ نظرات كلتيهما المشجعة لها وابتسامتهما التي تمدها بالثقة وتخبرها أنهما لن تتخليا عنها نزعت الكثير من قلقها.

في المساء، ترتدي فستانًا أسود يصل إلى منتصف ساقيها، ذا أكمامٍ طويلةٍ، مُوشًّى بفراشاتٍ ذهبيةٍ صغيرة الحجم مُتناثِرةً على اتساعٍ من بعضها، يلتفُّ عليها بأناقةٍ وبساطة، جمعت شعرها الأسود الطويل في زهرةٍ نائمةٍ تغطي عنقها من الخلف، لا تضع من مساحيق التجميل إلا النزر الذي لا تكاد تلمحه، لكنه يبرز جمالها الطبيعي. تقف دارين بوسط المسرح المعتم إلا من الإضاءة المسلطة عليها، لتُبرزها كنجمةٍ وحيدةٍ مُتألِّقة وسط سماء مقفرة، فتجذبك عنوةً لتأخذك بسحرها الخلاب.

يدها اليمنى مُطبِقة على قوسها واليسرى على رقبة الكمان، مغمضة العينين، تُحَلِّقُ معه فوق السحاب، كل جزءٍ بها يشق سماءها الخاصة، يغمرها بنشوةٍ تختبرها فقط حين تتوحد مع كمان أختها، تشعر بالأوتار جزءًا من شراييها، والألحان المنسابة منه دماءها الجارية بين أوردتها، ولين في هذه اللحظة تقف خلف ظهرها تحاوطها بذراعيها، تمسك بساعديها وتشعر أنها تعزف معها حتى وإن كانت طيفًا لا يُرى، لكن دارين كانت تراها وتشعر أنها تتوحد معها، تُلهمها تُحَلِّق بها ومعها، لم تَعِ إلا على التصفيق الحار الذي رَجَّ القاعة داخل دار الأوبرا، لقد كان حفلها المُنتَظر، وقد عزفت مقطوعتها الجهنمية؛ "حصاد الماضي"، التي أبهرت الجميع حَدَّ الثمالة.

كادت يدا والديها تدمي من شدة الانفعال والفخر بفتاتهما، التي وقف كل من بالقاعة على امتلائها يصَفِّقُ لها، كذلك عاصم، كان يتراقص قلبه فرحًا لأجلها، وتصفيق مازن يُطلِقُ صداه في المكان، بينما ريم كادت تقفز تهليلًا من شدة سعادتها بنجاح صديقتها، وابتسامات كاميليا المبتهجة تأتيها من خلف الكواليس.

أحَسَّت دارين بنجاحها الحقيقي وهي ترى لين بجوارها على المسرح يتراقص الفرح بوجهها الملائكي، تكاد تُقسِمُ إنها رأت دموعها، حتى وإن كانت طيفًا. هتفت لين بصوتٍ مُختَنِقٍ من نشيج الفرح وهي تحتضنها: "شكرًا لك يا دارين، حَقَّقتِ حلمي وأكملتِ مقطوعتي. لا أُصَدِّقُ أن هذا حدث فِعلًا، فربما لو كُنتُ حية ما استطعت فعلها"، ابتسمت دارين بسعادةٍ عارمة؛ فالآن فقط حققت ما أرادت وهي تسمع الجميع يُهلل ويهتف باسم أختها، كونها هي في نظر الجميع لين، لكن هذا تحديدًا كان سبب فرحتها؛ أنها حققت لأختها حُلمها بأن تصبح أشهر عازفة كمان وتُقَدِّمَ مقطوعتها الخاصة، وقد فعلتاها معًا.

بعد عدة أيامٍ لاحقة وصلت هي وعاصم إلى العنوان المنشود، أطفأ السيارة وظَلَّا لدقيقتين في صَمتٍ مُطبق، تنحنح بابتسامةٍ مُشَجِّعة:

- هل أنتِ جاهزة؟

التفتت نحوه بابتسامةٍ مُتلجلجة، حركت رأسها أن نعم، فأمسك يدها، وبصوتٍ بَثَّ بها الشجاعة:

- أنا معكِ؛ لا تخافي شيئًا، سأكون دومًا هنا إلى جوارك لأحميَكِ، لن أسمح لأيِّ شيءٍ أن يؤذيكِ مجددًا.

شعرت بصدرها يعلو ويهبط ونبضها ينتفض من رجفةٍ ضربت أعماقها، لكنها رجفةٌ دافئةٌ حانية، استطابت عبثها بأوصالها، وتمنت لو طالت إلى ما بعد الأبد.

لحظات وغادرا السيارة، دخلا البناية، وصلا الدور الخامس، طَرَقا باب الشقة في نهاية المَمَر، فتح لهما مازن وعلى وجهه ابتسامةٌ ودية مُطمئنة؛ دلفا في هدوءٍ وأغلقا خلفهما الباب، وصلا إلى منتصف الاستقبال، أعطاها مازن صورةً فوتوغرافيةً لامرأةٍ في عقدها الأربعين، ثم انتحى إلى الزاوية ووقف عاقدًا ساعديه. تأمَّلت هي الصورةَ لدقيقةٍ كاملة، قبل أن يُمسك عاصم بيدها يلمس بيده الأخرى على كتفها بخِفَّةٍ حانية، وهَمَس قريبًا من أذنها:

- تذَكَّري، كُلُّ ما عليكِ فعله هو التركيز، محاولة التوحد مع المكان، أنا واثقٌ أن هذا سيأتي بنتائج جيدة.

تركها وتراجع بخُطًى بطيئةٍ حتى وصل موقف مازن، ووقفا متلاصقين صامتين. تقدمت خطواتٍ مُتثاقلة قبل أن ترى كاميليا في زاوية ولين في الأخرى تُومئان لها بابتسامةِ تشجيع؛ انحنت أرضًا، لمست بُقعَةَ دماءٍ في منتصف المكان، تنَفَّست بعُمقٍ وأغمضت عينها، هَمَس مازن بتوتُّرٍ حاول السيطرة عليه:

- هل أنت واثقٌ أن هذا سينجح؟

- أنت من أتى طلبًا للمساعدة!

- أعرف، لكن أخشى أن يحدث شيءٌ سيئ.

- لا تقلق، إن كانت هناك روحٌ في المكان فربما ينجح الأمر، لقد قُلتَ إن بعض الشهود أكَّدوا أنهم منذ حادثة القتل يرون طيف القتيلة هنا، إذن فربما تريد إرسال

رسالةٍ كما فعلت كاميليا من قبل، ولين أفضل شَخصٍ لتلقيها، وبكل الأحوال لن نخسر شيئًا إن جَرَّبنا.

صَمَتا كلاهما، مَرَّت دقيقتان قبل أن ترتسم ابتسامة ظَفَرٍ على وجه دارين وهي ترى أمام عينيها المُغمَضَتين الكثير من المشاهد تتجسد أمامها، الصور تعود للخلف بسرعةٍ مُذهِلة ثم توقَّفت فجأةً لترى صاحبة الصورة تخرج من الغرفة المجاورة لها... توقفت على بُعدِ خطوات، نظرت إلى الواقفتين في الزاوية، واللتان تبادلتا نظراتٍ صامتة لكنها كانت تحمل إشاراتٍ تحذيريةٍ للوافدة الجديدة؛ ألَّا تُفَكِّري بالعبث معنا، فاقتربت من دارين، التي راحت أنفاسها تعلو وتهبط اضطرابًا، فهذا شيءٌ لم تختبره سابِقًا، حين أمسكت الأربعينية بكَفِّها، ليتوقَّف كُلُّ شيءٍ فجأة ويختفي الجميع، وتعود الصور سريعًا وتتوقف عند لحظةٍ بعينها؛ لحظة ارتكاب جريمةٍ في هذا المكان.

ابتسمت دارين بطرف فمها: "الآن تبدأ اللعبة".

تمت

20/5/2021